

# موسوعة عالم الأديان

كل الأديان . المذاهب . الفرق . البدع في العالم

17

NOBILIS



# موسوعة عالم الأديان

كُلُّ الأديان والمذاهب والفرق والبدع في العالم

---

ظهور الإسلام واتساره





مجموعة من كبار الباحثين

ياشرف

ط. ب. مفرج

موسوعة

# عالم الأديان

كل الأديان والمذاهب والفرق والبدع في العالم

الجزء السابع عشر

ظهور الإسلام وانتشاره

NOBILIS

## جميع الحقوق محفوظة للناشر

طبعة أولى - ٢٠٠٤

طبعة ثانية - ٢٠٠٥

إسم المجموعة	: موسوعة عالم الأديان
	كُلُّ الأديان والمذاهب والفرق والبذع في العالم
إسم الكتاب	: ظهور الإسلام وانتشاره
الجزء	: السابع عشر
المؤلف	: مجموعة من كبار الباحثين بإشراف ط. ب. مفرج
قياس الكتاب	: ٢٠ × ٢٨
مكان النشر	: بيروت
دار النشر والتوزيع	: NOBILIS
تلفاكس	: ٥٨١١٢١ - ١ - ٩٦١
	: ٥٨١١٢١ - ٣ - ٩٦١

يُمنع نسخ أو اقتباس أي جزء من هذه المجموعة أو تخزينه في نظام معلومات إلكتروني أو نقله بأي شكل أو أي وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية أو بالنسخ الفوتوغرافي أو التسجيل أو غيرها من الوسائل، دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

# المحتويات

## الفصل الأول

### مُحَمَّدٌ ﷺ

مولدُ الرُّسُولِ ونَشَأَتُهُ - ص ١١؛ المبعث - ص ٢١؛

مهاجرة الحبشة - ص ٢٦؛

الهجرة إلى المدينة - ص ٢٨؛ وقعة بدر - ص ٣٢؛

وقعة أحد - ص ٣٤؛ وقعة الخندق - ص ٣٧؛ وقعات اليهود - ص ٣٩؛

الحديبة وفتح مكة - ص ٤٣؛ غزوات الرسول - ص ٤٦؛ أزواج الرسول - ص ٥٠؛

حجة الوداع - ص ٥٢.

## الفصل الثاني

أبو بكر وأيامه

الانتقال - ص ٥٧؛

مسألة الخلافة - ص ٥٨؛

مدعو النبوة - ص ٦٢؛

فتوحات أبي بكر - ص ٦٦.

## الفصل الثالث

### عُمَرُ وَأَيَّامُهُ

عُمَرُ: الْخَلِيفَةُ الثَّانِي - ص ٧٥؛ أَعْمَالُ عُمَرَ - ص ٧٩؛

أَبُو عُبَيْدَةَ أُمَ خَالِدٍ؟ - ص ٨٣؛

نَقْشُ عُمَرَ - ص ٨٥؛

فَتْوحَاتُ مَا بَعْدَ دِمَشْقٍ - ص ٨٩؛ مَعْرَكَةُ الْيَرْمُوكِ - ص ٩٠؛

مَقَرَّرَاتُ الْجَابِيَةِ - ص ٩٢؛

فَتْحُ مِصْرٍ - ص ٩٣؛ طَاعُونُ عَمَّاسٍ وَعَامُ الرَّمَادَةِ - ص ٩٤؛

فَتْحُ بِلَادِ فَارِسٍ - ص ٩٦؛

إِغْتِيَالُ عُمَرَ - ص ١٠١.

## الفصل الرابع

### عُثْمَانُ وَأَيَّامُهُ

تَوَلِيَةُ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ - ص ١٠٧؛

النَّقْمَةُ عَلَى عُثْمَانَ - ص ١١٤؛

إِنْجَازَاتُ عُثْمَانَ - ص ١٢٧؛

الثَّوْرَةُ عَلَى عُثْمَانَ - ص ١٣١.

## الفصل الخامس

### عهد الإمام عليّ

مبايعة عليّ - ص ١٤٧؛

تعيينات العهد الجديد - ص ١٥٢؛

يوم الجمل - ص ١٥٤؛

صفيّين - ص ١٦٣؛

التحكيم - ص ١٦٧؛ محضر التحكيم - ص ١٧٥؛

الإنقسام - ص ١٨٠.

## الفصل السادس

### إنتشار الإسلام قبل منتصف القرن السابع

رقعة الإسلام في عهد الراشدين - ص ١٨٣؛

الإنشار الإسلامي في عهد الرسول - ص ١٨٥؛

في عهد أبي بكر - ص ١٨٦؛

في عهد عمر - ص ١٨٧؛ في عهد عثمان - ص ١٨٨؛

لمحة كاملة عن انتشار الإسلام - ص ١٨٨؛

الإسلام في القارة الأفريقيّة - ص ١٩٢.

## الفصل السابع

### فتح الأندلس

عبد الرحمن الأول - ص ١٩٧؛

تمّ أمرنا وغلبنا - ص ٢٠٣؛

أمير الأندلس - ص ٢١٠؛

التقسيم الإداري وشكل الحكم - ص ٢١٣؛

العمارة والإنشاءات - ص ٢١٧؛

النهاية... غير البداية - ص ٢٢٠؛

بقايا عربية - ص ٢٢٣.



## الفصل الأول

### مُحَمَّدٌ

مَوْلِدُ الرَّسُولِ وَنَشَأَتُهُ؛ الْمَبْعَثُ؛ مَهَاجِرَةُ الْحَبَشَةِ؛  
الْهَجْرَةُ إِلَى الْمَدِينَةِ؛ وَقْعَةُ بَدْرٍ؛ وَقْعَةُ أُحُدٍ؛ وَقْعَةُ الْخَنْدَقِ؛  
وَقَعَاتُ الْيَهُودِ؛ الْحَدِيبَةِ، وَفَتْحُ مَكَّةَ؛ غَزَوَاتُ الرَّسُولِ؛ أَزْوَاجُ الرَّسُولِ؛  
حَجَّةُ الْوَدَاعِ.



# مَوْلِدُ الرَّسُولِ وَنَشَأَتُهُ

كان مولد النبي العربي، محمد ﷺ في العام ٥٧٠م. في مكة، من آمنة، زوجة عبد الله بن عبد المطلب، من بطن هاشم، من قبيلة قريش "من العرب المستعربة، ويُسمون العدنانيين، والنزاريين والحجازيين والإسماعليين، فينتهي نسبهم إلى إسماعيل الذي أنزله أبوه إبراهيم عليه السلام بمكان الكعبة<sup>١</sup> طفلاً. وتركه وأمّه هاجر هناك"<sup>٢</sup>.

لقد كان مولد هذا الطفل أحد أهم أحداث التاريخ لأنه سيصبح النبي ﷺ الذي، غير مجرى التاريخ في الشرق الأدنى، وكاد أن يغيّره في العالم أجمع. ومن يطالع مراحل رسالة النبي العربي ﷺ، لا يستطيع إلا أن يرى فيها ما لا يمكن اعتباره إلا معجزة وما يجب أن يُلحظ قبل ذلك، أن أكثر من نصف مليار من الناس اليوم، ينتمون إلى جميع الأعراف البشرية، ويتكلمون عددًا كبيرًا من اللغات، ويسيطرون على معظم المنطقة الواقعة بين بلاد المغرب ونايجيريا غربًا، إلى أندونيسيا وماليزيا شرقًا، هم مر أتباع النبي العربي ﷺ. ويذكر بعض مؤرخي الإسلام حصول بعض الخوارق عند

---

١ - الكعبة: بناء مكيّ يتوسط البيت الحرام في مكة، وفي زاوية جدارها الجنوبيّ الحجر الأسود، كان العرب يعظّمونها فلمّا بُعث النبي ﷺ أمر بالتوجه إليها في الصلاة، والمسلمون يستقبلونها من جميع قطارهم وبلادهم، طهرها الرسول ﷺ يوم فتح مكة من الأصنام وغسلها.

٢ - القطب سميع عبد الرزاق، أنساب العرب، نشر دار مكتبة الحياة (بيروت ١٩٦٨) ص ٣٩ - ٤٠.

ولادة النبي ﷺ، منها أَنَّ "رجلاً من أهل الكتاب جاء إلى جماعة من قريش يوم ولادة حمّد ﷺ كان من بينهم هشام بن المغيرة والوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة، فقال: 'وُلِدَ لَكُمْ الليلة مولود' فقالوا: 'لا'. قال: 'أخطأكم والله معشر قريش، فقد وُلِدَ إذا فلسطين غلام اسمه أحمد، به شامة كلون الحرّ الأدكن، يكون به هلاك أهل الكتاب'. قبل أن يبتعدوا عن المكان، قيل لهم إنه وُلِدَ لعبدِ الله بن عبد المطلب الليلة غلام. مضى الرجل قاصداً الطفل، ولَمَّا نظر إليه قال: 'هو والله هو! ويل أهل الكتاب منه'. لَمَّا رأى سرور قريش بما سمعت منه قال: 'والله ليسطونَ بكم سطوة يتحدّث بها أهل المشرق والمغرب'<sup>١</sup>.

وروي عن أمّه أنها قالت: "رأيت لَمَّا وضعتَه نوراً بدا مِنّي ساطعاً حتّى أفرّغني، لم أرَ شيئاً ممّا يراه النساء". وروي بعضهم أنها قالت: "سطع مِنّي النور حتّى رأيت تصور الشّام. ولَمَّا وقع إلى الأرض قبض قبضة من تراب ثمّ رفع رأسه إلى السماء"<sup>٢</sup>. ويذكرون أَنَّ "أمّه لم تشعر به قطّ في أحشائها حتّى ساعة مولده، عندما جاء ملاك يبشّرُها بمولود. وأنّ مرضعته شعرت بالحليب يملأ ثديها الجافّ ساعة وضعتَه في حجرها. وقد رأى ابنها الذي كان يلعب معه خلف البيوت رجلين عليهما ثياب بيض أضجعا فشقّاً بطنه، واستخرجا قلبه فشقّاه، واستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها". وفي القرآن الكريم يخاطب الله تعالى نبيّه قائلاً: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ. وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ. الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ. وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾<sup>٣</sup>.

١ - اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح، تاريخ اليعقوبي، طبعة دار المصادر (بيروت، لا.ت)، ٢: ٩.

٢ - المرجع السابق.

٣ - الشرح: ١: ٤٤؛ راجع: حتّي د. فيليب، صناعات التاريخ العربي، نشر دار الثقافة (بيروت، ١٩٦٩) ص ١٥ - ١٦.

وبشأن مرضعته، ثوبية، مولاة أبي لهب<sup>١</sup> وهي التي أرضعت حمزة بن عبد المطلب<sup>٢</sup> وجعفر بن أبي طالب<sup>٣</sup> وأبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي، "قال رسول الله ﷺ، بعدما بعثه الله: رأيت أبا لهب في النار يصيح العطش العطش، فيُسقى في نقر إبهامه. فقلت: بم هذا؟ فقال: بعثني ثوبية لأنها أرضعتك"<sup>٤</sup>.

ويذكرون أنه لما ولد رسول الله ﷺ رُجمت الشياطين وانقضت الكواكب. فلما رأت ذلك قريش، أنكرت انقضا الكواكب وقالوا: ما هذا إلا لقيام الساعة. وأصاب الناس زلزلة عمّت جميع الدنيا حتى تهتمت الكنائس والبيع وزال كل شيء يُبعد دون الله، عز وجل، عن موضعه. وعميت على السحرة والكهّان أمورهم وحُبست شياطينهم. وطلعت نجوم لم تُرَ قبل ذلك، فأنكرتها كهّان اليهود. وزلزل إيوان كسرى<sup>٥</sup> فسقطت منه ثلاث عشرة شرّافة<sup>٦</sup>. وخمدت نار فارس<sup>٧</sup> ولم تكن خمدت قبل ذلك بألف

١ - أبو لهب (ت ٢٢٤هـ / ٦٢٤م): هو عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم، عم النبي ﷺ، وزوج أخت أبي سفيان، داب هو وزوجته على إيذاء النبي ﷺ، اعترضه يوم أن جمع أهله حول الصفا، داعيًا لِيَاهُم إلى رسالته، وقال له: تَبَا لَكَ إِلَهَذَا جَمَعْتَهُ؟، فنزل فيه وفي زوجته ثلوه تعالى: كُتِبَ يَدَا أَبِي لَهَبٍ، لم يشترك في بدر، مات بعدها بليالٍ وكلّه حسرة على هزيمة قريش.

٢ - حمزة بن عبد المطلب (ت ٣٠هـ / ٦٢٥م): عم النبي ﷺ، من سادات قريش في الجاهلية وصدر الإسلام، قُتل في بدر واستشهد في أحد.

٣ - جعفر بن أبي طالب (ت ٨٠هـ / ٦٢٩م): صحابي هاشمي من الشجعان، ابن عم النبي ﷺ، حامل اللواء في غزوة مؤتة، لم يتركه حتى يترت يداه واستشهد، كُتِبَ النبي ﷺ بذي الجناحين.

٤ - اليسقوبي، مرجع سابق، ٢: ٩.

٥ - إيوان: قصر، أصلها فارسي. وتعني أيضًا المكان المتسع من البيت يحيط به ثلاثة جدران.

٦ - كسرى الأول أو خسرو قوشروان: ملك ساساني ٥٣١ - ٥٧٩، ابن قباد، حارب يوستينيانوس واحتل أنطاكية ولائق، أجبر على عقد هدنة مع البيزنطيين ٥٥٥، استولى على اليمن ٥٧٠، اشتهر بعذله، أهم مشاريعه: مسح الأراضي وإصلاح نظام الضرائب.

٧ - الشرّافة والشرّافة: واحدة الشرافات، وهي مثّلات أو مربعات بُنِيَتْ متقاربة في أعلى سور أو قصر.

٨ - نار فلرم: هي النار الدائمة الشعلة في معابد المجوس.

عام. ورأى عالم الفرس وحكيمهم، وهو الذي تسمّيه الفرس "مويزان موبد"، القيم شرائع دينهم، كأنّ إبلاً عرباً تقود خيلاً صعباً حتى قطعت دجلة وانتشرت في البلاد. راع ذلك كسرى أنوشروان\* وأفرعه، فوجّه إلى النعمان<sup>١</sup> فقال: هل بقي من كهّان لعرب أحد؟ قال نعم: سطّيح الغسانيّ<sup>٢</sup> بدمشق من أرض الشام. قال: فجنّني بشيخ من العرب له عقل ومعرفة أوجّهه إليه. فأثّاه بعبد المسيح بن بقليلة، فوجّهه إليه. فخرج عليه عبد المسيح على جمل حتى قدم دمشق. فسأل عنه فدلّ عليه وهو ينزل في باب الجابية<sup>٣</sup>، فوجده في آخر رمق. فنادى في أذنه بأعلى صوته:

أصمُّ أم تسمعُ غطريفَ اليمين      يا فارج الكربة أعيتَ مَنْ وَمَنْ  
وفاصلَ الخطبة في الأمر العَنَن      أتاكَ شيخُ الحيِّ مِنْ آلِ يَزَنَ

فقال: عبد المسيح، على جمل مشيخ، نحو سطّيح، حين أشفى<sup>٤</sup> على الضريح. بعثك ملك بني ساسان<sup>٥</sup>، بهدم الإيوان<sup>٦</sup>، وخمود النيران<sup>٧</sup>، ورؤيا الموبدان<sup>٨</sup>. رأى إبلا

١ - النعمان الثالث ابن العنذر (٥٨٠ - ٦٠٢): آخر ملوك اللخميّين في الحيرة، ومن أشهر ملوكها، نشأ في عائلة نصرانيّة، خلعه كسرى أنوشروان وسجنه في المدائن، مدحه النابغة الذبياني، دعتّه المصادر العربيّة بـ"أبي قابوس" وقالت أنّه صاحب يوميّ "البؤس والتّعيم".

٢ - سطّيح الكاهن (٥٧٢): هو ربيع بن ربيعة، من أشهر كهّان العرب في الجاهليّة، يذكر مع زميله "ثقف"، كان أبداً منسطحاً على الأرض لا يقدر على قيام أو قعود، وكان من المعترّين.

٣ - باب أو تلّ الجابية: قرية في سورية غربي دمشق، لقام فيها أمراء بني جفنة الغسانيّون، جعلها العرب جنّداً عند فتحهم الشام، فيها تقام العرب الخناتم بعد معركة اليرموك ونزل الخليفة عمر رضي الله عنه مع زعماء الصحابة للتداول في شؤون الفتح فكان يوم الجابية وكانت خطبة الجابية. وفي الجابية عقد المؤتمر الذي بايع مروان بن الحكم فانتقل الحكم من السفليّين إلى المروانيّين. انحطّت على إيّام العبّاسيّين. فيها مياه ومراع.

٤ - أشفى هنا بمعنى أشرف.

٥ - المقصود كسرى.

٦ - المقصود إيوان كسرى.

٧ - النار الدائمة الشّعلة في معابد المجوس.

٨ - موبدان موبد: عالم الفرس وحكيمهم، كما ورد في صدر النصّ أعلاه.



عرباً تقود خيلاً صعباً حتى قطعت دجلة وانتشرت في البلاد. يا ابن ذي يزن تكون هنة وهنات ويموت ملوك وملكات بعدد الشرافات. إذا غاضت بحيرة "ساوه"<sup>١</sup> وظهرت التلاوة بأرض تهامة<sup>٢</sup> وظهر صاحب الهراوة فليست الشام لسطيح شاما". ثم فاضت روحه<sup>٣</sup>.

وذكر أنه "لما خرج الفتى محمد ﷺ، وهو بعد في الثانية عشرة من عمره، مع عمه أبي طالب إلى الشام، نظر راهب مسيحي اسمه "بُحيرا"<sup>٤</sup> إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه<sup>٥</sup>. وذكر باحثون أن "الأساطير الإسلامية والمسيحية التي حكّت حول بحيرا، من شأنها أن تعكس لنا شيئاً عن العلاقات القديمة بين الديانتين المسيحية والإسلامية، وعن أثر المسيحية"<sup>٦</sup>. وفي رواية "أن محمداً ﷺ زار دمشق، وأنه تردّد عند دخوله باب المدينة قائلاً إنه يريد دخول الجنة مرة لا مرتين"<sup>٧</sup>. ولكن من العسير أن نأخذ بهذه الرواية... إذ لا نجد في القرآن الكريم إشارة إليها. ويبقى القرآن الكريم، في إشاراته إلى حوادث وقعت في حياة محمد ﷺ، أفضل مصدر يوثق به في دراسة حياته. علماً

---

١ - ساوه أو ساوى: مدينة ومقاطعة في شمال غربي إيران، خربها المغول ١٢٢٠.

٢ - تهامة: هي أراضي السهل الساحلي الضيق الممتد من شبه جزيرة سيناء شمالاً إلى أطراف اليمن جنوباً، وفيها مدن نجران ومكة وجدة وصنعا.

٣ - البغدادي، مرجع سابق، ٢: ٨.

٤ - بُحيرا (الراهب) (النصف الثاني من القرن السادس): راهب أقام في جزيرة العرب، ابتنى له صومعة على طريق القوافل، كان يدعو البدو إلى التوحيد، جاء عنه في "المنجد في الأعلام، دار المشرق، المطبعة الكاثوليكية (بيروت، ١٩٧٦) ص ١١٩ أنه استضاف ركب تجار قريش في بصرى من أرض الشام وفي الراكب أبو طالب يصحبه ابن أخيه محمد، وكان حدثاً، فلما تفرّس فيه بحيرا قال لعمته: إنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم. ثم حذّره عليه من اليهود.

٥ - حتّي، صائمو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ١٦.

٦ - حتّي، المرجع السابق.

٧ - حتّي، المرجع السابق.

بأن أول سيرة لحياته ﷺ وضعها ابن إسحق المتوفى سنة ١٥١ هـ / ٧٦٨ م<sup>١</sup> وجمعها ابن هشام الذي توفي في مصر سنة ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م<sup>٢</sup>، فكانت قد انقضت مدة طويلة أحيطت خلالها حياة النبي ﷺ بهالة من أعمال وعجائب وصفات لم يقل بها النبي ﷺ نفسه، ولا أشار إليها القرآن الكريم. وأمّا السيرة الثانية لحياته، فقد تضمنتها تاريخ الطبري الذي توفي سنة ٣١١ هـ / ٩٢٣ م. في بغداد<sup>٣</sup>. كما وضع أحمد بن واضح، المعروف باليعقوبي<sup>٤</sup> نتفاً بارزة من سيرة النبي ﷺ في تاريخه، وقد توفي اليعقوبي سنة ٢٦٦ هـ / ٨٧٩ م؛ وكان الواقدي، المتوفى سنة ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م<sup>٥</sup> قد كتب في مغازي

١ - ابن إسحق: محدث ومؤرخ من أصحاب السير والمغازي، نشأ في المدينة وتوفي في بغداد، من تصانيفه: "السيرة النبوية"، "الخلفاء"، "المبدأ"، "المغازي" الذي ألفه لأبي جعفر المنصور.

٢ - ابن هشام عبد الملك الحميري: فيما ذكر حتى أنه توفي سنة ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م، ذكر "المعجم في الأعلام" أنه توفي سنة ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م: مؤرخ من الأوائل، ولد في البصرة وتوفي في الفسطاط (القاهرة) كتب سيرة الرسول مستنداً إلى "سيرة" ابن إسحق، له "التيجان في ملوك حير".

٣ - محمد بن جرير أبو جعفر الطبري: مؤرخ وموسوعي ومفكر ومقرئ ومحدث، ولد في أمل (طبرستان) وتقل بين إيران والعراق وسورية ومصر وأقام أخيراً في بغداد حيث توفي، اختار لنفسه مذهباً في الفقه، له "جامع البيان في تأويل القرآن"، تاريخ الأمم والملوك، تهذيب الآثار، "إختلاف الفقهاء"، و"آداب القضاء"؛ وهناك طبري آخر هو محب الدين أحمد الطبري (ت ٦٩٤ هـ / ١٢٩٥ م): شيخ الحرم، فقيه شافعي ذو مشاركة في الحديث والتاريخ، ولد وتوفي بمكة، له "خلاصة المير في أحوال سيد البشر"، و"غاية الأحكام لأحاديث الأحكام"؛ وهناك علي بن مهمل بن رين الطبري (٧٨٥ - ٨٦١): كان نمطورياً وأسلم، وكتب "الرد على النصارى"، وله كتاب "الدين والدولة"، و"منافع الأطعمة"؛ وطبري رابع هو عبد القادر بن محمد الطبري (ت ١٠٣٣ هـ / ١٦٢٣)، أديب شافعي، ولد وتوفي بمكة، له "عيون المسائل من أعيان الرسائل".

٤ - أحمد بن واضح اليعقوبي (ت ٨٩٧): جغرافي ومؤرخ، قضى بعضاً من حياته في أرمينيا وخرسان ثم أقام في مصر، له "تاريخ" يتناول أحداث ما قبل الإسلام وما بعده، وكتاب "البلدان".

٥ - محمد بن عمر الواقدي (٧٤٧ - ٨٢٢): من أقدم المؤرخين في الإسلام، ولد بالمدينة وأقام ببغداد حيث تولى قضاءها وفيها توفي، اتصل بخالد البرمكي فأجزل عليه عطايها وقرّبه من الخليفة، من مؤلفاته "المغازي"، و"فتح لأريقية" و"فتح المعجم"، و"فتح مصر والإسكندرية"، و"فتح الشام"، أشهر من روى عنه كاتبه ابن سعد؛ أمّا المغازي: فكتاب في الفتوحات الإسلامية؛ أمّا ابن سعد محمد الأزهرى (ت ٢٣٠ هـ / ٨٤٥ م): فمحدث حافظ ومؤرخ ثقة، ولد في البصرة وتوفي ببغداد، صاحب الواقدي فكتب له وروى عنه وغرف بكتابت الواقدي، أشهر مؤلفاته "كتاب الطبقات الكبير".

النبي ﷺ. وكان أول مَنْ كتب عن النبي ﷺ من البيزنطيين، هو القديس ثيوفانس<sup>١</sup>، سنة ٨١٣. وقد كان محمد ﷺ في نظره "أمير العرب وحاكمهم ومدّعي النبوة"، وقد رسخت هذه الصورة بأذهان الناس من غير المسلمين.

تختلف الروايات في زمن وفاة أبي محمد، عبد الله بن عبد المطلب. فعلى ما روى "جعفر بن محمد، أنه توفي بعد شهرين من مولد النبي ﷺ. وقال بعضهم إنه توفي قبل أن يولد"، إلا أن اليعقوبي يعتبر أن هذا القول الأخير غير صحيح، لأن "الإجماع على أنه توفي بعد مولده. وقال آخرون بعد سنة من مولده، وكانت وفاة عبد الله بالمدينة عند أحوال أبيه بني النجار في دار تُعرف بدار النابغة، وكانت سنّه يوم توفي خمساً وعشرين سنة"<sup>٢</sup>.

غير أن مؤرخين محدثين يعتبرون أن عبد الله قد توفي أثناء سفرة قام بها مع قافلة إلى سورية قبل أن يولد محمد ﷺ<sup>٣</sup>. وقد اعتبر المحققون أن "عبد الله بن عبد المطلب، قد توفي في العام ٥٧٠ و زوجته آمنة حامل بالنبي ﷺ"<sup>٤</sup>.

أمّا بشأن السيّد آمنة، أم النبي ﷺ، فيُجمع المؤرخون على أنها قد توفيت يوم كان محمد ﷺ في السادسة من عمره، ولها ثلاثون سنة. وكانت وفاتها بموقع يقال له الأبواء، بين مكة والمدينة. وكان جدّ النبي ﷺ، عبد المطلب، يكفله ويأويه، وكان يومئذ سيّد قريش.

---

١ - ثيوفانس، ويقرن اسمه بثيودورس. وهما قديمان نشأ في دير مار سابا ب فلسطين، نفاهما لاون الأرمني لتكريمهما الأيقونات، فماتا في السجن: ثيودورس ٨٤٢، وثيوفانس ٨١٧، ولثيوفانس تاريخ قيم عن القرون المسيحية الأولى.

٢ - راجع: اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٠.

٣ - حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ١٤.

٤ - راجع: المنجد في اللغة والاعلام، مرجع سابق، ص ٤٥٢.

وَنُكِرَ عَنْ جَدِّ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ رَفُضَ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، وَوَحَّدَ اللَّهَ، وَوَفَى بِالنَّذْرِ  
وَسَنَ سَنًا نَزَلَ الْقُرْآنَ، فِي مَا بَعْدَ، بِأَكْثَرِهَا. وَجَاءَتِ السَّنَةُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِهَا،  
وَهِيَ: الْوَفَاءُ بِالنَّذْرِ، وَمِائَةٌ مِنَ الْإِبِلِ فِي الذِّئَةِ، وَأَلَّا تُتَكَّحَ ذَاتُ مُحَرَّمٍ، وَلَا تُؤْتَى  
الْبُيُوتُ مِنْ ظُهُورِهَا، وَقُطِعَ يَدُ السَّارِقِ، وَالنَّهْيُ عَنْ قَتْلِ الْمُؤَدَّةِ، وَالْمُبَاهَلَةِ، وَتَحْرِيمُ  
الْخَمْرِ، وَتَحْرِيمُ الزِّنَاءِ، وَالْحَذُّ عَلَيْهِ، وَالْقِرْعَةُ، وَالْأَلَّا يُطَوَّفَ أَحَدٌ بِالْبَيْتِ عَرِيَانًا، وَإِضَافَةُ  
الضَّيْفِ، وَالْأَلَّا يَنْفَقُوا إِذَا حَجَّوْا إِلَّا مِنْ طَيِّبِ أَمْوَالِهِمْ، وَتَعْظِيمُ الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ، وَنَفْيُ  
نَوَاتِ الرِّيَاضَاتِ... وَلَمَّا قَدِمَ صَاحِبُ الْفِيلِ خَرَجَتْ قُرَيْشٌ مِنَ الْحَرَمِ فَارَّةً مِنْ أَصْحَابِ  
الْفِيلِ، فَقَالَ عَبْدُ الْمُطَّلَبِ: وَاللَّهِ لَا أَخْرَجَ مِنْ حَرَمِ اللَّهِ، وَأَبْتَغِي الْعِزَّ فِي غَيْرِهِ... فَكَانَتْ  
قُرَيْشٌ تَقُولُ: عَبْدُ الْمُطَّلَبِ إِبْرَاهِيمُ الثَّانِي... وَكَانَ لِعَبْدِ الْمُطَّلَبِ مِنَ الْوُلَدِ الذَّكَورِ عَشْرَةٌ  
وَمِنْ الْإِنَاثِ أَرْبَعٌ: عَبْدُ اللَّهِ أَبُو رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَبُو طَالِبٍ وَهُوَ عَبْدُ مَنْفَافٍ، وَالزُّبَيْرُ  
وَهُوَ أَبُو الطَّاهِرِ، وَعَبْدُ الْكَعْبَةِ وَهُوَ الْمُقَوِّمُ، وَأُمُّهُمُ فَاطِمَةُ بِنْتُ عَمْرِو بْنِ عَائِذِ بْنِ  
عِمْرَانَ بْنِ مَخْزُومٍ، وَهِيَ أُمُّ حَكِيمِ الْبَيْضَاءِ، وَعَائِكَةُ وَبَرَّةٌ وَأَرْوَى وَأُمِيمَةُ بَنَاتُ عَبْدِ  
الْمُطَّلَبِ؛ وَالْحَارِثُ وَهُوَ أَكْبَرُ وَلَدِ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ وَبِهِ كَانَ يُكْنَى، وَقَتْمٌ، وَأُمُّهُمَا صَفِيَّةُ بِنْتُ  
جَنْدَبِ بْنِ حُجَيْرِ بْنِ زُبَابِ بْنِ حَبِيبِ بْنِ سُوَاةَ بْنِ عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ؛ وَحَمْزَةُ وَهُوَ أَبُو  
يَعْلَى أَسَدُ اللَّهِ وَأَسَدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأُمُّهُ هَالَةُ بِنْتُ وَهَيْبِ بْنِ عَبْدِ مَنْفَافِ بْنِ زَهْرَةَ وَهِيَ  
أُمُّ صَفِيَّةَ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ؛ وَالْعَبَّاسُ، وَضَرَارٌ، أُمُّهُمَا نَتِيلَةُ بِنْتُ جَنَابِ بْنِ كَلِيبِ بْنِ  
النَّمْرِ بْنِ قَاسِطٍ؛ وَأَبُو لَهَبٍ وَهُوَ عَبْدِ الْعِزِيِّ، وَأُمُّهُ لَبْنَى بِنْتُ هَاجِرِ بْنِ عَبْدِ مَنْفَافِ بْنِ  
ضَاطَرِ الْخَزَاعِيِّ؛ وَالْغَيْدَاقُ، وَهُوَ حَجَلٌ وَإِنَّمَا سُمِّيَ الْغَيْدَاقَ لِأَنَّهُ كَانَ أَجُودَ قُرَيْشٍ  
وَأَطْعَمَهُمُ لِلطَّعَامِ، وَأُمُّهُ مَمْنَعَةُ بِنْتُ عَمْرِو بْنِ مَالِكِ بْنِ نَوْفَلِ الْخَزَاعِيِّ؛ فَهَؤُلَاءِ أَعْمَامُ  
النَّبِيِّ ﷺ وَعَمَّاتُهُ، وَكَانَ لِكُلِّ وَاحِدٍ عَبْدُ الْمُطَّلَبِ شَرَفٌ وَذِكْرٌ وَفَضْلٌ وَقَدْرٌ وَمَجْدٌ...<sup>١</sup>.

١ - البغوي، مرجع سابق، ٢: ١١.

بعد سنتين من وفاة أم النبي ﷺ، آمنة، توفي جدّه عبد المطلب، عن عمر يناهز المائة وعشرين سنة، وقيل مائة وأربعين، ولمحمد ﷺ ثمانين سنوات... فاحتبى ابنه بفناء الكعبة، لما غيب عبد المطلب، واحتبى ابن جدعان التيمي من ناحية، والوليد ابن ربيعة المخزومي، فادّعى كلّ واحد بالرئاسة. ورؤي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إنّ الله يبعث جدّي عبد المطلب، أمّه واحدة في هيئة الأنبياء وزيّ الملوك"<sup>١</sup>.

بعد وفاة عبد المطلب، كفّل محمدًا ﷺ عمّه أبو طالب. وكان، على الرغم من فقره، سيّدًا شريفًا مطاعًا مهيبًا... وقد قال ابنه عليّ عليه السلام: أبي ساد فقيرًا، وما ساد فقيرٌ قبله.

خرج أبو طالب بمحمد ﷺ إلى بصرى من أرض الشام، وهو ابن تسع سنين. وربّته فاطمة، بنت أسد بن هاشم امرأة أبي طالب وأمّ أولاده جميعًا. ويروى عن النبي ﷺ لما توفيت، وكانت مسلمة فاضلة، أنه قال: "اليوم ماتت أمي".

هنا، تبدأ حقبة غامضة من حياة محمد ﷺ، ولا تتجلى أخباره قبل بلوغه العشرين من عمره.

ويروي الرواة أنه لما بلغ العشرين، ظهرت فيه العلامات... "وجعل أصحاب الكتب يقولون فيه ويتذاكرون أمره ويتوصّقون حاله ويقربون ظهوره... فقال يومًا لأبي طالب: يا عمّ، إنّي أرى في المنام رجلاً يأتيني ومعه رجلان فيقولان: هو هو، وإذا بلغ فشأنك به، والرجل لا يتكلّم. فوصف أبو طالب ما قال لبعض من كان بمكة من أهل العلم. فلمّا نظر إلى محمد ﷺ قال: هذه الروح الطيبة. هذا والله النبيّ المطهر ﷺ. فقال له أبو طالب: فاکتم على ابن أخي لا تُغرّ به قومه، فوالله إنّما قلت

---

١ - مرجع سابق، للبخاري، ٢: ١٣ - ١٤.

لعليّ ﷺ ما قلت، ولقد أنبأني أبي، عبد المطلب، بأنّه النبيّ المبعوث ﷺ، وأمرني أن أستر ذلك لئلاّ يغري به الأعادي<sup>١</sup>.

كان الحدث الأول المؤثر في استقرار حياة النبيّ ﷺ زواجه من خديجة، وهو في الخامسة والعشرين من عمره. وفيما ذكر بعض المؤرخين أنّ خديجة كانت أرملة على جانب من الثراء، تنتمي نسباً إلى عشيرة محمّد ﷺ، وكانت تكبره بخمس عشرة سنة، وكانت لها تجارة وقوافل، وكان محمّد يعمل عندها<sup>٢</sup>، يسهب اليعقوبيّ في خبر هذا الحدث، فيذكر ما رواه بعضهم عن عمّار بن ياسر أنّه قال: "أنا أعلم الناس بتزويج رسول الله ﷺ خديجة بنت خويلد: كنت صديقاً له، فإنّا لنمشي يوماً بين الصفا والمروة، إذا بخديجة بنت خويلد وأختها هالة. فلما رأيت رسول الله ﷺ جاعتي هالة أختها فقالت: يا عمّار! ما لصاحبك حاجة في خديجة؟ قلت: والله ما أدري. فرجعت فذكرت ذلك له. فقال: الحمد لله الذي جعلنا من زرع إبراهيم ﷺ وذرية إسماعيل وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً وجعلنا الحكّام على الناس وبارك لنا في بلدنا الذي نحن به، ثمّ إنّ ابن أخي محمّد ﷺ بن عبد الله لا يوزن برجل من قريش إلّا رجّح، ولا يقاس بأحد إلّا عظم عنه، وإن كان في المال قلّ فإنّ المال رزقٌ حائل وظلّ زائل، وله في خديجة رغبة ولها فيه رغبة، وصدق ما سألتموه عاجله من مالي، وله والله خطب عظيم ونبا شائع. فتزوّجها وانصرف. فلمّا أصبح عمّها عمرو بن أسد أنكر ما رأى، فقيل له: هذا خنتك محمّد ﷺ بن عبد الله بن عبد المطلب أهدى لك هذا. فقال: ومتى زوّجته؟ قيل له: بالأمس. قال: ما فعلت. قيل له: بلى، نشهد أنّك قد فعلت. فلمّا رأى عمرو رسول

---

١ - اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٤.

٢ - راجع: حتّي، صلتحو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ١٧.



الله ﷺ قال: إشهدوا أنني إن لم أكن زوجته بالأمس فقد زوجته اليوم. وإنه ما كان مما يقول الناس إنها استأجرته بشيء، ولا كان أجيراً لأحد قط...<sup>١</sup>.

## المبعث

يومذاك، كانت مكة قد أصبحت ملتقى الطرق التجارية التي كانت تربط بين اليمن، بلاد البخور والأطياب، وبلاد الحبشة من جهة، وسورية وموانئها على البحر الأبيض المتوسط والعراق من جهة ثانية. وكانت تجارة مكة قد غيرت المجتمع البدوي إلى مجتمع تجاري متحضّر رأسمالي.<sup>٢</sup> وكانت الهوة الاقتصادية الاجتماعية بين الأغنياء والمعدمين تزداد اتساعاً، فكان ولاء الناس يتغيّر، ومع هذا التغيّر راحت العصبية القبلية تتلاشى في المجتمع المتحضّر.

وكان محمد ﷺ، بعد أن تزوّج بخديجة، قد انصرف إلى التأمل الروحي، والعزلة. فكان يأوي إلى غار حراء<sup>٣</sup> خارج مكة. وبعد زمن طويل، ذات ليلة من ليالي أواخر رمضان سنة ٦١٠، بينما كان يتأمل، فجأة، سمع صوتاً يقول له: "اقرأ". فكأنه سأل: "ما أقرأ؟" ولكن الصوت أتاها ثانية يقول: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾<sup>٤</sup>.

"وبعد مدة ليست بطويلة عاوده الصوت ثانية مثل صلصلة الأجراس".

---

١ - حراء: جبل يقع شرق شمالي مكة، يُعرف كذلك بجبل النور، فيه غار كان النبي ﷺ يتحنّث فيه قبل بعثته، وبات فيه قبل هجرته إلى المدينة يصحبه أبو بكر.

٢ - اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٢٠ - ٢١.

٣ - العلق: ٣ - ٥.

أسرع إذَاك مُحَمَّد ﷺ إلى بيته وهو في حالة انفعال، وطلب إلى زوجته خديجة أن تَدْنُرهُ، وهو في حالة اللاوعي، فسمع الصوت يقول: «يَا أَيُّهَا الْمُتَدَنَِّرُ، قُمْ فَأَنذِرْ»<sup>١</sup>.

هنا لم يعد يخامره أدنى شك في أَنَّ الصوت صوت ملاك من السماء، عرف في النهاية أَنَّهُ قَالَ: "أتيت بيت رسول الله ﷺ أول ما بُعث وبلغني أمره فقلت: صف لي أمرك. فوصف لي أمره وما بعثه الله به. فقلت: هل يتبعك على هذا أحد؟ قال: نعم! امرأة وصبيّ وعبد. يريد: خديجة بنت خويلد، وعليّ بن أبي طالب عليه السلام، وزيد بن حارثة<sup>٢</sup>.

كان جوهر رسالة مُحَمَّد ﷺ في بدايتها مقتضياً يمكن إيجازه ببضع كلمات: لا إله إلا الله وحده. هو الخالق والحَيّ القيوم. ومُحَمَّد ﷺ رسوله. وهناك يوم حساب، والجنة ثواب الذين يطيعون أوامره، وجَهَنَّم عقاب الذين يعصون وصاياه. ولم يكن الله الذي تَكَلَّمَ النَّبِيُّ بلسانه إِلَهًا غريبًا عن أهل مَكَّة. والواقع أَنَّهُ كان إله الكعبة التي كانت تُعرف "ببيت الله" واسم أبيه عبد الله، يحتفظ باسم هذا الإله.

غير أَنّ تعاليم مُحَمَّد ﷺ الجديدة، تتضمّن أمورًا اقتصادية واجتماعية وسياسية من شأنها أن تغيّر الأوضاع التي كان القرشيون قد ألفوها. ولقد أدركوا خطورة ما تتضمنه هذه التعاليم بالنسبة إلى مصالحهم الخاصة. فهي قد تقوّض أسس الحجّ، وكان الحجّ بعد التجارة من موارد رزقهم الأولية. ذلك أَنّ مَكَّة كانت أصلاً مدينة بوجودها إلى جوار بئر زمزم، الذي جعلت منها التقاليد بئراً مقدّسة فاضت مياهها بأعجوبة لينجو إسماعيل وأمه هاجر من الموت عطشًا عندما ضلّا الطريق في الصحراء، وصار إسماعيل أبًا

---

١ - المنذر: ١ - ٢.

٢ - الليثوي، مرجع سابق، ٢: ٢٣ - ٢٤.

للعرب. وأعاد إبراهيم عليه السلام أبوه بناء البيت الحرام الذي هو الكعبة الآن، وسنّ للناس الحج إليه. وأصبحت البقعة التي بُني عليها البيت ملجأً مَنْ دخله كان آمناً، وكان جدّ محمد ﷺ قد أعاد حفر البئر ليوزّع ماءها على الحجاج كسباً لعيشه. وتوارث بعض أبنائه، أعمام النبي، ﷺ هذا المورد.

وكان القرشيون ينظرون نظرة إكبار إلى تعاليم النبي ﷺ، عن الكرم والعطاء، لأنّ الكرم من الفضائل العربيّة، ولكنّ النظرة الدينيّة الجديدة إلى أنّ الإنسان مجرد وكيل على ثروته وأملكه، وأنّ للفقير حقاً في هذا المال ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾<sup>١</sup>، لم تكن بالنظرة التي تقبلها الناس برضى. وإلى جانب هذا، فإنّ تعاليم النبي ﷺ تحلّ الإيمان محلّ النسب كرابطة تربط الإنسان بأخيه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾<sup>٢</sup>، وهذا ما من شأنه أن يقوِّض الأسس القديمة للعائلة، وللعصبية القبليّة، ويحلّ محلّها الوحدة والرابطة الدينيّتين. وهكذا أدركت قريش أنّه إذا حالف النصر الدينيّ رسالة النبي محمد ﷺ، فإنّه سينتصر أيضاً سياسياً، وبهذا يكون قد ألحق بسلطتها بعض الإجحاف. من هنا كانت معارضتها الشديدة له تتصاعد يوماً بعد يوم<sup>٣</sup>.

وكان محمد ﷺ قد أقام بمكة ثلاث سنوات يكتّم أمره وهو يدعو إلى توحيد الله، وعبادته، والإقرار بنبوته. فكان إذا مرّ بملاً من قريش، قالوا: "إنّ فتى ابن عبد المطلب ليكلّم من السماء..." حتّى عاب عليهم آلهتهم، وذكر هلاك آبائهم الذين ماتوا كفّاراً.

١ - المعارج: ٢٤ - ٢٥.

٢ - الحجرات: ١٠.

٣ - حتّى، صانعو التاريخ العربي، ص ٢٠.

ثم "أظهر رسول الله ﷺ أمره، وأقام بالأبطح، فقال: - إني رسول الله أدعوكم إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، ولا تخلق ولا ترزق، ولا تحيي ولا تميت .. فاستهزأت قريش، وأذته، وقالوا لأبي طالب: - إن ابن أخيك قد عاب آلهتنا وسفّه أحلامنا وضللّ أسلافنا، فليُمسِك عن ذلك وليحكم في أموالنا بما يشاء .. فقال: - إن الله لم يبعثني لجمع الدنيا والرغبة فيها، وإنما بعثني لأبلغ عنه وأدلّ عليه .. ... فأذوه أشدّ الإيذاء، فكان المؤمنون له، منهم أبو لهب، والحكم بن أبي العاص، وعقبة بن أبي معيط، وعديّ بن حمراء الثقفي، وعمرو بن الطلائع الخزاعي. وكان أبو لهب أشدهم أذى له. وقد روي أن رسول الله قام بسوق عكاظ، عليه جبة حمراء، فقال: - يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتتجحوا .. وإذا رجل يتبعه له غديرتان كأن وجهه الذهب، وهو يقول: - يا أيها الناس إن هذا ابن أخي، وهو كذاب فاحذروه .. كان هذا أبو لهب، عمّ النبي. وكان المستهزئون به، العاص بن وائل السهمي، والحارث بن قيس بن عديّ السهمي، والأسود بن المطلّب بن أسد، والوليد بن المغيرة المخزومي، والأسود بن عبد يهود الزهري، وكانوا يוכלون به صبيانهم وعبيدهم فيلقونه بما لا يحب، حتّى إنهم نحروا جزوراً<sup>١</sup> ورسول الله ﷺ قائم يصلي، فأمرُوا غلاماً لهم فحمل السلى<sup>٢</sup> حتّى وضعه بين كتفيه وهو ساجد. فأنصرف فأتى أبا طالب، فقال: - كيف موضعي فيكم؟ - قال: ما ذاك يا ابن أخي؟ فأخبره ما صنّع به. فاقبل أبو طالب مشتملاً على السيف يتبعه غلام له، فامتشق سيفه وقال: - والله لا تكلم رجل منكم إلّا ضربته .. ثم أمر غلامه فأمر ذلك السلى والفرث على وجوههم واحداً واحداً. ثم قالوا: - ندعوك إلى نصفه. هذا عمارة ابن الوليد بن المغيرة

١ - الجزور: ما يُجزر من اللوق والغنم.

٢ - السلى: جلد يكون فيها الولد في بطن أمه. والفرث<sup>٣</sup> الفرث: الزيل ما دام في الكرش.

أحسن قريش وجهًا وأكملهم هيئة، فخذهُ فصيرهُ ابنك وصير إلينا محمدًا ﷺ نقتله .. فقال: - ما انصفتُموني! أدفع اليكم ابني تقتلونه وتدفعون إليّ ابنكم أغذوه!<sup>١</sup>

"وأُسري به، وأتاه جبريل بالبراق، وهو أصغر من البغل وأكبر من الحمار، مضطرب الأذنين، خطوهُ مدّ بصره، له جناحان يحفزانِه من خلفه، عليه سرج ياقوت، فمضى به الى بيت المقدس فصلى به ثم عرج به إلى السماء، فكان بينه وبين ربّه كما قال الله: - قاب قوسين أو أدنى .. ثم هبط به فنزل في بيت أم هانئ بنت أبي طالب. فقصرَ عليها القصة، فقالت له: - بأبي أنت وأمي، لا تذكر هذا لقريش فيكذبوك .. وفي الليلة التي أُسري به افتقده أبو طالب، فخاف أن تكون قريش قد قتلتَه، فجمع سبعين رجلاً من بني عبد المطلب، معهم الشفار، وأمرهم أن يجلس كل رجل منهم إلى جانب رجل من قريش، وقال لهم: - إن رأيتُموني ومحمدًا ﷺ معي، فامسكوا حتّى آتيكم وإلاّ فليقتل كل رجل منكم جليسه ولا تنتظروني .. فوجدوه على باب أم هانئ، فأتى به بين يديه حتّى وقف على قريش. فعرّفهم ما كان منه، فأعظموا ذلك وجُلّ في صدورهم وعاهدوه أنّهم لا يؤذون رسول الله ﷺ ولا يكون منهم إليه شيء يكرهه أبداً"<sup>٢</sup>.

إلاّ أنّ هذه الوعود بقيت دون برّ بها من قِبَل أصحابها. وبينما كان محمد ﷺ مندفعًا بين قومه، يعلم ويعظ وينذر، مدفوعًا بالدعوة التي تلقّاها من ربّه، وقد ألّهت شعوره، سخرُوا منه، وأغلظوا له القول. فقالوا: "مجنون" ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾<sup>٣</sup>. ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾<sup>٤</sup>. وقال آخرون "كاهن" ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾<sup>٥</sup>.

١ - الليثوي، مرجع سابق، ٢: ٢٥.

٢ - الليثوي، مرجع سابق، ٢: ٢٦.

٤ - ص: ٤.

٣ - الذاريات: ٢٢.

٥ - الحاقة: ٤٢.

هذه الاتِّهامات تدلّ بوضوح على أنّ محمّداً ﷺ كان رجلاً تميّز بقوى روحية بالرغم من أنّ خصومه راحوا يفسّرون هذه التقوى تفسيراً مهيناً. وأوّل من استجاب لدعوته، بعد صحبه والأقربين من أهله، كانت جماعة المنبوذين والمعدومين والعيبد. وهم الذين أشارت إليهم الآية الكريمة: ﴿قَالُوا أَنْزِلْهُمْ الْآيَةَ الْكُرِيمَةَ﴾. غير أنّه بعد انقضاء خمس سنوات، عمل فيها جاهداً، جاءت النتيجة مخيبة للآمال.

## مهاجرة

### الحبشة

لمّا اتّضح لقريش أنّ تلك الأساليب من الهزء والسخرية لن تنثي النبي ﷺ عن رسالته، لجأوا إلى العنف، فراحوا يرغمون من أسلموا على الرجوع عن الإسلام وشم الرسول ﷺ. ومن لا يفعل، كان يتعرّض للضرب، وأحياناً للقتل.

ولمّا رأى النبي ﷺ ما في أصحابه من المعاناة والعذاب، قال لهم: "إرحلوا مهاجرين إلى أرض الحبشة، إلى النجاشي، فإنّه يحسن الجوار". فخرج اثنا عشر رجلاً، سرعان ما تبعهم سبعون رجلاً ما عدا الأبناء والنساء. هؤلاء هم المهاجرون الأوّلون.

صدق ظنّ النبي ﷺ بأنّ الحبشة النصرانية لن تؤذي أتباعه. ولقد كان أولئك الذين انتقلوا إلى الحبشة، المهاجرين الأوّل، الذين يؤلّفون مع الصحابة، الطبقة النبيلة الراقية في المجتمع الجديد. ولقد كان انتقالهم إلى الحبشة في العام ٦١٥ م.



وعبثًا حاولت قريش أن تقنع أبا طالب بتسليمها محمدًا ﷺ، وقد رفض أبو طالب كل إغراءاتها وتهديداتها بإياء، عندها لجأت قريش إلى مقاطعته، "فكتبوا الصحيفة القاطعة القاضية بالآي يتتاعوا أحدًا من بني هاشم ولا يناكحوهم ولا يعاملوهم حتى يدفعوا إليهم محمدًا ﷺ فيقتلوه..."<sup>١</sup>.

لم ينته هذا الحصار الجائر على النبي ﷺ، الذي دام ثلاث سنوات، إلا بعد أن توفيت خديجة، وأبو طالب، وولده: القاسم وكان في الرابعة، وعبد الله، وكان لا يزال رضيعًا. وقد ساءت أحوال النبي، إذ بالإضافة إلى فقدانه أعز من له، كان قد "أنفق ما له، وأنفق أبو طالب ماله، وأنفقت خديجة ماله، وصاروا إلى حد الضر والفاقة".

فكر النبي ﷺ في الانتقال إلى الطائف، التي كانت مصيفًا لأهل مكة، وكان فيها مزار للآل<sup>٢</sup>. إلا أن أهل الطائف لم يتلقوا محمدًا ﷺ بالترحاب والإكرام، بل تجمهر الناس ورجموه بالحجارة. فلجأ إلى حديقة كان يملكها أحد زعماء المعارضة. ومن ثم عاد إلى مكة حزينًا، وهو يتلو الصلاة التالية:

اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني أو عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحل علي سخطك. لك العتي ترضى، ولا قوة إلا بك<sup>٣</sup>.

---

١ - الليثوي، مرجع سابق، ٢: ٣١.

٢ - كانت للآل والعزى ومناة آلهة تُعبد في الجزيرة العربية.

٣ - ابن هشام، سيرة سيدنا محمد رسول الله ﷺ، طبعة فيستفاد (غيتن، ١٨٥٨ - ١٨٥٩) ص ٢٨٠.

## الهجرة إلى المدينة

بعد عودته إلى مكة، حاول الرسول ﷺ هذه المرة أن يجلب إلى دعوته زوّار مكة من حجاج وتجار. إلا أنه لم يحقق غايته في بادئ الأمر، كما أنه لم ييأس.

ولدى قدوم جماعة من يهود يثرب<sup>١</sup>، إلى مكة، وجد النبي ﷺ عندها أذناً صاغية، فإن هؤلاء اليهود كانوا قد سمعوا من أبناء مدينتهم أن زعيماً دينياً عظيماً سيظهر. وقد يكون محمد ﷺ، هذا الزعيم. وكان لأُمّ النبي ﷺ، أمانة، صلة قرابة بيثرب. وفي يوم حسن الطالع، تلقى عهداً من وفد من يثرب، تعهدوا فيه بحمايته هو وصحبه في مدينتهم.

في هذه الأثناء، كانت قريش قد أجمعت على قتل الرسول ﷺ. وقالوا: ليس له اليوم أحد ينصره وقد مات أبو طالب. وإذا علم الرسول ﷺ بنوايا قريش، طلب إلى حوالى مائتين من أتباعه بأن يبارحوا مكة متفرقين، ليتوجهوا سراً إلى يثرب، التي أصبحت في ما بعد تُعرف بالمدينة. وفي ٢٤ أيلول (سبتمبر) ٦٢٢م، وصل المدينة محمد ﷺ، وبرفقته أبو بكر، وابن عمّه علي بن أبي طالب عليه السلام. وقد أصبح هذا اليوم بدء التقويم الهجري كما اقترحه عمر رضي الله عنه، ونهاية الحقبة المكيّة في حياة الرسول ﷺ، وبداية الحقبة في المدينة.

في المدينة، برزت قدرة محمد ﷺ على حقيقتها. فإن ذلك الذي كانت عشيرته تتعته بالجنون حيناً، وتتهمه بأنه كاهن، أحياناً، قد أوجد الحكومة المثال الأول للأمبراطورية الإسلامية العتيدة، في المدينة، حيث ولّد الإسلام الذي عمّ العالم. كما أن تلك الجالية

---

١ - يثرب: الاسم السابق للمدينة المنورة.

الإسلامية الأولى التي أسسها النبي ﷺ في المدينة، سوف تكون نواة الأمة الإسلامية في ما بعد.

ففي المدينة "نشأت من الجماعة الدينية، من مهاجرين وأنصار، أمة الإسلام، وبقي الدين أساس وحدتها. ولقد كانت هذه أول محاولة في تاريخ الجزيرة العربية لتكوين أمة قائمة على رابطة الدين والنظم الإجتماعية، لا على أساس العصبية الدموية، كما كانت الحال في الماضي. وتولى محمد ﷺ زمام السلطة الزمنية، بالإضافة إلى سلطته الروحية... وأصبح المسلمون إخواناً في الدين والعقيدة، بقطع النظر عن نزعتهم القبلية"<sup>١</sup>.

فبينما كان محمد ﷺ وهو في مكة، داعياً لدين جديد فحسب... في المدينة، أصبح حاكماً يرعى شؤون المسلمين ويوجه أمورهم ويسن القوانين ويقود الجيوش ويقضي في جميع شؤون الناس<sup>٢</sup>.

كانت المشكلة الأولى التي توجب على محمد ﷺ حلها في المدينة، "إطعام الفقراء من المهاجرين وإيواءهم. فراح يوزعهم بين الأنصار، الأمر الذي كان بمثابة تطبيق عملي لمبدأ الأخوة في الإسلام. وأفلح النبي ﷺ في تطبيقه. ويبدو أن عدد الأنصار في المدينة ازداد بسرعة. وكانت الأمراض الاجتماعية الاقتصادية في المدينة، ذاتها في مكة. فإن المدينة كانت تعيش حقبة انتقال من البداوة إلى الحياة المتحضرة المتمتدة، بفارق واحد، وهو أن أهل المدينة المتحضرين كانوا يعتمدون الزراعة، بينما كان أهل مكة المتحضرين يعتمدون التجارة، ويعيشون عيش المدن. وهذا الانتقال من أسلوب

---

١ - حتى د. فيليب، "العرب، تاريخ موجز" صفحة ٤٤ - ٤٥.

٢ - مظهر سليمان، قصة الديانات، دار الرقي (١٩٨٤) ص ٤٦٦.

في العيش إلى آخر، يولّد الخصومة بين القديم والحديث. أمّا في السياسة، فكان هناك اختلاف بين المدينتين. فإنّ مكة كانت مدينة موحّدة القيادة بإشراف قريش وسلطتها، الأمر الذي كان ينقص المدينة، حيث كانت الحياة العامّة تتميّز بالحروب الثأريّة والمنازعات الداخليّة بين قبيلتين رئيسيتين: الأوس والخزرج<sup>١</sup>. ومما زاد في تعقّد الحالة السياسيّة السائدة في المدينة، وجود ثلاث قبائل تدين باليهوديّة. هذا التفكّك السياسيّ، إلى جانب وجود جماعة تنتظر مهدياً أو مخلصاً مشيحاً منتظراً، هي جماعة اليهود، قد هيّا الجوّ لأهل المدينة لأن يتقبّلوا، عن رضى، نبياً ذا سلطة تقوم على الدين<sup>٢</sup>.

في هذه الأثناء، "ومنذ وصل محمّد ﷺ إلى المدينة... بدأ العمل على إقامة شعائر دينه الجديد. فبنى مسجده الذي سوف يُدفن فيه. ولمّا اطمأنّ بالمدينة واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين، واجتمع أمر الأنصار، واستحكم أمر الإسلام، أمر الرسول ﷺ بإقامة الصلاة خمس مرّات في اليوم... كما أمر بصوم شهر رمضان... وحمى حقوق الملكية... ومنذ ذلك الوقت قامت الحدود وعُرف الحلال والحرام، وكان محمّد ﷺ حين قدم المدينة يجتمع إليه الناس للصلاة في مواقيتها بغير دعوة. فتشاور المسلمون يوماً، فقال بعضهم: أننّخذ ناقوساً مثل ناقوس النصارى، وقال آخرون: لننّخذ بوقاً مثل بوق اليهود. وبينما هم على ذلك، إذ قدم عبد الله بن زيد، وهو أنصاريّ من الخزرج، إلى رسول الله ﷺ وقال: - يا رسول الله إنّهُ طاف بي هذه الليلة طائف... مرّ بي رجل

---

١ - الأوس والخزرج: قبيلتان عربيّتان من الأزد من كهلان، بماتّكتان، لرتحلتا إلى الجنوب إثر تصدّع سدّ ملرب فاستوطنتا المدينة وما دناهما، اعتنق أبناؤهما الإسلام، وصفهم القرآن الكريم بالأنصار وهم الذين "لوا ونصروا" ثمّ عُرفوا بهذه التسمية وبها انتخروا وقلخروا.

٢ - حتّى، صاغوا للتاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٢٣.

عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوساً في يده فقلت له: يا عبد الله، أتبيع هذا الناقوس؟ فقال: وما تصنع به؟ قلت: ندعو به إلى الصلاة. قال: أفلا أدلك على خير من ذلك؟ قلت: وما هو؟ أجاب: أن تقول: - الله أكبر الله أكبر. أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح. الله أكبر الله أكبر. لا إله إلا الله - قال محمد ﷺ: إنها لرؤيا حقّ إن شاء الله... فقم مع بلال<sup>١</sup> فآلقها عليه. فليؤذن بها فإنه أندى صوتاً منك. ومنذ اللحظة، صار هذا النداء آذاناً للدعوة للصلاة. واستقلت شعيرة من شعائر الإسلام عن مجارة اليهود في بوقهم والنصارى في ناقوسهم<sup>٢</sup>.

حاول الرسول ﷺ طوال المرحلة الأولى من دعوته أن يقيم بينه وبين اليهود نوعاً من التعايش السلمي، يجمع بين أقدم ديانتين موحدتين<sup>٣</sup>. فإنّ بعض العقائد الجوهرية كانت مشتركة. ونبوة محمد ﷺ لا تختلف عن نبوة إبراهيم عليه السلام ولا عن دعوة عيسى عليه السلام. وكانت القبلة في الصلاة بيت المقدس. وأحلّ للمسلمين أن يواكلوا أهل الكتاب وأن يتزوجوا من نساءهم ولكن ما أن لبث النبي ﷺ مدة في المدينة حتّى شعر بأنهم ليسوا على ما ظنّه بهم. فإنّ اليهود كانوا يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار، وأنهم الوحيدون من ذرية إبراهيم عليه السلام. فلم يُبدوا استعداداً لأن يدمجوا أحداً في دينهم،

١ - بلال بن رباح الحبشي (ت ٢٠ هـ / ٦٤١ م): صحابي، أول من أنن، كان عبداً افتكه وحرّره أبو بكر، قاتل مع النبي ﷺ في جميع الغزوات، توفي بدمشق.

٢ - مظهر سليمان، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص ٤٦٦ - ٤٦٧؛ المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، طبعة: BARBIER DE MEYnard et Pavet de Courteille، منشورات الجامعة اللبنانية، توزيع المكتبة الشرقية (بيروت، ١٩٧٠)، ٣: ٢٨.

٣ - «وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا نقول منا إنك أنت السميع العليم. ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وكتب علينا أنك أنت التواب الرحيم. ربنا واتبعنا فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكوهم إنك أنت العزيز الحكيم. ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفة نفسة ولقد استبقيناها في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين. إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين» البقرة: ١٢٧ - ١٣١.

ولا أبدوا استعدادًا لأن يُدْمَجوا في دين غيرهم. ونشبت حرب باردة بينه وبين اليهود. وهكذا، أمر النبي ﷺ، عند بدء السنة الثانية للهجرة، بأن تحول القبلة عن بيت المقدس إلى مكة<sup>١</sup>.

وقبل انصرام السنة الثانية للهجرة النبي ﷺ إلى المدينة، كان قد عقد قرانه على عائشة بنت أبي بكر، وهي صغيرة، قبل وفاة ابنته رقية، وكان زواج عليّ رضي الله عنه بابنته الثانية: فاطمة. ولن تمر السنة الثالثة على الهجرة، إلا ويكون النبي ﷺ قد تزوج زينب بنت خزيمة التي توفيت بعد شهرين من ذلك الحدث، ويكون أيضًا قد تزوج عصفه بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ويكون عثمان بن عفان رضي الله عنه قد تزوج أم كلثوم ابنة النبي ﷺ. ويكون قد وُلد لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ابنه البكر من بنت النبي ﷺ: الحسن رضي الله عنه<sup>٢</sup>.

## مَعْرَكَةُ

### بَادِر

لم تكد تنقضي سنتان على الهجرة، حتّى كانت المدينة قد أضحت في وضع دقيق. فالحالة الاقتصادية قد ساءت إلى حدّ الخطر، وموارد المدينة كانت محدودة. وما عادت تدابير الرسول ﷺ بكافية لتأمين الاستقرار. وكانت أنظار أهل المدينة تتطّلع إلى القوافل المكيّة الراجعة من سورية ناقلة البضائع، والدنانير الكثيرة في جيوب أصحابها.

---

١ - «قَدْ نَرَى تَغَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُلَاقِيَنَّكَ قَبِيلَةً تَرْضَاهَا فَوَلَّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ. وَلَكِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبْغُوا قِتْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبَلَتَهُمْ وَمَا بِنَفْسِهِمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةً بَعْضُ وَلَكِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ» البقرة: ١٤٤ - ١٤٥؛ راجع: حنّي، صانعو التاريخ العربي، ص ٣٨؛ البيهقي، ٢: ٤٤٢؛ المسعودي، ٣: ٢٨.

٢ - المسعودي، مرجع سابق، ٣: ٢٨.

إضافة إلى عامل الإغراء الماديّ الذي كانت تشيعه تلك القوافل، ذلك الإغراء الذي كان من الصعب على أهل المدينة، وهم على ما كانوا عليه من عوز، أن يستطيعوا مقاومته، قد كان إنزال الضربة في القوافل المكيّة بمثابة إنزال الضربة في شريان مكة الاقتصاديّ الحيويّ.

وفي يوم من أيام رمضان الحرام<sup>١</sup>، الموافق أواسط آذار (مارس) ٦٢٤م. كان النبي ﷺ قد جند ٣١٤ مقاتلاً بحسب تقدير ابن هشام<sup>٢</sup>، رابطوا، وعلى رأسهم النبي ﷺ، على درب القوافل، في مكان فيه ماء للسقاية يقع إلى الجنوب الغربيّ من المدينة، ينتظرون مقدم القافلة. هذا المكان كان يسمّى بذر.

كانت القافلة تتألف من حوالى ألف جمل يقودها أبو سفيان<sup>٣</sup>، زعيم بني أمية، وهي عشيرة من قريش. وبالرغم من المدد الذي وصل سريعاً من مكة بناء على طلب أبي سفيان، وقوامه تسعمئة رجل "ترافقهم مغنيات لبعث الحماسة في قلوب المقاتلين" فلقد حقّق المسلمون بقيادة نبيهم ﷺ أول نصر عسكريّ كان له وقعه الكبير وتأثيره المعنويّ الذائع.

فبعد مبارزة قصيرة بين فارسين، التحم الجيشان. وقد ظهرت براعة محمّد ﷺ القتاليّة في أول معركة حربيّة له، إذ كان أصدر الأوامر إلى رجاله كي يحاربوا متراصّين، مستعملين السهام أولاً، ومحتفظين بالسيوف إلى وقت لاحق في المعركة. وكانت قريش واثقة من النصر بحيث أنّ رجالها دخلوا المعركة بدون خطة وبدون

---

١ - المسعودي، مرجع سابق، ٢: ٢٨، أرّخها في ١٧ رمضان؛ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٤٥، أرّخها في ١٣ رمضان.

٢ - اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٤٥، قدرهم بثلاثماية.

٣ - أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية (ت ٨٣١/ ٦٥٢م): ثريّ مكيّ من قريش، من أشدّ المناوئين للإسلام، قاد المشركين ضدّ المسلمين في لحد والخندق، لُسم يوم فتح مكة وجاهد مع المسلمين، والد معاوية مؤسس الدولة الأمويّة.

تدريب ونظام. وبينما كانت قريش تحارب لتخليص أموالها، كان المسلمون، يحاربون من أجل البقاء... بكل ما في هذا التعبير من معنى عميق، وفي سبيل الله، بكل ما يعنيه ذلك من إيمان... فكان النصر الذي أحرزه المسلمون، على قتلهم، حاسماً. وجاء فاجعة على أهل مكة، الذين هربوا مخافين وراءهم حوالى سبعين قتيلاً وسبعين أسيراً. واستشهد من المسلمين ثمانون رجلاً. وجاء الوحي: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ أَمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾<sup>١</sup>. وعلى هذا الذي أصبح سنة في ما بعد، وزعت غنائم بدر<sup>٢</sup>.

يفرض الإنصاف هنا إلقاء بعض الأضواء على خلفيات معركة بدر، التي قد تبدو للوهلة الأولى وكأنها نوع من قطع الطرق. إلا أن ما يجب إدراكه أن "هذه الحرب قد وجبت، حين كان على محمد ﷺ أن يؤمن حياة المسلمين في المدينة، ويرد إلى المهاجرين حقوقهم التي سلبها منهم أهل مكة وطردوهم عنها. وهو كان يعرف أنه بهذا العمل سوف يثير أهل مكة لكي يخرجوا إليه في قتال صريح، ولكنه كان يعلم أيضاً ألا سبيل له إلى استرداد حقوق المسلمين إلا من هذا الطريق"<sup>٣</sup>.

## معركة

## أحد

كان لمعركة بدر، ونتائجها، تأثير معنوي إيجابي كبير على المسلمين، وقد أنزلت الإحباط والقلق في نفوس المشركين. فبينما فسّر المسلمون هذا النصر على أنه نصر

١ - الانفال: ٤١.

٢ - حتى، صلتحو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٢٦.

٣ - مظهر، قصة الديانات، مرجع سابق، ص ٤٦٨.



من السماء، جاء تأييدًا لدين الله، وعقابًا للمشركين، واشتركت الملائكة بألف منها في المعركة مُعِينَةً للمسلمين<sup>١</sup>، فقدت قريش نفوذها، وفقدت ثقتها بعزّها وسلطانها، وراح أبو سفيان يهَيِّئُ لضرب المسلمين، إنتقامًا وإِنقَاذًا للمصالح. ذلك بعد أن قال أهل مَكَّة بأنّ تجارتهم فسدت، ولم يعودوا آمنين في إرسال سلعهم إلى الأسواق الخارجيّة... وكلّ هذا بسبب محمّد ﷺ والإسلام.

بعد حوالي سنة من وقعة بدر، "اجتمعت قريش، واستعدّت لطلب ثأرها... واستعانت بالمال الذي قدّمه أبو سفيان، وقد قالوا: لا تنفقوا منه شيئًا إلّا في حرب محمّد" ﷺ<sup>٢</sup>. وعندما وصلت أخبار هذه الاستعدادات الى الرسول ﷺ "كان رأيّه ألا يخرج من المدينة لرؤيا رآها في منامه... تأولها بأنّ نفرًا من أصحابه يُقتلون، وأنّ رجلًا من أهل بيته يُصاب. فأشارت إليه الأنصار بالخروج، فلمّا لبس لباس الحرب ردت إليه الأنصار الأمر، وقالوا: لا نخرج... فقال: الآن وقد لبست لأمتي<sup>٣</sup>، والنبي ﷺ إذا لبس لأمته لا ينزعها حتّى يُقاتل، ويفتح الله عليه. فخرج ومعه المسلمون وعددهم ألف حتّى صاروا إلى أحد"<sup>٤</sup>. وخرجت قريش بثلاثة آلاف رجل... إلّا أنّ أحداثًا جرت، غيّرت ما كان يمكن أن تكون عليه نهاية المعركة، إذ حدث انقسام في صفوف المسلمين بعودة فرقة منهم إلى المدينة، بينما أهمل الرماة، وسط المعركة، وصيّة الرسول ﷺ لهم بالثبات في أماكنهم دون طمع بالغنيمة حتّى يُصدر إليهم أمره. وكان لا بدّ حين اندفعوا يتعجلّون الغنيمة تاركين أماكنهم، من أن ينتهز المشركون بقيادة

---

١ - راجع: الأنفال: ٩ - ١٢، ١٧.

٢ - البقرى، مرجع سابق، ٢: ٤٧.

٣ - اللأمة: بمعنى الذرع، جمعها اللأم.

٤ - البقرى، مرجع سابق، ٢: ٤٧؛ أخذ: جبل يقع شمال المدينة.

خالد بن الوليد<sup>١</sup> فرصة خلّو الجبل من الرماة، فيأتوا المسلمين من خلفهم ويعملوا في ظهورهم الرماح. ودبّ الذعر في المسلمين خاصة عندما صاح صائح أن محمداً قُتل. وكان الذي حدث لمحمد ﷺ هو أن الاعداء وصلوا إليه بالفعل، ورماه أحدهم بحجر، فأصيب في وجهه وشُقَّت شفته، ثم ضربه آخر فشجّ جبهته، وتبعه ثالث بضربة في الوجه فدخلت حلقتان من خوذة الرأس في وجنتيه، فوقع في حفرة من الحفر التي كان المشركون قد حفروها لتكون أقفاخاً لاصطياد المسلمين. وانتشر في الناس أن محمداً ﷺ قد قتل، وانطلق أهل مكة عائدين وفي قلوبهم فرح كبير. وانتهت المعركة هذه المرة بالفعل بانتصار قريش وهزيمة المسلمين<sup>٢</sup>.

في هذه المعركة قُتل حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله ﷺ، رماه وحشيّ عبد، لجبير بن مطعم، بحربة، فسقط، ومثلت به هند بنت عتبة بن ربيعة، وشُقَّت عن كبده فأخذت منها قطعة فلاكتها، وجذعت أنفه... وانهزم المسلمون ولم يبقَ مع الرسول سوى عليّ بن أبي طالب والزبير<sup>٣</sup> وطلحة<sup>٤</sup>. وعاتب الله المسلمين في

١ - خالد بن الوليد (ت ٢١١هـ / ٦٤٢م): صحابيٌّ مخزوميّ، قلّد وفارس شجاع تقف بفنون الحرب، سوف يتبع الدعوة الإسلامية في السنة السادسة للهجرة / ٦٢٩م، من القادة في فتح مكة مع النبيّ، سيلقبه النبيّ ﷺ "سيّفاً من سيوف الله"، سوف يقود بحروب الردّة ويظفر، وسيقود الجيوش الإسلامية في فتوح فارس والشام، وسيستصر على الفرس ويحتلّ الحيرة ٦٣٣، ويهزم الروم بأجنادين ٦٣٤ واليرموك ٦٣٦، وقلّته في المدينة.

٢ - مظهر، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص ٤٧١ - ٤٧٠.

٣ - الزبير بن العوّلم (ت ٣٦هـ / ٦٥٦م): قرشيّ لسيديّ، ابن عمّة النبيّ ﷺ، اعتنق الإسلام بأولّ صباه، صحابيٌّ من العشرة المبثّرة، حواريّ النبيّ ﷺ، هاجر إلى الحبشة ثم المدينة، قتل في جميع الغزوات مع النبيّ ﷺ، من أهل الشورى بانتخاب الخليفة، انسحب من قتال عليّ بن أبي طالب في الجمل، اغتاله ابن جرموز وهو يصليّ.

٤ - طلحة بن عبيد الله (ت ٣٦هـ / ٦٥٦م): صحابيٌّ قرشيّ تيميّ، من العشرة المبثّرة، من أغنياء قريش، كان يسمّى طلحة الغيّاض وطلحة الجود لسفخته، قُتل بوقعة الجمل وهو بجانب عائشة.

آيات من كتابه... وقُتل منهم ثمانية وستون رجلاً، ومن المشركين اثنان وعشرون<sup>١</sup>. ولكن، بالرغم من أن قريشاً قد ثارت لنفسها من معركة بدر، فإنّ موقعة أحد، لم تستطع أن تحجب هالة النور التي كانت تجلّل هامة بدر. ولن يلبث الإسلام حتّى يستعيد بعدها قوّة ونشاطاً، ويضمن لنفسه البقاء والانتشار.

إلى هنا، كان الإسلام ديناً يدخل ضمن الدولة، ولكن بعد ذلك الحين، أصبح أكثر من دين الدولة، إذ أصبحت الدولة ذاتها تُعرف به. ومنذ ذلك الحين، أصبح الاسلام، كما عرفه ويعرفه العالم: ديناً ودولة وقوّة جهاديّة<sup>٢</sup>.

## معركة

### الخنديق

... بعد معركة أحد، كان من الطبيعيّ ألاّ تسكت قريش، وألاّ يستكين المسلمون. فقريش، لن تدع تلك الفرصة بعد أن أطمأنت إلى أنها قد هزمت محمّداً ﷺ وأتباعه، بل ستعدّ العدة لغزوة أخرى بهدف القضاء على ما بقي له من قوّة. والمسلمون، وقد واجهوا ما واجهوه من استخفاف من قبل بعض القبائل المحيطة بهم، خاصّة اليهودية منها، حتّى استهانوا بقوة أتباع محمّد ﷺ... كان لا بدّ لهم من استعادة سطوتهم.

تشجّعت قريش بعد معركة أحد، فأقدمت على مهاجمة المدينة، يساندها حلفاء من اليهود والبدو المرتزقة. كان ذلك سنة ٦٢٧، وقد بلغ عدد المهاجمين هذه المرّة،

---

١ - اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٤٨.

٢ - حتّى، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٢٧.

عشرة آلاف مقاتل، ولم يكن قد مضى على هجرة محمد ﷺ إلى المدينة سوى خمس سنوات.

واجه محمد ﷺ هذه الهجمة بقوة. وبناء على مشورة من سلمان الفارسي<sup>١</sup>، أمر النبي ﷺ بحفر خندق حول المدينة، جاعلاً لكل قبيلة حداً يحفرون إليه، وشاركهم هو بالحفر. وبعد الانتهاء، جعل للمدينة معابر عُرفت بالأبواب، ووضع عليها حرساً، قوامه رجل من كل قبيلة، بقيادة الزبير بن العوام. وقد بلغ عدد المستترفين مع محمد ﷺ لهذه المعركة، سبعمائة رجل بحسب اليعقوبي<sup>٢</sup>. بينما ذكر بعض المراجع أن عددهم بلغ ثلاثة آلاف<sup>٣</sup>.

فوجئ المهاجمون بالخندق الذي لم يكن للعرب سابقة به في فنونهم الحربية. وإذ تعذر عليهم دخول المدينة، لجأوا إلى حصارها. وفي اليوم الخامس من الحصار، حصلت مبارزة بين الفريقين، كما جرت العادة عند بداية كل معركة، اشترك فيها ابن عم النبي ﷺ، علي بن أبي طالب عليه السلام، عن المسلمين، وعمرو بن عبد ود عن المشركين، فقتل عمرو، وآخر من رفاقه، هو نوفل بن عبد الله بن المغيرة، الذي قتله علي عليه السلام وهو يحاول الفرار مع بعض من جماعته.

بعد أيام من حصار المشركين وحلفائهم، وقد عُرفوا بالأحزاب، للمدينة، ذكر بعضهم أنها بلغت عشرين يوماً، اضطرّ المسلمون آخر الأمر إلى أن يُعملوا الوقيعة بين صفوف الأحزاب، فاختلفت، وعزم بعضها على الرحيل. ثم لعبت الطبيعة دوراً

---

١ - سلمان الفارسي (ت ٣٥٥هـ / ٦٥٥م): من خواص الصحابة، كان رقيقاً، أسلم بعد الهجرة، قال الرسول ﷺ عنه "سلمان منا آل البيت"، أشار على النبي ﷺ بحفر الخندق في غزوة الأحزاب، سيوليه عمر عملاً على المدائن، كان يأكل من كذ يمينه ويتصدق بالقلنس، روى الحديث عنه ابن الجلس وأبو هريرة.

٢ - اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٥٠.

٣ - حنّي، صنفو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٢٧.

آخر بريح عاتية جعلت تنزع خيام المهاجمين... "فانصرفوا هاربين لا يلوون على شيء، حتى ركب أبو سفيان ناقته وهي معقولة. فلما بلغ الرسول ﷺ ذلك قال: عوجل الشيخ. وكانت الحرب على ما روي ثلاثة أيام بالرمي بغير مجالدة ولا مبارزة، باستثناء مبارزة علي عليه السلام السابقة الذكر، وقد اتصلت في اليوم الثالث حتى فاتت صلاة الظهر وصلاة العصر وصلاة المغرب وصلاة العشاء الآخرة، فقال محمد ﷺ: شغلونا الصلاة، ملأ الله بطونهم وقبورهم ناراً. ثم أمر بلالاً فأقام الصلاة فصلّى الظهر ثم العصر ثم المغرب ثم العشاء، وذلك قبل أن تنزل الآية: "فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً". وإثر هذه المعركة، نزلت سورة الأحزاب التي قصّ فيها ما قصّ<sup>١</sup>.

أسفرت معركة الخندق عن مقتل ستّة مسلمين وثمانية من المشركين وأعوانهم بحسب اليعقوبي، بينما جعل بعضهم عدد القتلى الذين خلفهم المهاجرون وراءهم عشرين. إلا أنّ المؤرخين أجمعوا على أنّ المكّيّين قرّروا ألاّ يتحدثوا المسلمين بعد ذلك.

## وقعات

### اليهود

قبل ذلك التاريخ، كانت الحرب الباردة بين اليهود والمسلمين قد شهدت بعض السخونة، منها ما عُرف بوقعة النضير. والنضير هي فخذ من جذام، كانوا تهوّدوا ونزلوا بجبل يُقال له النضير، فسُمّوا به.

١ - اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٥٠.

خبر هذه المعركة التي وقعت بعد وقعة أحد بأربعة أشهر، أن بني النضير تأمروا على قتل النبي ﷺ، وقد كلفوا بذلك كعب بن الأشرف<sup>١</sup>. فوجه النبي ﷺ من يقتل كعباً هذا، وفي الوقت نفسه، بعث إلى النضير: أن اخرجوا من دياركم ومعكم أموالكم. وإذا تمردوا، سار إليهم الرسول ﷺ، بعد العصر، فقاتلهم، وقتل منهم جماعة. فلما رأوا أنه لا قوة لهم على محاربة المسلمين طلبوا الصلح. وكعادته، أبدى الرسول ﷺ نبلاً ملحوظاً، فوافق، على أن يخرجوا من بلادهم ومعهم ما يوسع إيلهم أن تحمل من متاعهم، دون أن يأخذوا معهم ذهباً أو سلاحاً. فتحملوا إلى الشام. وفرق الرسول ﷺ الغنائم بين المهاجرين. وفي هذه الوقعة، شرب المسلمون الفضيخ<sup>٢</sup> فسكروا، فنزل تحريم الخمر<sup>٣</sup>. وعندما كانت وقعة الخندق بعد تلك الحادثة، كان اليهود من أبرز المتحالفين مع المشركين من بني قريش، انتقاماً. فقاتل يومها مع هؤلاء، إضافة إلى بني النضير، يهود خيبر<sup>٤</sup> ومن ألّبوه معهم.

أمام هذا الواقع، كان لا بدّ للرسول ﷺ من أن يحول اهتمامه إلى اليهود، خاصة وأنهم قد نقضوا العهود، وبدل من أن ينصروه ويحموه كما تمّ التعاهد، ها هم يقاتلونه ويتآمرون عليه. من ذلك ما حصل مع بني قريظة، وهي فخذ من جذام إخوة النضير. قيل إنّ تهودهم كان في أيام السموأل<sup>٥</sup>.

١ - كعب بن الأشرف (ت ٨٣/٦٢٥م): شاعر جاهلي من طيء وأمه من يهود بني النضير، كان يحرّض قريشاً على المسلمين ثم عاد من مكة للمدينة لشبب بالمسلمات فتراعد نفر من الأنصار على قتله، قتله محمد بن مسلمة.

٢ - الفضيخ: شراب يتخذ من التمر.

٣ - البيهقي، مرجع سابق، ٢: ٤٩.

٤ - خيبر: واحة في الحجاز، غزاها النبي ﷺ ٦٢٨ وفرض الأترة على سكّانها اليهود، ثم أخرجهم منها عمر بن الخطاب ؓ.

٥ - السموأل (ابن عدياء): شاعر جاهلي يهودي (صموئيل) صاحب الحصن المعروف بالأبلق، يضرب به المثل في الوفاء لأنّه فضل قتل ابنه على التفرّط بلأمة لودعها عنده لمرؤ القيس لما سار إلى الشام يريد القيصر. توفّي حوالي ٥٦٠ م.

وبينما يرى بعضهم أن هؤلاء قد نزلوا بجبل يُقال له قريظة، فنسبوا إليه، يعتقد آخرون بأن نسبهم يعود إلى اسم جدّهم: قريظة.

عشيّة وقعة الخندق واستعداد هؤلاء لمؤازرة المشركين، وجّه محمد ﷺ إليهم من قبله رسولا يذكرهم بالعهد، فأسأوا الإجابة. وهكذا، إثر الخندق، وهزيمة قريش، دعا محمد ﷺ عليّاً رضي الله عنه وطلب إليه أن يهاجم بالمهاجرين بني قريظة، وتوجّه إلى المهاجرين بقوله: "عزمت عليكم ألا تصلّوا العصر إلّا في بني قريظة".

بنتيجة ذلك، طُرِدَت هذه القبيلة من المدينة، مخلفة وراءها مزارع النخيل التي وُزّعت على الفقراء المهاجرين والأنصار<sup>١</sup>.

وقبل أن يسير هؤلاء لاجئين إلى خيبر "انصرف الرسول ﷺ واصطفى منهم ست عشرة جارية، فقسمها على فقراء هاشم، وأخذ لنفسه منهنّ واحدة يقال لها ريحانة"<sup>٢</sup>. كان ذلك في العام ٦٢٥، أي في السنة الرابعة لهجرة الرسول ﷺ إلى المدينة. وفي بداية السنة السابعة (٦٢٨) جاء دور خيبر.

خيبر، واحة يهوديّة خصبة تقع على مسافة مئة ميل شماليّ المدينة. كانت منيعة الحصون يصعب على البدو مهاجمتها، ولذا أصبحت وكراً للدسائس التي كانت تُحاك ضد الإسلام. وكانت قد أرسلت كتّيبة لتساعد المكيّين في حصارهم للمدينة.

كان لخيبر ستّة حصون، يرباط فيها عشرون ألف مقاتل. تمكّن المسلمون بقيادة محمد ﷺ من فتحها حصناً حصناً، وبقي حصن "القموص"، الذي كان أشدّ تلك الحصون وأمنعها، وكان على هذا الحصن مرحب بن الحارث اليهودي. فقال الرسول ﷺ:

---

١ - حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٢٩.

٢ - الليقوي، مرجع سابق، ٢: ٥٢.

لأدفعن الراية غداً إن شاء الله إلى رجل كرّار غير فرّار، يحبّ الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله، لا ينصرف حتّى يفتح الله على يده؛ ودفع الراية إلى عليّ عليه السلام، الذي سرعان أن قتل مرحبا اليهودي، واقتلع باب الحصن، وكان حجراً طوله أربعة أذرع في عرض ذراعين في سمك ذراع، فرمى عليّ بن أبي طالب عليه السلام بالحجر خلفه ودخل الحصن ودخله المسلمون<sup>١</sup>.

بعد قتال دام أسبوعين، استسلمت خيبر في حزيران (يونيو) ٦٢٨، وقبلت أن تدفع نصف قيمة إنتاج مزارعها وحقولها خراجاً لمحمّد ﷺ، وكان هذا الخراج ممّا خفف عليه بعض الضائقة. وأصبحت خيبر بلداً ضعيفاً لا يصدر عنه ضرر أو أذية<sup>٢</sup>.

وهنا يظهر مؤشر آخر، عن نبل الرسول العربي ﷺ وروحه السمحة. فهو، على الرغم من كل ما عاناه على يد المكّيّين، كان قد بلغه أنّ في مكّة ضرراً وحاجة وجدياً وقحطاً. فبعد فتح خيبر، قسم بين بني هاشم من صحبه، أوساق التمر والقمح والشعير، ثم قسم بين الناس كافّة، وأرسل إلى مكّة أحمالاً من الغلال، استلمها عدوّه اللدود السابق، أبو سفيان، وفرّقها على فقراء قريش، وقال: جزى الله ابن أخي خيراً فإنّه وصولٌ لرحمه<sup>٣</sup>.

---

١ - ليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٥٦.

٢ - حتّي، صلتحو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٢٩.

٣ - ليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٥٦.



## الحديبة،

## وفتح مكة

قبل الانتصار العسكري الذي حققه الرسول ﷺ في خيبر، كان قد حقق انتصاراً سلمياً رائعاً في مكة. فإنه بعد مفاوضات جرت بينه وبين أشرف قريش، انتهى الأمر إلى توقيع صلح الحديبة<sup>١</sup>.

خبر ذلك أن الرسول محمدًا ﷺ، قد خرج في أواخر السنة السادسة لهجرته (٦٢٧) بمن معه من المسلمين، معتمراً، لا يريد حرباً. وساق معه الهدى<sup>٢</sup> ليبرهن عن أن قصده زيارة البيت وتعظيم الحرمات. غير أن قريشاً علمت بنية الرسول ﷺ، فأمسكوه بمكة. وإذ شاع أنهم قتلوه، أعلن الرسول ﷺ صحبه بالبيعة، وبايعهم على الموت، وسُميت "بيعة الرضوان" وقد حصلت تحت الشجرة. إلا أن عثمان ؓ قد عاد سالمًا، وأوفدت قريش مفاوضًا عنها، وتم عقد معاهدة الصلح، أو الهدنة، بين الرسول ﷺ وقريش، في موضع الحديبة. وقد جاء فيها: "إنه إذا كان عام قابل، خرجنا عنك، فدخلتها بأصحابك". وقد نصّ صلح الحديبة على أن يكون أجل الهدنة عشر سنوات.

كان محمد ﷺ يعرف جيدًا أن الناس منذ قرون طويلة يعتبرون المسجد الحرام والحجر الأسود وبئر إسماعيل في مكة، أماكن مقدسة. غير أن الأمر الذي حدّد موعد غزو مكة، كان نقض قريش لصلح الحديبة، بعد وقت قصير من إبرامه، عندما أغار المكيون على قبيلة خزاعة الموالية للمسلمين. فاستجارت القبيلة بمحمد ﷺ. فكان لا بدّ من أن يسير إلى مكة لفتحها.

---

١ - الحديبة: بلدة صغيرة على بعد تسعة أميال إلى الشمال من مكة.

٢ - الهدى: الواحدة "هذية": ما أهدى إلى الحرم من النعم - القرابين.

كان ذلك في السنة الثامنة للهجرة، حين جمع محمد ﷺ جيشًا قوامه عشرة آلاف رجل مسلح من أتباعه، وزحف بهم على مكة<sup>١</sup>.

يعتبر كبار المحققين المحدثين في التاريخ العربي، أن الجيش الذي زحف به الرسول ﷺ إلى مكة، لم يتعدّ عدده الألف مقاتل، وأنّ الزحف قد حصل في كانون الثاني (يناير) ٦٣٠، وقد دخل الرسول مكة، مسقط رأسه، دخول الظافر المنتصر، ولم تبدّ قريش أيّ مقاومة. ودخل عدوّه الأول، أبو سفيان، في الإسلام، بعد أن قاومه طويلاً بضراوة شديدة، وقد أبدى الرسول العربيّ من ضبط النفس والشهامة ما يتناسب مع مقامه كرجل دولة، إذ لم يسمح بقتل سوى عشرة أشخاص من قريش، كانوا قد تطاولوا على الإسلام ورسوله ﷺ إلى حدّ قبيح. ولم يترك لنا التاريخ في سرد الأخبار عن دخول الظافرين المدن المغلوبة على أمرها ما يشبه دخول محمد ﷺ مكة من حيث التسامح والنبل<sup>٢</sup>.

وكان أهل مكة، عندما عرفوا بنبا اقترب الجيش، هربوا إلى التلال رعبًا وفزعًا، ولم يعد بمكة واحد من أهلها. وأخذ الناس وهم فوق التلال يرقبون في خوف تقدّم الجيش العظيم القادم من المدينة. ودخل المسلمون مكة، المدينة المهجورة، وعلى رأسهم رسولهم ﷺ وقائدهم على ظهر جملة "القصى". وزحفوا في الشوارع الخالية، رأسًا نحو المسجد الحرام. وأوقف محمد ﷺ على الصنم وأنزلوه من مكانه وحطّموه. عندئذ مضى محمد ﷺ إلى الصنم الثاني، وأشار إليه، وردّد قول: "قل جاء الحقّ وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقًا...". فحطّمه المسلمون هو الآخر. وأخذ محمد ﷺ ينتقل من

---

١ - مظهر، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص ٤٧٧.

٢ - حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٣١.

صنم إلى آخر حتى قضى على الأصنام الثلاثمائة والستين. ثم أمر رجاله بعدم تحطيم أي شيء آخر في مكة، أو سلب أسواقها، أو الإتيان بأي خطيئة. وعندما عاد الهاربون من الجبال ورأوا أن محمدًا ﷺ قد جاء مسالمًا ليتعبد في المسجد الحرام، ولم يكن يعتزم قتلًا أو نهبًا... دخلوا دين الإسلام واعترفوا بمحمد ﷺ رسولاً وزعيماً وقائداً<sup>١</sup>.

وإن اختلفت روايات المصادر الأساسية حول تفاصيل فتح مكة، إلا أنها تجمع في النهاية على أن ذلك الفتح، لم يكن دمويًا، وأن الرعب الذي سيطر على المكّيين عند وصول المسلمين إلى مكة، سرعان ما زال، عندما تأكّدوا من سلامة نوايا محمد ﷺ.

وبعد أن حطّم الرسول ﷺ الأصنام، أصبحت الكعبة طاهرة من الرجز، وجعل منها محمد ﷺ، حرماً إسلامياً إذ قال: "... ألا وإنّ مكة محرّمة بحرمة الله لم تحلّ لأحد من قبلي ولا تحلّ لأحد من بعدي وإنّما حلّت لي ساعة ثم أغلقت، فهي محرّمة إلى يوم القيامة لا يُختلى خلالها ولا يُعصد شجرها ولا ينفّر صيدها ولا تحلّ لقطتها إلا لمنشد، ألا أن في القتل شبه العمد الدية والولد للفراش وللعاهر الحجر"<sup>٢</sup>.

وأمر بلالاً أن يصعد على الكعبة، فأذن. فعظم ذلك على قریش، وقال بعضهم: إنّ ابن رباح ينهق على الكعبة... وعندما علم الرسول ﷺ بذلك، أرسل إليهم بعض رجاله، فقالوا: قد قلنا، فنستغفر الله، فقال محمد ﷺ: ما أدري ما أقول لكم ولكن يُحضر الصلاة فمن صلّى فسبيل ذلك وإلاّ قدمته فضربت عنقه.

لا شكّ في أنّ ذلك اليوم الذي تمّ فيه فتح مكة، كان من أكبر العوامل التي ساعدت على نجاح الدعوة الإسلامية. فقد تأكّدت القبائل العربية التي رفضت الدعوة من قبل

١ - مظهر، قصّة للديقات، مرجع سابق، ص ٤٧٧ - ٤٧٨.

٢ - اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٦٠.

"من أن المسلمين تلاحظهم عناية إلهية لا قبل لغيرهم بها... فسارعوا إلى الإسلام ودخلوا فيه أفواجا"<sup>١</sup>. وجاء اعتراف الرسول ﷺ بالكعبة وبالحجر الأسود<sup>٢</sup> وبيئز زمزم<sup>٣</sup>، وهي من بقايا الجاهلية العربية، ليجعل الإسلام يتعد عن الديانتين التوحيديتين: اليهودية والمسيحية<sup>٤</sup>.

## غزوات

### الرسول

بعد فتح مكة، لم يهجر محمد ﷺ المدينة، بل هو عاد إليها. وإذا كانت مكة قد غدت، منذ ذلك الحين، عاصمة الإسلام الدينية، فإن المدينة بقيت، عاصمته السياسية<sup>٥</sup>. ومن هناك، استأنف الرسول ﷺ رسالته على كافة الصعد: النبوية والسياسية والعسكرية والاجتماعية.

وكان الرسول ﷺ، قبيل دخوله مكة، بدأ يرسل كتبه إلى الملوك والأمراء يدعوهم فيها إلى الإسلام. فكتب إلى هرقل ملك الروم:

١ - مظهر، قصة الديانات، مرجع سابق، ص ٥١٠.

٢ - الحجر الأسود: وضعه إبراهيم وإسماعيل في الركن الشرقي من الكعبة عندما رفع قواعدها، أعاد محمد ﷺ وضعه حين أعادت قريش بناء الكعبة وعرف كيف يفضّ الخلاف بين قبائلها التي كانت تتسابق على شرف وضعه، يبدأ الطواف بالكعبة من الحجر الأسود وينتهي عنده، وتقبله سنة وتكفي الإشارة إليه عند الزحام.

٣ - بئر زمزم: بئر في مكة في الحرم الشريف قرب الكعبة، احتكرها إسماعيل وأمه هاجر، ثم عنت لئام وطُمت فكتشف موقعها عبد المطلب جد النبي ﷺ فأعاد حفرها، كانت معظمة في الجاهلية كما هي اليوم في الإسلام، يشرب الحجاج من ماءها وينقلون منه إلى بلادهم تبركا، يتولى السقاية منها بنو عبد المطلب إلى اليوم.

٤ - حنّي، صلتو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٣١.

٥ - بولس جواد، التحولات الكبيرة في تاريخ الشرق الأدنى منذ الإسلام، دار عودة، (بيروت، لا.ت.) ص ٧١.

بسم الله الرحمن الرحيم... من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم... السلام على من اتبع الهدى. أما بعد: أسلم تسلم. أسلم يؤتك الله أجرك مرتين. وإن تولّ فإنّ إثم الأريسيين عليك. يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم... ألا نعيد إلاّ الله ولا نشرك به شيئاً... ولا يتخذ بعضنا أرباباً من دون الله. فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون.

وكتب إلى نجاشي الحبشة كتاباً تضمن كلاماً لطف<sup>٢</sup>. وقد عبّر الرسول ﷺ في هذا الكتاب عن معان هامة في ما يتعلّق بالمسيحية وقد جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشي الأفخم ملك الحبشة، سلام أنت فإنّي أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن. وأشهد أنّ عيسى بن مريم روح الله وكلمته. ألّقاها إلى مريم البتول الطيبة الحسنة. فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه. وإنّي أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالة على طاعته وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فإنّي رسول الله. وقد بعث إليك ابن عمي جعفرًا ونفراً معه من المسلمين. فإذا جاؤوك فأقرهم ودع التجبر. فإنّي أدعوك وجنودك إلى الله فقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحي. والسلام على من اتبع الهدى<sup>٣</sup>.

١ - لعل المقصود بالأريسيين الذين عبّد أريس ARÉS إله زوشت وهيرا، إله الحرب لدى اليونانيين، رديفه مارس عند الرومان؛ أو الأريوسيين أتباع أريوس ARIUS: كاهن اسكندري زعم أنّ الكلمة غير مساوٍ للاب في الجوهر، فحرّمه المجمع النيقاوي ٣٢٥، ومنه البدعة الأريوسية التي استمرت حتى أواخر القرن الرابع في الشرق والقرن السابع عند القوط واللومبارد.

٢ - كان محمد ﷺ قد قام بهجرته الأولى إلى الحبشة النصرانية مع أصحابه وأتباعه في العام ٦١٥. وكان النجاشي ملكاً.

٣ - مظهر، قصة الديانات، ص ٤٧٩.

ومن الذين كاتبهم محمد ﷺ في الموضوع نفسه: الحارث بن أبي شمر الغساني<sup>١</sup>، والمقوقس صاحب الإسكندرية<sup>٢</sup>، ونو الكلاع الحميري<sup>٣</sup>، والمنذر بن ساوى من بني تميم بالبحرين، والأيهم بن النعمان الغساني، وابنا هوزة بن علي الحنفي باليمامة، والحارث بن عبد كلال الحميري، والديان، وبنو قنان<sup>٤</sup>. ومنهم أيضا، ملك الفرس: كسرى\*، الذي كتب إليه محمد ﷺ بمثل ما كتب إلى من جاء ذكرهم:

بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من أتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله إلى الناس كافة لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين فأسلم تسلم، فإن أبيت فإن عليك آثام المجوس<sup>٥</sup>.

لم يستجب الملوك والأمراء لدعوة محمد ﷺ. فكان لا بد من أن تسير جيوش المسلمين بعد ذلك لتقرّ دعوة الإسلام بين الشعوب. فلم يمض وقت طويل على دخول مكة، حتى كانت وقعة حنين<sup>٦</sup>، حيث جمع مالك بن عوف النصري<sup>٧</sup> قبائل

١ - الحارث بن أبي شمر الغساني: من ملوك الغساسنة من العرب المنتصرة في شمالي سورية.

٢ - المقوقس: اسم أطلقه العرب على كورش وزير حاكم مصر البيزنطي وبطريك الإسكندرية لما فتح عمرو بن العاص مصر ٦٣٩ - ٦٤٢.

٣ - حمير: شعب قديم في بلاد اليمن. ورث الحضارة السبئية المعينية. ذكرته الأدب اللاتينية. دخلت إليه المسيحية في عهد الأمبراطور قسطنطينوس ٣٣٧ - ٣٦١ على يد ثيوفيلس الهندي الأريوسي.

٤ - اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٧٧ - ٧٨.

٥ - مظهر، قصة الديانات، مرجع سابق، ص ٤٧٩.

٦ - حنين: وادي بين مكة والطائف.

٧ - مالك بن عوف النصري (ت نحو ١٠هـ / ٦٤٠م): من هوازن، صحابي من أهل الطائف، تولّى قيادة المشركين في حنين، أسلم بعد ذلك، يد بين المولفة قلوبهم، قتل في فتوح الشام وفارس.

هوازن<sup>١</sup>، لحرب المسلمين، بعد أن فتح الرسول ﷺ مكة. فسار رسول الله ﷺ إليهم بجيش الفتح والمكّيين وانتصر عليهم وحاز المسلمون غنائم عظيمة. كان ذلك في العام الثامن للهجرة (٦٣٠م)<sup>٢</sup>. وفي السنة نفسها، وجّه جعفر بن أبي طالب<sup>٣</sup> وزيد بن حارثة<sup>٤</sup> وعبد الله بن رواحة<sup>٥</sup> على رأس جيش إلى الشام لقتال الروم. وقد استشهد الثلاثة بأرض مؤتة<sup>٦</sup> من أعمال دمشق بخلال وقعة مع الروم، إنهم فيها المسلمون<sup>٧</sup>. وفي السنة نفسها كانت غزوة الطائف<sup>٨</sup>.

تلك كانت الغزوات التي جرت بعهد الرسول ﷺ، وقد شهدت قتالاً. بيد أن غزوات عدة قد قام بها محمد ﷺ من دون أن يلقي مقاومة، ذكر منها: الأبواء، وبواط، ونو العشيرة، وقرقرة الكدر، وحمراء الأسد، وبدر الصغرى، وتبوك<sup>٩</sup>.

١ - هوازن بن منصور: جدّ جاهليّ من قيس عيلان من عدنان، بنوه قبائل كثيرة منها: تغيف، بكر، عامر، نصر، كعب، كلاب، جمعة، غنيل، قشير، خفاجة، حاربوا قريشاً في عكاظ، دخلوا الإسلام بعد وقعة حنين.

٢ - راجع: الليقوي، مرجع سابق، ٢: ٦٢؛ المسعودي، مرجع سابق، ٣: ٣٠.

٣ - جعفر بن أبي طالب (ت ٨٨هـ / ٦٢٩م): صحابيّ هاشميّ من الشجعان، ابن عمّ النبي ﷺ، لم يترك اللّواء في غزوة مؤتة حتّى بُترت يده واستشهد، كناه النبي ﷺ بذي جناحين.

٤ - زيد بن حارثة (ت ٨٨هـ / ٦٢٩م): صحابيّ، من أوائل الذين اعتنقوا الإسلام، استوبه النبي ﷺ من زوجه خديجة وتبناه واعتقه، عقد له لواء غزوة مؤتة، استشهد في المعركة.

٥ - عبد الله بن رولحة (ت ٨٨هـ / ٦٢٩م): صحابيّ أنصاريّ خزرجيّ، من الشعراء الشجعان، لم يترك اللّواء في غزوة مؤتة رغم جراحه حتّى سقط شهيداً.

٦ - مؤتة: موضع جنوب شرق البحر الميت في الأردن حالياً.

٧ - راجع: المسعودي، مرجع سابق، ٣: ٣٠؛ الليقوي، مرجع سابق، ٢: ٦٣.

٨ - الطائف: مدينة في الحجاز (المملكة العربيّة السعوديّة حالياً) جنوب شرقيّ مكة، على قمة جبل غزوان ١٦٣٠م. سكنها في الجاهليّة بنو تغيف، هي نقطة مواصلات هامة بين الرياض ومكة وغلند وهران ونجران؛ راجع لليقوي، مرجع سابق، ٢: ٦٧ - ٦٨.

٩ - تفاصيل تلك المواقع في: الليقوي، مرجع سابق، ٢: ٦٩ - ٧٨.

كما أنّ الرسول، ﷺ كان بحياته، قد أمر جيوشه بالانتشار في مواقع استراتيجية بمحيط الجزيرة العربية، فوجه حمزه بن عبد المطلب على سرية على ساحل البحر، وكذلك عبيدة بن الحارث بن المطلب، الذي ركّز حامية بأسفل تية المرة عند ماء الحجاز. وسعد بن أبي وقاص على سرية الخراز، وهو ماء من الجفة. كما وجه سواهم إلى العديد من المواقع، التي زاد عددها على الثلاثين. وأرسل بطلب القبائل العربية لمواجهته في المدينة، فقصدته عشرات القبائل وعلى رأس كلّ منها أميرها أو شيخها أو رئيسها، فكان الرسول يحدثهم، طالباً إليهم اعتناق الإسلام، فمنهم من شهبوا إسلامهم، ومنهم من رفضوا. بيد أنّ الأكثرية أسلمت، ومن لم يقبل بالدعوة، تعرّض للغزوات<sup>١</sup>.

## أزواج الرسول

كان محمد، ﷺ قبل البعث، قد تزوّج خديجة ابنة خويلد بن أسد بن عبد العزي بن قصي، كما ذكرنا سابقاً، وولدت له أولاده أجمعين، خلا إبراهيم الذي ولدته مارية القبطية. ومات إبراهيم وعمره أقلّ من سنتين.

لم يتزوج محمد ﷺ على خديجة، حتّى ماتت. وكانت وفاتها في شهر رمضان، قبل الهجرة بثلاث سنوات، ولها خمس وستون سنة. وقد دخل عليها محمد ﷺ وهي تجود بنفسها، فقال:

١ - تفصيلها في البيهقي، مرجع سابق، ٢: ٧٩ - ٨٠.



بالكره مني ما أرى. ولعلّ الله أن يجعل في الكره خيراً كثيراً. إذا لقيت ضرتك في الجنة يا خديجة فاقرئيهن السلام.

قالت: ومن هن يا رسول الله؟ قال:

إنّ الله زوجنيك في الجنة وزوجني مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم وكلثوم أخت موسى.

فقالت: بالرفاه والبنين.

ولما توفيت خديجة، جعلت فاطمة، ابنتها، تتعلّق بأبيها، رسول الله، وهي تبكي وتقول: "أين أمي؟ أين أمي؟" فنزل عليه الوحي:

قل لفاطمة إنّ الله تعالى بنى لأمك بيتاً في الجنة من قصب لا نصب فيه ولا صخب<sup>١</sup>.

بعد خديجة، تزوّج الرسول ﷺ عشرين امرأة، وقيل اثنتين وعشرين، طلق بعضهن، ولم يقرب بعضهن، ولم يمت من نسائه عنده، إضافة إلى خديجة، سوى زينب بنت خزيمة بن الحارث من بني عامر بن صعصعة، الملقبة بأمّ المساكين. ومات ثلاث منهن قبل وصولهن إليه، هن: خولة بنت الهذيل بن هبيرة الثعلبية، وشراف بنت خليفة الكلبي، وسنا بنت الصلت بن حبيب بن حارثة السلمي. أمّا ليلي بنت الحطيم الأوسي، فقد استنقالت، فأقالها، فدخلت، مختارة، حائطاً من حيطان المدينة، فأكلتها الأسود<sup>٢</sup>. وطلق كلاً من غزية بنت دودان من بني عامر بن لؤي، وقد عرفت بأمّ شريك. وعمرة بنت يزيد بن عبيد الكلبي التي طلقها من دون أن يقربها. وكذلك العالية بنت ظبيان بن عمرو الكلبي، وضباعة بنت عامر القيسية. أمّا اللواتي ألحقهن

---

١ - البيهقي، مرجع سابق، ٢: ٣٥.

٢ - البيهقي، مرجع سابق، ٢: ٨٦.

بأهلهم دون أن يقربهنّ فهنّ: أسماء بنت النعمان الكنديّ من بني آكل المرار. والجونيّة من كندة، وصفيّة بنت بشامة العنبريّة. وبقيت ريحانة بنت شمعون القريظيّة اليهوديّة الأصل في ملكه دون أن يقربها. وقبض الرسول قبل أن يقرب من زوجاته: قتيلة بنت قيس بن معديّ كرب، فخلف عليها عكرمة بن أبي جهل<sup>١</sup>. أمّ اللواتي أرجأهنّ فهنّ: سودة بنت زمعة بن قيس... بن لؤي، تزوّجها في مكّة. وأمّ حبيبة بنت أبي سفيان... بن عبد مناف، وجويريّة واسمها برّة من خزاعة، وصفيّة بنت حبي من سبط هارون النّبّي، وميمونة بنت الحارث بن حزن بن بجير الهلاليّ. وآوى من نسائه: عائشة بنت أبي بكر بن أبي قحافة التي تزوّجها بمكّة، وحفصة بنت عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، وزينب بنت جحش من بني أسد، وأمّ سلّمة بنت أبي أميّة... بن مخزوم.

ولم يخلف الرسول صلّى الله عليه وآله بعد مماته سوى فاطمة، التي كانت زوجة لابن عمّه عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه<sup>٢</sup>.

## حَجَّةُ

## الوداع

في السنة العاشرة للهجرة، كان محمّد صلّى الله عليه وآله قد بلغ الثالثة والستّين. وقد شعر بأنّ نهايته على هذه البسيطة قد دنت. فخرج من المدينة للحجّ إلى مكّة في أكثر من مائة

١ - عكرمة بن أبي جهل (ت ١٣هـ / ٦٣٤م): صحابي قرشيّ مخزوميّ من رواية الحديث، سيّره أبو بكر بجيش لقتال مسيلمة الكذاب بحروب الرّدة، وسيكون ذا بلاء في فترج الشام، وسيتمشّد في اليرموك.

٢ - راجع: البغوي، مرجع سابق، ٢: ٨٤ - ٨٦ و ١١٥.

ألف مسلم. وعند جبل عرفات<sup>١</sup>، وقف يلقي خطبة الوداع الخالدة، التي بيّن فيها دستور الإسلام وقواعده، ونادى بالمساواة بين الناس، لا فرق في ذلك بين العبد الحبشي الشريف القرشي:

أيّها الناس... إنّ ربكم واحد. وإنّ أباكم واحد. كلّكم لأدم. وأدم من تراب. إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم. لا فضل لعربيّ على أعجميّ إلاّ بالتقوى<sup>٢</sup>.

في هذه الحجّة الأخيرة إلى مكّة، جاء في خطبة النبي ﷺ التي تُعدّ القمّة في حياته الخطابيّة:

أيّها الناس، إسمعوا قولي واعقلوه. تعلّموا أنّ كلّ مسلم أخ للمسلم وأنّ المسلمين أخوة فلا يحلّ لامرئ من أخيه إلاّ ما أعطاه عن طيب نفس منه<sup>٣</sup>.

وقال في خطبته:

نصرّ الله وجه عبد سمع مقالتي فوعاها وحفظها ثمّ بلّغها من لم يسمعها، فربّ حامل فقه غير فقيه، وربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه.

ثلاث لا يُغلّ عليهنّ قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، والنصيحة لأئمة الحقّ، واللزوم لجماعة المؤمنين، فإنّ دعوتهم محيطّة من ورائهم<sup>٤</sup>.

---

١ - عرفات أو عرفة: جبل غرانيبيّ بالحجاز يقع شرق مكّة، في الجهة الشماليّة منه صخرة مرتفعة تسمّى جبل الرحمة، في سفحها الجنوبيّ خطب الرسول ﷺ خطبة الوداع المشهورة، قال النبي ﷺ: "الحجّ عرفة"، فأضحى عرفة من مناسك الحجّ بل لا يتمّ حجّ المسلمين إلاّ بالوقوف به، نافرين إليه حامدين واقفين داعين بين يديّ الله قبل عيد الأضحى بيوم، ومن ذا سُمّي هذا اليوم يوم الوقفة، ومنّ فاتته هذا الوقوف ولو لحظة بين زوال اليوم التاسع من ذي الحجّة إلى فجر العاشر فاته الحجّ، ووجب عليه قضاؤه في العام التالي وتخلّ من الإحرام، والإثنا عشرية يوجبون البقاء على الإحرام حتّى العام التالي.

٢ - مظهر، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص ٤٧٩.

٣ - حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٣١.

٤ - اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٠٩.

وكان واضحًا أنّ خطبة الرسول ﷺ هذه، كانت الوصيّة. فهو كان يخاطب المؤمنين موصيًا، فيقول:

... هل تدرون أيّ بلد هذا؟ هل تدرون أيّ شهر هذا؟ هل تدرون أيّ يوم هذا؟

فقال الناس: نعم! هذا البلد الحرام واليوم الحرام. قال:  
فإنّ الله حرّم عليكم دماءكم وأموالكم كحرمة بلدكم هذا، وكحرمة شهركم هذا،  
وكحرمة يومكم هذا. ألا هل بلغت؟

قالوا: نعم. فقال:

اللهم أشهد.

ويقول:

... فأوصيكم بمنّ ملكت أيماكم فاطعموهم ممّا تأكلون، وألبسوهم ممّا تلبسون، وإن  
أذنوا فكلوا عقوباتهم إلى شراركم، ألا هل بلغت؟

فيقولون: "نعم" فيقول:

اللهم أشهد.

وختّم:

اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام دينًا<sup>١</sup>.

وعاد إلى المدينة. وبعد شهرين من رجوعه، وكان الثامن من حزيران (يونيو)  
سنة ٦٣٢م<sup>٢</sup>، أصيب محمد ﷺ بألم حادّ في رأسه، وقبض، دون أن يترك وصيّة تعيّن  
خليفته. وهذا ما سيكون له أثر كبير على وحدة الإسلام.

---

١ - أنظر كامل مضمون خطبة حجة الوداع في: اليعقوبي، مرجع سابق، ص ١٠٩ - ١١٢.

٢ - حتّي، صلقو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٣١؛ لَوْخ اليعقوبي، مرجع سابق، ص ١١٣ الوفاة يوم الإثنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول، ومن شهور العجم أذار، وكان قرآن العقرب.

## الفصل الثاني

# أبو بكر وأيامه

الإتقال؛

مسألة الخلافة؛ مدعو النبوة؛

قُوتَاتُ أَبِي بَكْرٍ .



# الإِتيقال

كان اليوم الثامن من حزيران (يونيو) سنة ٦٣٢م<sup>١</sup>، أخطر يوم شهدته، ليس المدينة وحسب، بل الجزيرة العربية، في تاريخها.

في ذلك اليوم الشديد الرطوبة والحرارة، سُجِّي محمد ﷺ على فراش الموت في منزل عائشة في المدينة، والمسلمون في ذهول رهيب. كيف يموت رسول الله ﷺ؟ ثم... ماذا بعد؟!

فبالرغم من أن محمدًا ﷺ كان أعلن وهو يتلو:  
إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ...

فإن كثيرين من أتباعه رفضوا أن يصدقوا بأن محمدًا ﷺ يمكن أن يموت. وصعق آخرون واستولت الحيرة على عقولهم، فكانوا بين مصدّق... ورافض التصديق. أمّا المدركون أن محمدًا ﷺ بشر، فراحوا ليكون الرسول ﷺ.

وكان الصخب وسط المصاب الجلال، وقد طغى عليه صوت راعد يقول:  
إن رجلاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفي وأن رسول الله مات. والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه.. فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أن رسول الله ﷺ مات.

---

١ - لو لعله يوم الإثنين للثنتين خلنا من شهر ربيع الأول، كما أرخ لليعقوبي، مرجع سابق، ص ١١٣.

كان صاحب الصوت رجلاً كهلاً، مديد القامة، نحيفها، خفيف العارضين، هو عُمر ابن الخطّاب.

وبعد قليل، سُمع صوت آخر هادئ يقول:

أيّها الناس، إنّ مَنْ كان يعبد محمّداً ﷺ، فإنّ محمّداً ﷺ قد مات، ومَنْ كان يعبد الله فإنّ الله حيّ لا يموت.

وكان صاحب الصوت رجلاً شيخاً نحيل الجسم، هو أبو بكر، الذي قال هذا، والدمع يتساقط من عينيه. فإنّه كان قد ذهب إلى بيت النبي ﷺ فكشف الغطاء عنه وقبله ثمّ ردّ الثوب على وجهه وخرج.

هدأت العاصفة، ودُفن النبي ﷺ حيث كان مسجّى، ونشأ بعد ذلك أمر أشدّ خطورة، وأكثر واقعيّة: من سيخلفه؟<sup>١</sup>

## مَسْأَلَة

## الخِلافة

هكذا، بدأت مسألة الخلافة.

ومنذ ذلك اليوم، لن يتمكّن أحد من توحيد المسلمين، كما وحّد بينهم محمّد ﷺ: الرسول والقائد والحاكم والقاضي والأمر والناهي.

إلاّ أنّه لم يكن بدّ من وجود خليفة لسيد المسلمين. والمشخة العربيّة حينئذ لم تكن وراثيّة، بل شبه انتخابيّة، على أساس الأقدميّة في السنّ.

---

١ - حتّى، صاتمؤ التاريخ العربي، ص ٣٥ - ٣٦.



ولكن، أيّ أقدم في السن؟!

فما أن طُرحت قضية الخلافة للنقاش، حتّى ظهرت الأحزاب:

الأول، كان حزب المهاجرين، وغالبيتّه من قريش، ممّن تبعوا الرسول ﷺ منذ البداية، وهاجروا معه إلى المدينة، واعتبروا أنّهم الأحقّ بالخلافة.

والثاني، كان حزب الأنصار، ولسان حال هؤلاء يقول بأنّه لو لم ينصروا النبيّ ﷺ ويأووه وصحبه، ويقدموا له العون في القتال، لما قام الإسلام.

والثالث، حزب أهل البيت، وهو حزب عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ولسان حال أصحاب هذا الحزب، أنّ عليّاً عليه السلام هو ابن عمّ الرسول ﷺ، وختته، وأبو حفيده الحسن والحسين، ومن المؤمنين الأول، فهو أولى شرعاً بالخلافة من غيره، خاصّة وأنّ محمداً ﷺ قد أوصى بذلك قبل وفاته كما يقولون.

يذكر المؤرّخون أنّ جدلاً خطيراً قد حصل يومها، لا بل صراعاً بلغ حدّ الاقتتال. بيدّ أنّه في النهاية، فاز حزب المهاجرين، وكان لديه مرشّحان للخلافة: أبو بكر، وعُمر بن الخطّاب.

كان أبو بكر والد عائشة زوجة الرسول ﷺ، وعُمر والد زوجته الأخرى: حفصة. كما أنّ الرجلين كانا من أوفى أصدقاء محمّد ﷺ، وهما صحابيّان مقربان إليه، ومستشاران كان يعتمد عليهما، إضافة إلى ما كان لهما من مقام رفيع في أعين المؤمنين. وإذا كان الرجلان يختلفان في الشخصية وفي المظهر والتصرّف في العمل،

---

١ - يقول أنصار عليّ عليه السلام، بأنّ محمداً ﷺ عندما خرج ليلاً منصرفاً من مكّة إلى المدينة، بعد حجة الوداع، سار إلى موضع بالقرب من الجفة يُقال له غدير خم. وهناك قام خطيباً، وأخذ بيد علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: ألسنّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلى يا رسول الله! قال: فمن كنت مولاه، فعليّ مولاه، اللهم والي من والاه وعاد من عاداه.

فإنهما كانا يتفقان في شدة إخلاصهما وولائهما للإسلام، ولصاحب الرسالة الذي جاء بالإسلام. وإذا كان عمر أكثر اقتداراً من أبي بكر، وكان العقل المفكر في الصحابة التي كانت تحيط بالرسول ﷺ، فإن أبا بكر، كان يكبره بإحدى عشرة سنة، كما أنه كان أسبق من عمر إلى الإسلام، وكان النبي ﷺ قد طلب لأبي بكر في أثناء مرضه بالصلاة الجامعة.

ووقع الاختيار على أبي بكر، وكان عمر أول من بايعه<sup>١</sup>.

إن ما سماه المدونون القدماء: "المجاذبة في الإمامة"<sup>٢</sup>، التي حصلت في يوم السقيفة ذلك، كان إيذاناً بما سيتعرض له الإسلام في ما بعد، من انشقاق خطير.

أما خبر السقيفة التي تكنى بها يوم المبايعات للخلافة الأولى، فهو أن الأنصار كانوا قد اجتمعوا، يوم وفاة الرسول ﷺ، في سقيفة بني ساعدة، وبادروا إلى "إجلال سعد بن عباد الخزري، وعصبوه بعصابة، وثبوا له وسادة"<sup>٣</sup>. أي أنهم عيّنوه خليفة. غير أن أبا بكر، وعمر والمهاجرين، عندما علموا بذلك، سارعوا إلى سقيفة بني ساعدة، ونحو الناس عن سعد، وقالوا: "منا رسول الله يا معشر الأنصار. فنحن أحق بمقامه". فقالت الأنصار: "منا أمير ومنكم أمير!". فقال أبو بكر: "منا الأمراء ومنكم الوزراء". وبعد مساجلة قصيرة، إقتنع القوم بمبايعة أبي بكر.

وجاء من يسارع إلى بني هاشم، ليلبغهم أن الناس قد بايعوا أبا بكر، فكانت ردة فعلهم غضباً وعتباً وأسفاً، فقال بعضهم: "ما كان المسلمون يحدثون حدثاً نغيب عنه، ونحن أولى بمحمد ﷺ". وقال العباس: "فعلوها ورب الكعبة".

١ - حنّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٣٧.

٢ - المسعودي، مرجع سابق، ٣: ٤٢.

٣ - اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٢٣.

بدأت معارضة أنصار عليّ عليه السلام بمواجهة الفضل بن العباس للخليفة المبايع جديداً ومن بايعوه، وقوله لهم: "يا معشر قريش، إنّه ما حقّقت لكم الخلافة بالتمويه، ونحن أهلها دونكم، وصاحبنا أولى بها منكم"<sup>١</sup>.

وكان ما قاله عليّ لأبي بكر، مشوباً بلهجة العتاب: "أفتّ علينا أمرنا ولم تستشّر ولم ترعَ لنا حقّاً؟!". فقال أبو بكر: "بلى... ولكنني خشيت الفتنة".

وكانت النتيجة أن تخلف عن بيعة أبي بكر قوم من المهاجرين، والأنصار، ومالوا، مع بني هاشم، إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام... واجتمعوا إليه في منزل فاطمة، بنت الرسول صلى الله عليه وآله، وزوجة عليّ عليه السلام؛ فهاجم عمر بن الخطاب منزل فاطمة، فخرج إليه عليّ، وبارزه خارج البيت، وكان أن كسر عليّ عليه السلام سيف عمر، ودخل وجماعته الدار. فخرجت فاطمة صارخة: "والله لتخرجنّ أو لأكشفن شعري ولأعجنّ<sup>٢</sup> إلى الله!"

فخرج عمر وأتباعه، كما خرج سائر من كان في دار فاطمة. وبعد أيام جعل الهاشميون وأنصارهم يبايعون أبا بكر، تباعاً، "ولم يبايع عليّ عليه السلام، إلا بعد مرور مدة، بعضهم ذكر أنها أربعون يوماً، وبعضهم قال أنها ستّة أشهر"<sup>٣</sup>.

إنتهت المبايعّة الأولى، بعد الرسول صلى الله عليه وآله، بسلام. إلا أن بذور الشقاق كانت قد ذرّت، وبقيت مسألة الخلافة موضع أخذ وردّ في المدينة.

سرعان ما ذهب أنصار عليّ عليه السلام في رأيهم إلى أبعد ممّا كانوا قد ذهبوا إليه قبلاً، من أنّه الأولى بالخلافة لأنّه ابن عم النبيّ لحاً، والثاني أو الثالث بين من آمنوا

١ - لتفاصيل هذه المسألة، راجع: الطيّوبي، مرجع سابق، ٢: ١٢٣.

٢ - عجّ: عجا وعججاً: صاح ورفع صوته.

٣ - الطيّوبي، مرجع سابق، ٢: ١٢٦.

بالرسالة، وزوج لابنة الرسول ﷺ الوحيدة التي قَدَّر لها أن تبقى بعده على قيد الحياة، ووالد للحسن والحسين، وهم كلٌّ من ترك النبي ﷺ من ذرية. ذهبوا إلى المجاهرة بالاعتقاد بأنَّ تولَّى هذا المنصب، وهو أرفع منصب في الإسلام، لا يمكن أن يكون قد ترك رهنًا بميول الناخبين ونزواتهم. وبأنَّه لا بدَّ من أن يكون الله ومحمد ﷺ قد أعدَّاه له ما يلزم، وبأنَّ عليًا عليه السلام هو الشخص الذي أعدَّاه له. وهذا من شأنه أن يجعل عليًا عليه السلام الخليفة الشرعي الوحيد للنبي ﷺ، ويُنزل خلفاءه الآخرين بمنزلة المغتصبين<sup>١</sup>.

## مُدْعُو

## النُّبُوَّة

وإذا كان أنصار علي عليه السلام قد اكتفوا بالتعبير عن موقفهم من الخلافة دون أن يعرّضوا الإسلام، كدين، لأية خضّة، فإنَّ أناسًا آخرين قد اتَّخذوا هذا المنحى الخطير، وكان على الإسلام القويم أن يحاربهم بقسوة.

أولئك هم الذين ادَّعوا النُّبُوَّة.

كذلك بعد انتقال النبي ﷺ من هذه الفانية، إرتدَّ جماعة من العرب عن الإسلام، وامتنع آخرون عن دفع الجزية.

وكانت كلُّ هذه الأمور تدعو الخلافة، لأن تتفدَّ المكافحة السريعة لا بل توجب عليها ذلك.

---

١ - حتَّى د. فيليب، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، نشر دار الثقافة، بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين للمساهمة للطباعة والنشر (بيروت، ١٩٥٩) ٢: ٢٩.

كان من الذين ادّعوا النبوة: طليحة بن خويلد الأسديّ في نواحيه. ومُسيلمة ابن حبيب الحنفيّ باليمامة. والأسودّ العنسيّ الكذاب المعروف بـ"عيلة" باليمن وصنعاء. وسجاح بنت الحارث بن سويد - وقيل بنت عققان - وتُكنّى بأمّ صادر، من بني تغلب<sup>١</sup>.

فقد كان طليحة بن خويلد كاهناً من بني أسد، وقد ادّعى بأنّ الوحي ينزل عليه من ملك أسماه "ذا النون"، ثمّ عدل عن "ذي النون" وقال لا بل هو جبريل. ولم يُعرف عن قرآنه شيء، إلّا أنّه كان يعترض على السجود في صلاة المسلمين ويقول: "صلّوا قياماً فإنّ الله لا يقنع بتغيير وجوهكم وقبح أدباركم".

أمّا مسيلمة فقد زعم أنّ وحياً يهبط عليه في الظلام فقط، من السماء، يُسمّى "رحمان" ويقرئه قرآنًا. وكان مسيلمة هذا قد أرسل إلى محمّد ﷺ، قبل وفاته، كتاباً يدّعي فيه مشاركته في الرسالة، ويساومه في اقتسام الملك والسيادة في جزيرة العرب. فكتب إليه الرسول ﷺ:

من محمّد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب. سلام على من اتّبع الهدى، أمّا بعد، فإنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

غير أنّ مسيلمة تمادى في الحديث عن الوحي الذي يهبط عليه وقال في قرآنه: "يا ضفدع يا بنت ضفدعين. نقيّ ما تتقيّين. نصفك في الماء ونصفك في الطين. لا الماء تكثرين ولا الشارب تمنعين".

وقال مسيلمة آيات أخرى حاول عبثاً أن يقلّد فيها، آيات القرآن الكريم التي نزلت على محمّد ﷺ، منها: "والبازرات زرعاً. والحاصدات حصداً. والذاريات قمحاً. والطلحات طحناً. والعاجنات عجنًا. والخابزات خبزًا. والثاردات ثردا. واللاقمات

---

١ - للمسودي، مرجع سابق، ٣: ٤٤ - ٤٥؛ لليقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٣١.

لَقَمًا. وأهالة وسمناً. لقد فَضَّلْتُمْ على أهل الوبر. وما سبقكم أهل المدر. ضيفكم فامنعوه. والمعتَر فأووه. والباغي فناوئوه".

أما الأسود العنسي الذي ادَّعى النبوة في اليمن وتبعه قومه، فقد طغى وبغى ودانت له بلاد نجران. هاجم صنعاء وقتل أميرها وتزوج امرأته. وألقى الرعب في قلوب ولاية المسلمين على اليمن، حتَّى كتبوا بذلك إلى الرسول ﷺ. فبعث محمد ﷺ إليهم فأمرهم بالقيام على دينهم ومناهضة الأسود الذي كان يقول أنَّ وحيه ينزل به عليه ملك سمَّاه "ذا خمار". وقد إئتمر الولاية به حتَّى قتلوه غيلة في الليلة التي مات الرسول ﷺ في صبيحتها.

وأما المتنبية: سجاح، فزعمت أنَّ لها قرأنا يهبط عليها به الوحي. غير أنَّ هذا الوحي قد صمت حين لقيت مسيلمة وتزوجته، بالرغم من أنَّها كانت قبلاً ضدَّ مسيلمة. والذي حصل، أنَّ مسيلمة، المتنبِّي الكذاب، أعطاهما صدقاً بأنَّ أعفى أتباعها من صلاة العصر. وقد ظلَّ بنو تميم وقتاً غير قصير لا يصلُّون العصر حتَّى لا يضيِّعوا صداق ابنتهم زوجة مسيلمة<sup>١</sup>.

واضح أنَّ هؤلاء المتنبِّين قد لاقوا، بعد انتقال الرسول ﷺ من هذه الفانية، أنصاراً عديدين، ليس لقناعة بنبوءاتهم، إنّما هم انحازوا إلى هؤلاء، ليستتصروا بهم على قريش، بهدف التخلص من زعامتها وسيادتها. وإذا كان بعض هؤلاء المنحازين من القبائل التي تظاهرت قبلاً باعتراف الإسلام، فقد أضحوا من المرتدّين.

بدأ أبو بكر المكافحة بإرسال خالد بن الوليد لضرب طليحة المتنبّيء، "فقصد خالد طليحة وفرَّق شمله بعد أن قتل عدداً من أتباعه، وأسر آخرين. وفرَّ طليحة إلى الشام،

---

١ - جميع ما أورده عن المتنبِّين الكذابين جاء في كتاب: مظهر سليمان، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص ٤٨٧ - ٤٨٨.

حيث جاور بني حنيفة. ومن هناك، بعث بشعر في رسالة إلى أبي بكر يعتذر عما بدا منه، ويعلن عن رغبته في أن "يراجع"، أي، عن رغبته في العودة إلى الإسلام. وإذ رقّ أبو بكر له، قبل برجوعه، غير أنّ طليحة قد وصل إلى المدينة بعد موت أبي بكر بوقت قصير، وكانت الخلافة قد أضحت بيد عمر، الذي بعث بطليحة مع سعد بن أبي وقاص<sup>١</sup> إلى العراق، وأمر سعدًا بالألّا يستعمل طليحة في شيء. ذلك أنّ عمر، كان حذرًا من ألاعيب هذا الذي تنبأ.

بعد طليحة، أرسل أبو بكر خالد بن الوليد\* أيضًا لضرب المتنبّئ الآخر: مسيلمة. فراح خالد إلى مسيلمة وقاتله بمن معه من ربيعة<sup>٢</sup> وغيرها قتالاً شديداً، وقُتل يومها من المسلمين خلق عظيم. وفي النهاية، قُتل مسيلمة بطعنة من أبي دجانة الأنصاري. وتمكّن مسيلمة من قتل قاتله بضربة من رمحه قبل أن يسلم الروح. فكانت نهاية مسيلمة في هذه المعركة التي عُرفت بـ "حديقة الموت"، وهو الذي كان قد أزعج المسلمين بحياته إلى حدّ بعيد، وتغلّب عليهم سابقاً عندما حاولوا ضربه بقيادة عكرمة\*. أمّا تاريخ تلك النهاية فكان في العام ٦٣٢، وقيل أنّ عمره قد بلغ يومذاك مائة وخمسين سنة.

---

١ - سعد بن أبي وقاص (ت ٤٥٥هـ / ٦٧٥م): قرشيّ زهري، صحابيّ، خامس السابقين إلى الإسلام، أحد العشرة المبشّرة، قُتل إلى جانب النبي ﷺ في جميع الغزوات، كان رامياً ماهراً، قاد جيوش فتح فارس وانتصر على رستم في القاسية، اتخذ الكوفة مقراً له وشيّد فيها أول مسجد، أخذه عمر في أهل الشورى للخلافة، مستجاب الدعوة، توفّي بالمدينة.

٢ - ربيعة: نسبة إلى ربيعة بن نزار: جدّ جاهليّ من معدّ من عدنان، ينتمي إليه أكثر من عشرين قبيلة، كانت مواطنهم تهامة مع إخوتهم مضر، وبسبب فتن بين قبائلها تفرقت وارتحل بعضهم إلى البحرين، ومنها عبد القيس، ونزلت أسد وعنزة وبكر وتطلب وضيعة فأقامت في ظواهر نجد والحجاز حتّى وقعت حرب البسوس.

لَمَّا تَخَلَّصَتِ الْخُلَافَةُ مِنَ الْمُتَنَبِّينِ الْكَذَّابِينَ، رَأَى أَبُو بَكْرٍ، قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ بِقِتَالِ مَنْ أَرْتَدَّ، أَنْ يَأْمُرَ خَالِدًا بِالسَّيْرِ إِلَى أَرْضِ الْعِرَاقِ. وَبَيْنَمَا كَانَ خَالِدٌ يَفْتَتِحُ بَانِقِيَا<sup>١</sup> وَكَسْكَرًا<sup>٢</sup>، وَيَهْزِمُ النُّعْمَانَ<sup>٣</sup> فِي الْحِيرَةِ<sup>٤</sup>، وَيَنْزِلُ فِي الْخُورْنُقِ<sup>٥</sup>، وَيَسْبِي كُلَّ مَا افْتَتَحَ مِنْ مَدَنٍ وَقِبَائِلَ، وَجَهَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى الْمُرْتَدِّينَ قَادَةَ آخَرِينَ، فُوجَّهَ الْعَلَاءُ بْنُ الْخَضْرَمِيِّ<sup>٦</sup> إِلَى أَوَّلِ مَنْ أَرْتَدَّ وَوَضَعَ التَّاجَ عَلَى رَأْسِهِ مِنَ الْعَرَبِ: النُّعْمَانُ بْنُ الْمَنْذَرِ التَّمِيمِيُّ فِي الْبَحْرَيْنِ. وَتَمَكَّنَ الْعَلَاءُ مِنَ النُّعْمَانِ وَقَتْلَهُ بِسُرْعَةٍ. كَذَلِكَ وَجَّهَ الْخَلِيفَةُ حَزِيفَةَ بْنَ مُحَصَّنٍ<sup>٦</sup> إِلَى مُرْتَدِّ آخَرٍ، فِي عُمانَ، هُوَ ذُو التَّاجِ لَقِيطُ بْنُ مَالِكٍ. وَتَمَّ إِهْلَاكُ ذِي التَّاجِ بِصَمَّارٍ مِنْ

١ - بَانِقِيَا: نَاحِيَةٌ مِنْ نَوَاحِي الْكُوفَةِ، إِسْمُهَا نَبْطِيٌّ يَحْتَضِرُ بَيْتَ الْغَنَمِ، جَاءَ ذِكْرُهَا فِي أَخْبَارِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ، ذَكَرَهَا الْأَعْشَى فِي شِعْرِهِ، فَتَحَهَا خَالِدٌ صَاحِبًا مَعَ بَصْبَهْرِيِّ بْنِ صُلُوبَا بَعْدَ مَعْرَكَةٍ قَاوَمَهُ فِيهَا فَرَخْبِنْدَاذٌ.

٢ - كَسْكَرٌ: أَلْقَمَ مَدِينَةً مَسِيحِيَّةً بِالْعِرَاقِ، لَعِبَتْ دَوْرًا هَامًّا فِي الْعَهْدِ السَّاسَانِيِّ، سَوَّفَ يَشَدُّ الْحِجَاجَ مَدِينَةً وَاسِكًا بَيْنَ الْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ عَلَى شَاطِئِ دِجْلَةِ الْمَقَابِلِ لَهَا، دَعَتْهَا الْمَصَادِرُ السَّرِيانِيَّةُ كَشْكَرَ، أُنْجِبَتْ رَهْبَانًا وَرُؤَسَاءَ أَدِيرَةٍ عَظِيمًا أَمْثَالَ إِبْرَاهِيمَ الْكَبِيرِ الْمُتَوَفَّى ٥٨٨ وَيَشُوعَ دَنْحَ وَغَيْرَهُمَا، قُضِيَ عَلَيْهَا أَرْدَشِيرُ الْأَوَّلِ.

٣ - الْحِيرَةُ: قَاعَةُ الْمُلُوكِ لِلخَمِيْنِ بَيْنَ النَّجَفِ وَالْكُوفَةِ بِالْعِرَاقِ، كَانَ أَهْلُهَا مِنَ الْمَسِيحِيِّينَ لِلنَّسَاطِرَةِ وَمِنْهُمْ الشَّاعِرُ عَدِي بْنُ زَيْدٍ، أَلْقَمَتْ هُنْدُ أُمَ الْمَلِكِ عَمْرُو بَعْدَ مَنَةِ ٥٥٠ دِيرًا فِي الْمَدِينَةِ بَعْدَ أَنْ تَنَصَّرَتْ الْعَائِلَةُ الْمَلَكَةُ، فَتَحَهَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ ٦٣٣، أَخَذَتْ بِالْإِتْحَاطِ تَدْرِيجًا.

٤ - الْخُورْنُقُ: مَوْضِعٌ فِي الْعِرَاقِ قَرِيبَ النَّجَفِ، مَكَّنَهُ بَنُو لَيْلَادٍ، عَمَّرَ فِيهِ النُّعْمَانُ اللَّخْمِيُّ قَصْرًا سَوَّفَ يُوسِّعُهُ الْعَبَّاسِيُّونَ وَسَيُخْرَبُ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ، أَشَدُّ بَذْكُرِهِ شِعْرَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ.

٥ - الْعَلَاءُ بْنُ الْخَضْرَمِيِّ (ت ٨٢١/ ٦٤٢م): صَحَابِيُّ مِنْ رِجَالِ الْفَتْوحِ، وَلَّاهُ النَّبِيُّ ﷺ الْبَحْرَيْنِ، وَبَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ أَلْفَرَّهَ أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عَمَرَ، غَزَا شَوَاطِئَ فَارَسَ.

٦ - حَزِيفَةُ بْنُ مُحَصَّنٍ أَوْ بِنُ الْيَمَانِ (ت ٨٣٦/ ٦٥٦م): صَحَابِيُّ مِنَ الْوَلَاةِ الْفَاتِحِينَ، وَلَّاهُ عَمْرُ عَلَى الْمَدَائِنِ فَتَنَلَّبَ عَلَى الْفَرَسِ فِي نَهْلَوْنَدَ ٦٤٢ وَغَزَا هَمْذَانَ وَالرَّيَّ، تَوَفَّى بِالْمَدَائِنِ.



أرض عُمان، وسبى المسلمون ذراري بني ناجية وعبد القيس، الذين كانوا قد ارتدوا مع ذي التاج.

بعد تخلصه من المتنبئين الكاذبين ومن المرتدين، قرّر أبو بكر الانقضاء على من امتنعوا عن دفع الزكاة. فكتب إلى خالد بن الوليد كي يتوجّه لإخضاع مالك بن نويرة اليربوعي<sup>١</sup>. وسرعان ما نفذ خالد المهمة، إذ قصد مالكا وضرب عنقه وتزوج امرأته. كما كان قد تزوج ابنة مسيلمة الكاذب، يوم تغلب عليه.

هنا، تبرز عقيدة السنة المستقيمة تبعاً لتعاليم الرسول ﷺ، إذ لمّا بلغ الخليفة أن خالدًا قد قتل مالكا، وهو مسلم، وتزوج امرأته، أرسل أبو بكر إلى خالد يؤنبه، فاعتذر خالد بقوله: يا خليفة رسول الله ﷺ، إنني تأولت، وأصبت، وأخطأت.

لم يمنع هذا أبا بكر عن متابعة مقاتلة رافضي دفع الزكاة، فكتب إلى زياد بن لبيد البياضي يأمره بقتال من ارتدّ ومنّ امتنع عن الزكاة في اليمن، فقاتلهم. وكان لكندة<sup>٢</sup> ملوك عدّة متمردون، فأغار زياد عليهم ليلاً، وقهرهم. بيد أنّ تمرداً جديداً قد ظهر من قبل الأشعث بن قيس<sup>٣</sup>، الذي انتزع سبايا المعركة من جند زياد؛ فلما انتهى الأمر إلى أبي بكر، عدّ الأشعث من المرتدين، فوجّه عكرمة بن أبي جهل في جيش لمحاربته، وتمكّن القائدان: عكرمة وزياد، من الأشعث، وقتلا من جماعته عدداً كبيراً

---

١ - مالك بن نويرة اليربوعي (ت ١٢٤هـ / ٦٣٤م): شاعر من فرسان الجاهلية، أدرك الإسلام وأسلم ثمّ امتنع عن دفع الزكاة في أيام أبي بكر، بعدما قتله خالد بن الوليد أقام أخوه متمّ يرثيه السنين الطوال.

٢ - كندة: قبيلة شهيرة من عرب اليمن، بطن من جذام المنتسبة إلى كهلان بن سبأ، حكموا حضرموت، نزحوا إلى الحجاز ونجد فسادوا بعض القبائل فيهما، غرّوا بنصرانيّهم في الجاهلية وظلّ بعضهم عليها حتّى أوائل العصر العبّاسي، رحل قسم منهم إلى مصر مع عمرو بن العاص، منهم كان الحارث ملك الحيرة وحجر والد امرئ القيس والمقنّع والمتنبّي، إليهم ينسب الكندي الفيلسوف.

٣ - الأشعث بن قيس الكندي (ت ٦٦١): من أمراء كندة، وقد على للنبي ﷺ مع جماعة من قومه ليطنوا إسلامهم ٦٣١، شهد اليرموك والقيصرية ونهاوند وصفين، توفي في الكوفة.

وغنما مغانم كثيرة، وأحضرا الأشعث موثقاً إلى أبي بكر، ذلك الخليفة الطيّب الذي حنّ قلبه على الأسير، فأطلق سبيله وزوجه أخته، أم فروة<sup>١</sup>.

وفي عمر ولاية أبي بكر القصير، الذي لم يدم سوى أكثر من سنتين بقليل، تمكن جيش الإسلام، بعد إخضاع الجزيرة العربية، من بدء مواجهة الروم في بلاد الشام ونواحيها.

إلا أنّ أبا بكر، بالرغم من سلامة طويته التي جعلت لقب "الصديق" يُضاف إلى اسمه<sup>٢</sup>، حرص على ألاّ يُشرك في الجهاد ضدّ الروم وفي فتح البلدان بعد حروب الردّة أيّاً من أهل الردّة، رغم عودتهم إلى السنّة وخضوعهم للخليفة. وقد بقي أبو بكر حذراً ودقيقاً في تقبل المرتدين واندماجهم في المجتمع الإسلاميّ. ويحدّثنا الشعبي<sup>٣</sup> عن أنّ أبا بكر "كان لا يستعين في حربهِ بأحد من أهل الردّة حتّى مات"<sup>٤</sup>. حتّى إنّ الخليفة الأوّل قد جعل ذلك جزءاً من سياسته الداخليّة ونظام حكمه. فكتب إلى عمّاله: "لا تستعينوا بمرتدّ في جهاد عدو"<sup>٥</sup>. وكتب إلى خالد بن الوليد وعياض بن غنم<sup>٦</sup>: "ولا

---

١ - راجع: يعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٣٠ - ١٣٢.

٢ - حتّى، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ٢: ٢٨.

٣ - عامر بن شريحيل الشعبي (ت ١٠٣هـ / ٧٢١ م): نسبته إلى شعب، بطن من همدان. تابعي، محدّث، رواية، حافظ ثقة. وُلد ونشأ في الكوفة.

٤ - الطبري أبو جعفر محمّد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، طبعة لندن (١٨٧٩ - ١٨٨١) ١: ٢٤٥٧.

٥ - الطبري، مرجع سابق، ١: ٢٠١٤.

٦ - عياض بن غنم (ت ٢٠هـ / ٦٤١ م): قائد عربيّ من شجعان الصحابة وغزاتهم، أسلم قبل الحديبية وشهد بدرًا وأحداً والخندق، فتح بلاد الجزيرة لِيُلم عمر لِعِته عملاً على حمص وقنسرين، غزا بلاد الروم.

يغزونَ معكم أحد ارتدَّ حتَّى أرى رأيي"<sup>١</sup>. ولم يستطع "المثنى"<sup>٢</sup> أن يثني أبا بكر عن رأيه، عندما استأذنه في الاستعانة بمن قد ظهرت توبته وندمه من أهل الردّة ممّن يستطعمه الغزو، فظَلَّ الصديق على خطّته التي انتهجها "فلا يشهد الأيام مرتدّ"<sup>٣</sup>. ولن يبدأ هذا النهج الحذر من المرتدين بالزوال قبل عهد الخليفة الثاني: عمر<sup>٤</sup>.

وقبل أن تدرّك المنية خليفة المسلمين الأول، وهو في الثالثة والستين من عمره، في العشرين من جمادي الآخرة، قبل نهاية العام الثالث عشر للهجرة بليّلتين<sup>٥</sup> (آب - أغسطس ٦٣٤)، وقيل إنّ اليهود كانوا قد سمّوا له في الطعام قبل سنة من وفاته ممّا جعله يعلّ طويلاً<sup>٦</sup>، كان أبو بكر قد أنفذ جيوش المسلمين إلى سورية وجوارها لمحاربة الروم وإخضاعهم، بقيادة كلّ من يزيد بن أبي سفيان<sup>٧</sup>، وأبي عبيدة بن الجراح<sup>٨</sup>،

١ - الطبري، مرجع سابق، ١: ٢٠٢١.

٢ - المثنى بن حارثة الشيباني (ت ١٣٥هـ / ٦٣٥م): من مشاهير القادة في عهد الخليفة أبي بكر، تعاون مع خالد بن الوليد في فتوح عذّة واستشهد في إحدى المعارك.

٣ - الطبري، مرجع سابق، ١: ٢١٢٠ - ٢١٢١.

٤ - راجع: فيصل د. شكري، المجتمعات الإسلامية في القرن الأول، منشورات دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة (بيروت، ١٩٨١) ص ٤٠ - ٤١.

٥ - اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٣٨.

٦ - المسعودي، مروج الذهب، ٣: ٤٣.

٧ - يزيد بن أبي سفيان (ت ١٩هـ / ٦٤٠م): لقبه أبو خالد، أخو معاوية لأبيه، أسلم يوم الفتح، سُمّي يزيد الخير لصلاحه، وجّهه أبو عبيدة للقيادة بفتح فلسطين، ولّاه عمر فلسطين، توفّي في طاعون عموّس بعد أن فتح قيصرية.

٨ - أبو عبيدة بن الجراح (ت ١٨هـ / ٦٣٩م): هو عامر بن عبدالله، صحابي قرشي فهريّ، أحد كبار قادة الفتوح، لقّبه رسول الله ﷺ بأمين الأمة، تولّى القيادة العامّة لجيوش فتوح الشام بعهد أبي بكر وعمر بعد خالد، كان داهية عادلاً مهيّناً، توفّي بطاعون عموّس ودفن بغور بيسان.

وشرحبيل بن حسنة<sup>١</sup>، وعمرو بن العاص<sup>٢</sup>، وخالد بن الوليد<sup>\*</sup>. كما أرسل جيوشًا أخرى بقيادة عثمان بن أبي العاص<sup>٣</sup>، والعلاء ابن الحضرمي<sup>٤</sup>، إلى تفرج ومكران والزراة ونواحيها من أرض البحرين.

وكان أبو بكر قد أقدم أيضًا على إنجاز كبير على سعيد آخر، رغم تردده في البداية، وخوفه من أن "يفعل ما لم يفعله رسول الله ﷺ". غير أنه في النهاية، وبعد إلحاح عمر، أقدم أبو بكر على جمع القرآن الكريم وكتابته في صحف، بعد أن كانت الآيات متفرقة في الجريد وسواها. فأمر خمسة وعشرين رجلاً من قريش، وخمسين من الأنصار، بكتابة القرآن، وعرضه على سعيد بن العاص<sup>٥</sup> "فإنه رجل فصيح".

وروى بعضهم أن عليًا بن أبي طالب رضي الله عنه كان قد جمع القرآن الكريم لما قبض الرسول ﷺ، وأتى به إليه يحمله على جمل، وقال: "هذا القرآن قد جمعته"<sup>٦</sup>.

---

١ - شرحبيل بن حسنة (ت ١٨٨هـ / ٦٣٩م): صحابي، أحد قواد الجيوش الإسلامية في عهد الفتوحات الأولى، عهد إليه الخليفة الأول أبو بكر مع يزيد بن أبي سفيان بالهجوم على مقاطعة البلقاء ببلطين فافتتحها ١٣هـ / ٦٣٤م.

٢ - عمرو بن العاص (ت ٤٣هـ / ٦٦٤م): قائد عربي شهير انتصر على البيزنطيين في أنجلدين فلسطين، فتح مصر وهزم الأعداء في عين شمس وباليون، احتل الإسكندرية ٦٤٢، حكم مصر، بنى مدينة القسطنطين، اشترك في التحكيم الذي عقّب صفين فرجح بدهانه كفة معاوية، توفي بالقاهرة.

٣ - عثمان بن أبي العاص (ت ٥١هـ / ٦٧١م): صحابي من أهل الطائف، أسلم في وفد تغيب، استعمله النبي ﷺ على الطائف، ولّاه عمر عمان والبحرين، له فتوح وغزوات بالهند وفارس، توفي بالبصرة.

٤ - العلاء ابن الحضرمي (ت ١٢هـ / ٦٤٢م): صحابي من رجال الفتوح، ولّاه النبي ﷺ البحرين، بعد وفاة النبي ﷺ أقره أبو بكر ثم عمر، غزا شواطئ فارس.

٥ - سعيد بن العاص (ت ٥٩هـ / ٦٧٩م): صحابي من الأمراء الولاة الفاتحين، ولّاه عثمان الكوفة ثم المدينة، ساعد الخليفة عثمان على جمع القرآن بعد أبي بكر، قاد جيوش المسلمين في طبرستان وجرجان، اعتزل الجمل وصفين، تولى المدينة في عهد معاوية حتى وفاته بالعقيق بقرى المدينة.

٦ - البيهقي، مرجع سابق، ٢: ١٣٥.

... وإذ كان أبو بكر الصديق ابن الثالثة والستين، بنحافة بدنه، وبياض محياه المعروق، وبعينيه الغائرتين، ولحيته المخضبة، كما دوماً، بالحناء... يقترب من أجله، عهد إلى عمر بن الخطاب كاتباً:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ إلى المؤمنين والمسلمين: سلام عليكم، فإنني أحمد إليكم الله، أما بعد، فإنني قد استعملت عليكم عمر بن الخطاب، فاسمعوا، واطيعوا، وإنني ما ألوّتكم نصحاء، والسلام<sup>١</sup>.

وكان آخر ما ذكره الخليفة الأول قبيل وفاته، ندمه على ثلاثة من أعماله، هي: تفتيشه لبيت فاطمة - وذكر في ذلك كلاماً كثيراً - وحرقة لأحدهم قصاصاً، وخصوصاً، ندمه لأنه قبل بالخلافة. وقال: "وددت لو أنني كنت قنفت الأمر في عنق أحد الرجلين<sup>٢</sup>، فكان أميراً... وكنت وزيراً". كما ودّ لو أنه كان سأل الرسول ﷺ في من يولّي الخلافة من بعد محمد ﷺ، فلا ينازع الأمر أهله<sup>٣</sup>.

وفي البيت الذي دفن فيه الرسول ﷺ، قُبر أبو بكر، بعد أن صلّى عليه خليفته: عمر.

---

١ - اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٣٧.

٢ - في المسعودي أنّ المقصودين به "أحد الرجلين" هما: سعد بن عباد، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما. وقد جاء هذا في الحاشية.

٣ - المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ٤٤٣؛ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٣٧.



## عُمر وأيامُه

عُمر: الخليفةُ الثاني؛ أعمالُ عُمر؛ أبو عُبَيْدة أم خالد؟  
تَقشُّفُ عُمر؛ فتوحات ما بعد دمشق؛ معركةُ اليرموك؛  
مقررات الجالية؛ فتحُ مصر؛ طاعونُ عمواس وعامُ الرمادة؛  
فتحُ بلاد فارس؛ إغتيالُ عُمر.





## عُمَرُ: الخليفة الثاني

لم يكن مفاجئاً، ولا غريباً، أن يعين أبو بكر الصديق، عُمر بن الخطاب، خلفاً له في الخلافة. فقد وقف عمر إلى جانب صديقه ورفيقه أبي بكر طوال مدة خلافته، وعمل معه مخلصاً وفيّاً مدة سنتين كمستشار له دون أن يُبدي تذمراً أو حسداً. ويقول لنا الرواة أنه كان يعمل قاضياً عند أبي بكر في أيام خلافته.

لقد كان أثر عمر، في حياة الإسلام الأولى، أبعد خطراً من كونه قاضياً. فهو الذي حاول أن يجمع القرآن الكريم، وأن يقضي على حروب الردّة، إذ يُعزى إليه الفضل في أنه كان أول مَنْ أوعزَ أنْ كلام الله يجب أن يُجمع وأن يدوّن في كتاب، لأنّ حفاظ القرآن كانوا يُستشهدون بكثرة في الحروب التي كانت قائمة آنذاك... وكان لعمر أثر بارز في مشوراته أيام النبي ﷺ... وكانت يد عمر سريعة في امتساقها السيف. فهو الذي، بعد موقعة بدر، اقترح قطع رؤوس الأسرى. وبعد ذلك عندما دخل النبي ﷺ مكة ظافراً أوصى عمر أن يُقتل أبو سفيان، زعيم قومه، ووالد معاوية الذي سيصبح خليفة في ما بعد. ومما يدلّ على المنزلة التي كانت لعمر عند النبي ﷺ، اللقب الذي جعله النبي ﷺ له: الفاروق، أي الذي يفرّق بين الحقّ والباطل. ومن أحاديث الرسول ﷺ قوله:

إنّ الله جعل الحقّ على لسان عمر، وقلبه.

وقوله ﷺ:

لو كان بعدي نبيّ لكان عمر بن الخطّاب<sup>١</sup>.

وإذا كان أبو بكر، وعليّ بن أبي طالب عليهما السلام، قد سبقا عمر في دخول الإسلام، فإنّ اعتناقه من قبل عمر، كان مميّزاً.

قبل ذلك، كان عمر من أشدّ أعداء الدعوة ومن الّدّ خصومها، وكانت معارضته للدين الجديد، صادرة عن تخوّفه من أن يحدث ذلك الدين انشقاقاً في قريش. فإنّ العصيّة القبليّة المحبّبة إلى نفس كلّ عربيّ، وهي التي باتت حديثاً تُعرف بالقوميّة، كانت أمراً خطير الشأن بالنسبة لعمر. وكان عمر يعمل كسفير لقبيلاته. ذلك أنّ قريشاً كانت إذا وقع نزاع في ما بينها، أو حرب مع غيرها من القبائل، تعهد إليه بالسفارة، وهي من أجلّ المناصب في الجاهليّة. فقد كان عمر يميّز بموهبتين تؤهّلانه لهذا المنصب: قدرته الخطابيّة، وقوّة ملامحه الجسديّة. وقد نمت فيه مواهبه في سوق عكاظ بالقرب من الطائف، حيث كانت تُقام سوق سنويّة يحضرها رجال القبائل ونساؤهم في الأشهر الحرّم، ومعهم من نتاج أنعامهم، وغلّال واحاتهم، وصنع أيديهم سلع وبضائع للمقايضة. وكان يفد معهم أهل الفكر: الشعراء والخطباء، وكان للرياضة الجسديّة يومها في عكاظ. فكانت هذه السوق السنويّة سوقاً تجمع بين التجارة والرياضة والأدب. فكان الشعراء يتبارون في إلقاء قصائدهم لنيل الجائزة، وكانت الجائزة كتابة قصيدة الفائز بماء الذهب، وتعليقها عند باب الكعبة، وفي ذلك أكبر مكافأة يفخر بها الشاعر. وفي أيّام شبابه، كان عمر يرتاد هذه الأسواق، وكان يميل إلى الشعر والخطابة، وينبغي أن يكون قد حفظ كثيراً ممّا سمعه... وكان قد نشأ على أفضل ما

---

١ - حتّى، صاغمو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٣٧ - ٣٨.

كان ينشأ عليه أبناء قریش من البراعة في الفروسية وحفظ الأخبار والشعر. ويقال إنه كان يبرز في عكاظ للمبارزة، وفي ذات مرة صرع إلى الأرض فارساً من فرسان البدو الصناديد. ويقال أيضاً إنه كان يستطيع أن يمتطي صهوة جواد وهو يجري وبدون عنان فيستوي على ظهره. وكانت نساء مكة تتغنى بهيبته وبفروسيته. وإذا انصرف عن هذه الأمور عاد إلى تجارته لأنه كان تاجراً، ونحن نعلم أن مكة كانت في ما مضى أشبه بجمهورية تجارية. ويُظن أن تجارة عمر كانت الشعير وغيره من أصناف الحبوب. وكان له مصالح في تجارة القوافل التي كان مركزها مكة... والتجارة تتطلب معرفة القراءة والكتابة. وكان عمر أول الذين كانوا يقرأون ويكتبون في قریش، وعددهم سبعة عشر نفرًا على ما ذكر البلاذري<sup>١</sup>... ويبدو أنه كان لعمر أربع زوجات أو خمس، قبل إسلامه، وكان مغرمًا بالخمر، وبالنساء.

كذا كان عمر، قبل اعتناقه الإسلام، يوم كان يصب جام غضبه على كل من اعتنق الإسلام، ومن بينهم جاريته، فكان يجلدها بالسوط، ويقسو في جلدها.

وفي ذات يوم من سنة ٦١٦، عندما كان النبي ﷺ مع رهط من صحبه محاصراً في حيّ ضيق، والناس يقاطعونه، هبّ عمر والسيوف في يده لمهاجمة الحيّ. فقال له حارس الباب: "ولم لا تبدأ بأختك وصهرك؟" - وكانا قد اعتنقا الإسلام - فكان لكلام الحارس وقع السيوف في نفسه. فارتدّ إلى بيت أخته، وعندما دخل رآها تخبئ شيئاً لم يستبته، ولكن ظنّ أنه كتاب له علاقة بالدين الجديد، فانهال عمر على شقيقته وعلى زوجها بالضرب، فقالت له، والدم يسيل من وجهها: "افعل ما تشاء، فالإسلام لن

---

أحمد بن يحيى البلاذري (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م): مؤرخ عربي ولد في بغداد ودرس فيها مع المدائني والزييري، اشتهر بالنقل عن الفارسية، أهم مصنفاته للتاريخية كتاب "فتوح البلدان" وكتاب "أنساب الأشراف"، اعترف له الجميع بصحة الرواية والنقاء.

يغادر قلوبنا". وبعد أن فاهت بهذه العبارة، سلّمته رقعة كُتِب عليها:

تزيلاً ممّن خلق الأرض والسموات العلّٰى، الرحمن على العرش استوى، له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى. وإن تجهر بالقول فإنّه يعلم السرّ وأخفى... إنني أنا الله لا إله إلا أنا، فاعبدني وأقم الصلوة لذكري<sup>١</sup>.

وكان هذا ما غير قلب عمر، فراح يسعى إلى باب بيت الرسول ﷺ، وسمع صوتاً من الداخل يقول:

أدخله. فإن كان قادمًا للسلام فسلامًا يلقي، وإن كان قادمًا للقتال فسيقتل بحدّ سيفه.

وكان السلام الذي سعى له عمر ووجده، نقطة تحوّل في حياته الغنيّة بالأحداث الجسام، وأسلم عمر<sup>٢</sup>.

ما أن اعتنق عمر الإسلام، حتّى اندفع إليه بالحماسة ذاتها، وبالشعور نفسه، اللذين أبداهما في عدائه له... فغداً بذلك أعظم شخصيّة عربية بعد النبي ﷺ. وكان عمر عند اعتناقه الإسلام في الأربعين من عمره. ويجب أن يكون قد بلغ الثالثة والخمسين عندما جاء يوم مبايعته الخلافة، في نهاية العام الثالث عشر للهجرة<sup>٣</sup>.

---

١ - راجع: حتّي، صاتموا للتاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٤٣؛ اليقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٣٩.

٢ - راجع: حتّي، صاتموا التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٤١ - ٤٢.

٣ - يذكر حتّي، في المرجع السابق، أنّ عمر، كان في الخامسة والأربعين عندما اعتنق الاسلام، (صفحة ٣٩) ولكنّه يموّد فيذكر أنّه كان في الرابعة والثلاثين (صفحة ٤٠). إلّا أنّنا نميل إلى الاعتقاد بأنّه كان في السادسة والثلاثين، لأنّ المؤرخين القدماء، يُجمعون على أنه لما قُتل، كان له من العمر ثلاث وستون، في العام ٢٣ هـ واعتنق الاسلام، قبل الهجرة بأربع سنوات.

## أَعْمَال

### عُمَر

يوم مبايعته الخلافة، صعد عمر بن الخطاب المنبر في المدينة، وجلس دون مجلس أبي بكر بمرقاة، وكان أبو بكر قبل ذلك، قد جلس دون مجلس الرسول ﷺ بمرقاة.

وفي أول خطبة له، حمد عمر الله، وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ، وذكر أبا بكر، وفضله، وترحم عليه، ثم قال:

يا أيها الناس، إنني قد وُلّيت عليكم، ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم، وأقواكم عليكم، وأشدكم استضلاعاً بما ينوب من مهم أموركم، ما تولّيت ذلك منكم.

وقال أيضاً:

ما أنا إلا رجل منكم، ولولا أنني كرهت أن أُرَدَّ أمر خليفة رسول الله ﷺ لما تقلدت أمركم.

فأثنى الناس عليه خيراً<sup>١</sup>.

كان أول ما قام به عمر بعد تولّيه الخلافة، أن ردّ سبايا أهل الردّة إلى عشائرتهم، وقال: "إنني كرهت أن يصير السبي سنة على العرب"<sup>٢</sup>.

حتى ذلك الوقت، كانت حالة المرتدين: جماعة معاقبة تكفر عن سيئاتها بلون من النبذ والحرمان.. أمّا وقد قوي أمر المسلمين، وامتدت قوتهم، وغابت في ضباب رقيق من الماضي زكريات الارتداد عنهم والانقضاء عليهم، إتجه عمر بالمرتدين وجهة

١ - راجع: حتي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٤٣؛ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٣٩.

٢ - اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٣٩.

جديدة. فلم يشأ الخليفة الثاني أن تظلّ هذه القوى معطّلة تفتنى في قلقها وتذوب في أساها، ولم يشأ أن يحرم المجتمع الإسلاميّ ثمرة هذا العقاب وما تركه في نفوس المرتّتين من اندفاع ورغبة في التكفير، فأذن أن يشاركوا في الحرب، ورضي لهم أن يكونوا في الجند، ثم مضى خطوة أخرى، فأذن لهم أن يولّوا بعض المراتب في الجيش، ولكنّه لا يُطعمهم، كما يقول الشعبي<sup>١</sup>، في الرياسة<sup>٢</sup>، وإنما يحدّ سلطاتهم بما دون المائة، ويكتب إلى سعد: "أن لا يولّي رؤساء أهل الردّة على مائة"<sup>٣</sup>. ويضطر سعد ليلة الهرير<sup>٤</sup>، تقيّدًا بسياسة الدولة نحو هذه الطبقة من الناس، أن يبعث بقيس بن المكشوح<sup>٥</sup>، وكان من أولئك الرؤساء الذين نهى عنهم أن يولّهم المائة، في سبعين رجلًا<sup>٦</sup> فحسب.

كان المرتّدون في عهد عمر، "ضمن هذا الحيز الضيق من المدى الإسلاميّ الواسع، في المشاركة الاجتماعية"، يعانون هذه الأزمة العميقة في نفوسهم، فراحوا يسعون لتعويض الخطيئة السابقة بالחסنات الكثيرة اللاحقة، ولذلك اندفعوا في الفتوح اندفاعًا مشرقًا وأقبلوا إقبالًا لا يعرف الهيبة.

١ - عامر بن شرحبيل القُشَيعي (ت ١٠٣هـ / ٧٢١م): نصّبته إلى شعب بطن من همدان، تابعي، محدث، راوية، حافظ ثقة، ولد ونشأ في الكوفة، اتصل بعبد الملك بن مروان وكان نديمه وسميره ورسوله إلى ملك الروم، أخذ عنه الإمام أبو حنيفة.

٢ - فيصل، المجتمعات الإسلامية، مرجع سابق، ص ٤٢، عن الطبري، ١: ٢٤٥٨.

٣ - الطبري، مرجع سابق، ١: ٢٣٢٧.

٤ - ليلة الهرير: من ليالي معركة القادسية كما سيأتي، وتسمّى أيضًا ليلة القادسية.

٥ - قيس بن المكشوح (ت ٣٧٧هـ / ٦٥٧م): هو ابن هبيرة الملقّب بالمكشوح، صحابي من الشجعان، شاعر وفارس، كان سيّد قبيلة في الجاهلية، شارك في الفتوحات في زمن عمر وعثمان، حضر صفين مع عليّ عليه السلام وقُتل في إحدى معاركها.

٦ - الطبري، مرجع سابق، ١: ٢٣٢٨.

وإذا كان المرتّون قد ظلّوا، في عهد عمر، على حدّ تعبير الشعبيّ "من حشوة الناس"<sup>١</sup>، فإنّهم قد أحرزوا تقدّمًا واسعًا في الاعتبار، قياسًا على ما كانوا عليه في عهد أبي بكر، ويعدّ هذا أحد إنجازات عمر.

في هذا الوقت، كانت جيوش الإسلام قد وصلت إلى الأراضي السوريّة، بناء على أمر أبي بكر، الذي لم يقدّر له أن يعيش ليفرح بإنجازاتها.

وعندما تسنّم عمر سدة الخلافة، كان خالد بن الوليد، بعد أن حقّق انتصارات هامّة للإسلام في محيط الفرات، حيث لم يُبدِ مسيحيّو الحيرة<sup>٢</sup> مقاومة تُذكر، وقبلوا بأن يدفعوا الجزية، وبأن تكون الحيرة منطلقًا للجيوش العربيّة في غزواتها إلى المناطق المجاورة لمناطق الفرس، قد تلقّى أمر الخليفة بأن يوقف زحفه ويرتدّ إلى سورية لمساندة الجيش العربيّ الذي كانت جيوش بيزنطية تشدّد عليه الخناق.

وإذ تضاربت الآراء حول أيّ من الخليفتين: أبي بكر، أم عمر، قد أمر خالدًا بهذا الانتقال، فالمهمّ أن أول انتصار حقّقه ابن الوليد هناك كان فتح دمشق، عاصمة البيزنطيين في سورية، يوم كانت مملكتهم السوريّة تمتدّ من طوروس إلى سيناء، وقد فتحت دمشق أبوابها للفاثحين العرب سنة ٦٣٥ بعد حصار دام ستّة أشهر.

وكما تعاونت القبائل العربيّة المسيحيّة في الحيرة مع الفتح الاسلاميّ العربيّ، كذلك فعلت في دمشق، وكان على رأس المتعاونين أسقف المدينة وصاحب الخزينة، وهو والد القديس يوحنا الدمشقيّ من مشاهير الكنيسة السريانيّة الشرقيّة. وقد استقبل أهل دمشق المسيحيّون الفاثحين العرب المسلمين "بالترحاب وبالتهاف، ذلك أن العرب

---

١ - الطبري، مرجع سابق، ١: ٢٤٥٨.

٢ - كانت الحيرة قاعدة الملوك للخميين بين النجف والكوفة في أرض العراق، وكان أهلها من المسيحيين النساطرة كما ذكرنا سابقًا.

كانوا أقرب لغة وعرقاً إليهم مما كان أسيادهم من البيزنطيين. فإنَّ السريانية والعربية لغتان متقاربتان وتتنسبان إلى عائلة لغوية واحدة، هي السامية<sup>١</sup>. وعلى بعد خمسين ميلاً جنوب دمشق، كانت قبائل غسان من العرب المنتصرة، قد أسست مملكةً عاصمتها: الجابية\*. وقد تعاونت هذه القبائل المسيحية مع المسلمين كما فعل أهل شيزر<sup>٢</sup>، على ضفاف العاصي بالقرب من حماة، وهم مسيحيون أيضاً، فاستقبلوا العرب بالغناء والأهازيج وضرب الطبول.

ذلك أنَّ الدين الجديد: الإسلام، قد بدا لنصارى سورية والعراق وكأنَّه فرقة دينية من فرق النصرانية<sup>٣</sup>. وبدا العرب وكأنَّهم المنقذ من نير الاستعمار الأجنبي.

أمام هذا الواقع، عقد الصلح بين خالد بن الوليد وأهل دمشق، بموجب كتاب أعطاه خالد إلى أهل المدينة، جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذ دخلها. أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم، ولا يسكن شيئاً من دورهم، لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله ﷺ والخلفاء والمؤمنين. لا يعرض لهم إلا بالخير إذا أعطوا الجزية<sup>٤</sup>.

ويمكن اعتبار هذا النص بمثابة مثال لغيره من عقود الصلح بين العرب والشعوب التي غلبوها.

---

١ - حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٤٥.

٢ - شيزر: أنقاض مدينة سورية على العاصي شمال حماة، فتحها أبو عبيدة ٦٣٨، تحصنت دون الصليبيين، مسقط رأس أسامة بن منقذ، قلعة كديمة.

٣ - حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٤٥.

٤ - البلاذري، فتوح البلدان (القاهرة، ١٩٣٢) ص ١٢٨.



نجد هنا بعض الخلاف بين المؤرخين حول حقيقة موقف ابن الوليد من موضع الصلح. فبينما يذكر بعضهم أن فتح دمشق قد تمَّ على يد خالد ابن الوليد على الشكل الذي ذكرنا، يذكر بعضهم الآخر أن بن الوليد كان يعارض أبا عبيدة في عقد الصلح، إذ لمَّا بلغه، بعد الحصار "أنَّ أبا عبيدة عزم على أن يصلح القوم، وأنَّ القوم قد وتقوا به للصلح، وكان موقع أبي عبيدة على باب الجابية، ألحَّ خالد على الباب الشرقي للمدينة ففتحه عنوة، فقال خالد لأبي عبيدة: "إسبهم. فإنِّي دخلتها عنوة". فقال أبو عبيدة: لا، قد أمنتهم".

ويروي الواقدي\* أنَّ خالد ابن الوليد صالحهم، وكتب للأسقف كتابًا للصلح، وأعطاهم الأمان، فأجاز أبو عبيدة ذلك<sup>١</sup>.

## أبو عبيدة أم خالد؟

وقبل تعداد الفتوحات هنا، لا بدَّ من الإشارة إلى تذبذب المدونات حول هذه الفتوحات وما يليها، بين ردَّ البطولة والقيادة فيها إلى أبي عبيدة، وبين ردَّ ذلك إلى خالد بن الوليد. وسبب هذا أنَّ الخليفة عمر بن الخطَّاب، كان "سيِّئ الرأي في خالد.. مع أنَّه ابن خاله". ويردَّ المدوِّنون أصل هذا الجفاء إلى "قول كان قاله خالد في عمر" لذلك، عندما استقرَّ الأمر للخليفة الجديد، كتب إلى أبي عبيدة يخبره أولاً، بوفاة أبي بكر، وبتوليَّه الخلافة الثانية، ثمَّ يعقد له ولاية الشَّام مكان خالد بن الوليد، ويصير خالدًا

---

١ - راجع، اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٤٠.

في موقع أبي عبيدة<sup>١</sup>. ويؤكد هذا المرجع، على أن خالد بن الوليد، كان قد فتح مرج الصفر من أرض دمشق، وحاصر مدينة دمشق، قبل وفاة أبي بكر بأربعة أيام. ويروي أن أبا عبيدة قد سرّ خبر أمر عمر عن خالد، حتّى ورد كتاب ثان عن عمر على أبي عبيدة، يأمره فيه بأن يتوجّه إلى حمص ونواحي الشام<sup>٢</sup>، فكان عليه أن يُعلم خالدًا بذلك، وهنا قال خالد بن الوليد: "رحم الله أبا بكر! لو كان حيًّا ما عزلني".

ويروي اليعقوبي أن الخليفة كتب إلى أبي عبيدة: "إن كذب نفسه (خالد) فيما كان قاله، عملّه، وإلاّ فانزع عماّمته وشاطره ماله... فشاور خالد أخته، فقالت: والله ما أراد (عمر) إلاّ أن تكذب نفسك، ثم ينزعك عن عملك، فلا تفعلن... فلم يكذب نفسه، فقام بلال فنزع عماّمته، وشاطره أبو عبيدة ماله حتّى نعلّه، فأفرد واحدة عن الأخرى<sup>٣</sup>".

وقد استخلص بعض الباحثين المحدثين، أن أسباب قيام عمر بإذلال خالد "سيف الإسلام" وبطل الفتوحات في سورية والعراق، بعد أن بلغ خالد علياء مجده، تعود إلى أن عمر "كان يضمر لخالد بعض السوء في عهد الخليفة أبي بكر"، وقد بلغ مسمع عمر أن خالدًا يعيش عيش البذخ والترف، ويغدق على أعوانه والمعجبين به من العطايا الشيء الكثير، فاستاء عمر وهو الخليفة الزاهد المتقشّف. وأخبر عمر أن شاعرًا مدح خالدًا بمناسبة انتصاراته العسكرية فنال منه جائزة قدرها عشرة آلاف درهم... ويقال إنه عندما سأل عمر خالدًا عن نفقاته وعن نصيب بيت مال المسلمين،

---

١ - راجع: اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٣٩.

٢ - المقصود بـ"الشام" عند المؤرخين القدماء، البلاد السورية، أما مدينة الشام، فكثروا يذكرونها "دمشق".

٣ - راجع اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٣٩ - ١٤٠.

أجابه جوابًا جافًا "لا يخرج عن القول: إن الأمر لا يعنيك". وكان نصيب بيت المال من الفيء الخمس<sup>١</sup>.

ويبدو أن خالدًا تنازل طوعًا عن مركزه في سورية وسلّم نفسه لأمير المؤمنين<sup>٢</sup> في المدينة، وأعاد إلى بيت المال مبلغ عشرين ألف درهم. عندها كتب عمر إلى الأمصار يقول:

"إنني لم أعزل خالدًا عن سخطه ولا خيانه، ولكنّ الناس فحّموه وفُتّوا به فخفت أن يوكّلوا إليه، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع<sup>٣</sup>....".

ويخلص البَحَّاتَة إلى اعتبار أن "هذا الكتاب الذي كتبه عمر إلى الأمصار يُفصح عمّا كان يضمّره من حسد". وإلى أنه "لا يمكن أن تلمع في فلك عمر شمسان"<sup>٤</sup>.

## تَقْشِفْ

## عُمَر

لنا رأي آخر في موقف الخليفة عمر من البذخ في الإسلام. فحواه أن مردّ إذلال عمر لخالد بن الوليد، يعود إلى اعتبارات دينيّة. فإنّ الرسول ﷺ، كان متواضعًا، وبعيدًا عن البذخ، وقد أمر أتباعه بذلك. وكان الخليفة الأول، أبو بكر، "يأخذ من بيت المال

١ - راجع: سورة الحشر، ٦ - ١٠.

٢ - يذكر المؤرّخون القدماء أن كثرة عمر الأساميّة، هي "أبو حفص" وإنّه "أول من سَمّي بأمير المؤمنين، سمّاه عدي بن حاتم وقيل غيره والله أعلم؛ وكان أول من سلّم عليه بها (أمير المؤمنين) المغيرة بن شعبه، ولول من دعا له بهذا الاسم على المنبر أبو موسى الأشعري. وأبو موسى أول من كتب إليه: لعبد الله عمر أمير المؤمنين من أبي موسى الأشعري. فلما قرأ ذلك عمر قال: إنني لعبد الله وإنني لممر وإنني لأمير المؤمنين والحمد لله ربّ العالمين" - المسعودي، مرجع سابق، ٣: ٤٨.

٣ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ (القاهرة ١٣٤٩ هـ) ٢: ٣٧٦.

٤ - حتّى، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٤٧ - ٤٨.

ثلاثة دراهم أجرة كل يوم"، وكان متقشفاً في حياته، بعيداً عن البذخ. وعمر نفسه، أصبح متقشفاً إلى أقصى الحدود، بعد أن اعتنق الإسلام، وزاد تقشفاً بعدما تسنم سدة الخلافة. وكان يوصي عمّاله، حيث عيّنهم، بالزهد والتقشف، ويعلّق على ذلك كبير أهمية. ومما يروى في هذا المجال، أنه "كان من عمّاله، سعيد بن عامر، فشكاه أهل حمص إليه"، وسألوه عزله، فقال عمر: "اللهم لا تفلّ فراستي فيه اليوم"، وقال لهم: "ماذا تشكون منه؟" قالوا: "لا يخرج إلينا حتّى يرتفع النهار ولا يجيب أحداً بليل، وله يوم في الشهر لا يخرج فيه إلينا". فقال عمر: "عليّ به"، فلمّا جاء جمع بينه وبينهم وقال: "ما تتقّمون منه؟". قالوا: "لا يخرج إلينا حتّى يرتفع النهار". قال: "ما تقول يا سعيد؟". قال: "يا أمير المؤمنين إنّ له ليس لأهلي خادم فأعجن عجيني ثمّ أجلس حتّى يختمر، ثمّ أخبز خبزي ثمّ أتوضأ وأخرج إليهم". قال: "ماذا تتقّمون منه؟". قالوا: "لا يجيب بليل". قال: "قد كنت أكره ذكر هذا، إنّني جعلت الليل كلّه لربّي وجعلت النهار لهم". قال: "وماذا تتقّمون منه؟". قالوا: "له يوم في الشهر لا يخرج إلينا فيه". قال: "نعم ليس لي خادم فأغسل ثوبي ثمّ أجفّفه فأمسي عنهم". فقال عمر: "الحمد لله الذي لم يفلّ فراستي فيك!... يا أهل حمص استوصوا بواليكم خيراً"؛ قال: ثمّ بعث إليه عمر بألف دينار وقال له: "استعن بها"، فقالت له امرأته: "أغنانا الله عن خدمتك". فقال لها: "ألا ندفعها إلى من يأتيها بها أحوج ممّا كنّا إليها؟". قالت: "بلى"، فصرّها صرراً ثمّ دفعها إلى من يثق به فقال: "إنطلق بهذه الصرة إلى فلان وبهذه إلى يتيم بني فلان وبهذه إلى مسكين بني فلان"، حتّى بقي منها شيء يسير، فدفعه إلى امرأته وقال: "أنفقي هذا"، ثمّ عاد إلى خدمته؛ فقالت له امرأته: "ألا نبعث بذلك المال فنشتري لنا منه خادماً؟". فقال: "سيأتيك أحوج ممّا تكونين إليه"<sup>١</sup>.

١ - المسعودي، مرجع سابق، ٣: ٤٨ - ٤٩.

أردنا من خلال نقل هذه الرواية أن نبين نهج عمر، في انتقاء عملائه. وليست هذه الحالة وحيدة من نوعها، لكن يبدو أن هذا النهج في حكم عمر، كان عامًا. فمن عماله على المدائن، "سلمان الفارسي"، وكان ناسكًا زاهدًا، فلما احتضر بالمدائن قال له سعد بن أبي وقاص: "أوصني يا أبا عبد الله". قال:

نعم، أذكر الله عند همك إذا هممت، وعند لسانك إذا حكمت، وعند يدك إذا أقسمت.

فجعل سلمان يبكي فقيل له: "يا أبا عبد الله ما يبكيك؟". قال: "سمعت رسول الله ﷺ يقول:

"إن في الآخرة عقبة لا يقطعها إلا المخفون وأرى هذه الأسود حولي". فنظروا فلم يروا في البيت إلا ركوة ودواة وقدرًا ومطهرة.

وإن أبا عبيدة ابن الجراح، الذي ولّاه عمر مكان خالد بن الوليد "كان يظهر للناس وعليه الصوف الجافي، فعُذِلَ على ذلك وقيل له: "إنك بالشأم والي أمير المؤمنين، وأمير الجيش وحوّلنا الأعداء؛ فغيّر من زيّك وأصلح من ألتك". فقال:

ما كنت بالذي أترك ما كنت عليه في عصر رسول الله ﷺ<sup>١</sup>.

أمام هذه الوقائع يصبح من الطبيعي ألا يرضى خليفة، هذه سياسته، بأن يتولّى دمشق رجل، يدفع عشرة آلاف درهم لشاعر يمدحه، ويبذخ، ويشوّه صورة الإسلام.

وقد تكون الصورة الأكثر تعبيرًا عن هذه الحقيقة، تلك التي تركها لنا الراهب "ثيوفانس" عن زيارة عمر بن الخطاب، أمير المؤمنين، وصاحب الجيوش الجرّارة

---

١ - المسعودي، مرجع سابق، ٣: ٤٩.

التي قهرت البيزنطيين، إلى بيت المقدس، وكان لزيارته وقع في نفوس مسيحيي المدينة لا يقل شأنًا عن وقعه في نفوس المسلمين. قال:

"دخل المدينة المقدسة، لابسًا ثوبًا رثًا من وبر الجمل، وعلى محياه دلائل التقوى والورع، ثم طلب إلى أعوانه أن يُروه هيكَل اليهود الذي بناه سليمان لكي يؤدي صلاته فيه<sup>١</sup>..."

أما الرواية التي دوتها المؤرخون عن حادثة جرت أثناء زيارة الخليفة عمر بيت المقدس، فتقول: عندما كان رئيس الأساقفة يطوف بالخليفة ليرى كنيسة القيامة حان وقت الصلاة، فقدم له الأسقف سجادة لكي يؤدي عليها صلاته. فأبى الخليفة أن يصلي في الكنيسة، خوفًا من أن يقوم أتباعه فيدعوا ملكية المكان الذي صلى فيه. وخرج إلى باحة الكنيسة وصلى. وعلى البقعة التي صلى عليها عمر بني مسجد يُعرف بمسجد عمر<sup>٢</sup>.

وعندما فتح المسلمون مصر بعهد عمر، وأرسل حاكمها وفدًا لمفاوضة لقادة الفتح، فلما عاد رجال وفده سألهم: "كيف رأيتم القوم؟" فأجابوا: "رأينا قوما الموت أحب إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحب إليه من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة، ولا مهمة، إنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، ما يُعرف ربيعهم من وضيعهم، ولا السيد فيهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد<sup>٣</sup>."

---

١ - راجع: حَتِّي، صلتحو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٥١.

٢ - حَتِّي، صلتحو التاريخ العربي، مرجع سابق، ٤٩.

٣ - ابن عبد الحكم، فتوح مصر، نشرة TORREY (نيوهافن، ١٩٢٢) ص ٦٥.

إنَّ ذلك الخليفة، الذي "ظَلَّ حَتَّى يومه الأخير رجلاً على غاية من البساطة والتَّقْتِير في عيشه، وظلَّ أميناً وفياً لرسالته"، قد لا يصحَّ أن نفهم من الكتاب الذي جاء فيه عن أسباب عزله لخالد: "...أنَّ الناس فخموه وفتتوا به، فخِفت أن يوكلوا إليه، فأحببت أن يعلموا أنَّ الله الصانع"... قد لا يصحَّ أن نفهم من هذا، أنَّ عمر كان يضرر حسداً من خالد! إذ قد يكون من الأجدر اعتبار خوف عمر "من أن يوكل الناس" إلى نهج خالد، في الحياة، فتضييع رسالة الإسلام عن غايتها.

## فتوحات

### ما بعد دمشق

بالعودة إلى الفتوحات التي جرت في عهد عمر، نجد أنه بعد فتح دمشق، وجّه أبو عبيدة عمرو بن العاص إلى الأردنّ، وفلسطين، ثمّ أنجده بشرحبيل بن حسنة، ففتح الأردنّ عنوة، ما خلا طبريّة التي صالح أهلها على أنصاف منازلهم وكنائسهم. ثمّ وجّه أبو عبيدة إلى بعلبك<sup>١</sup> وأرض البقاع خالد بن الوليد، حيث أنجز الفتح، ومن هناك توجه إلى حمص، حيث لحقه أبو عبيدة، وحاصرا بجيوشهما المدينة حصاراً شديداً حتّى طلب أهلها الصلح الذي تمّ مقابل خراج قيمته مائة وسبعون ألف دينار. ثمّ دخل المسلمون المدينة وبثّ أبو عبيدة عمّاله في نواحي حمص.

---

١ - في كتاب العهد الذي أعطاه أبو عبيدة بن الجراح لأهالي بعلبك جاء التالي: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب أمان لفلان بن فلان وأهل بعلبك رومها وقرسها وعربها على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ودورهم دخل المدينة وخارجها وعلى أرحلتهم. وللروم أن يرفعوا مرّحهم ما بينهم وبين خمسة عشر ميلاً ولا ينزلوا قرية عامرة، فإذا مضى شهر ربيع وجمادي الأولى ساروا إلى حيث شاوروا ومن أسلم منهم قلّه ما لنا وعليه ما علينا. ولتجارهم أن يسافروا إلى حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا عليها وعلى من أقام منهم الجزية والخراج. وشهد الله وكفى بالله شهيداً. - حتّى د. فيليب، لبنان في التاريخ منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر، نشر مؤسسة فرنكلين للمساهمة للطباعة والنشر (بيروت - نيويورك، ١٩٥٩) ص ٢٩٢؛ عن: البلاتري، فتوح البلدان، طبعة دي غويه (لندن، ١٨٦٦) ص ١٣٠.

غير أن جميع هذه الأعمال الحربية لا تقاس بما جرى في اليرموك.

## معركة اليرموك

جند البيزنطيون خمسين ألف مقاتل لصدّ المسلمين، الذين بعد مراجعتهم للخليفة، رابطوا عند سهل الواقوصة، حيث يلتقي أحد الروافد بنهر اليرموك<sup>١</sup>، وكان عدد جيش المسلمين ٢٥ ألف مقاتل، وكان جيش البيزنطيين خليطاً من مسيحيي الشام المتعربين، ومن الأرمن، ومن مرتزقة لا تكن جماعتها شيئاً من الولاء للقسطنطينية، بينما كان المسلمون مصمّمين على النصر بكلّ مقاتل من جنودهم...

هبت يومها عاصفة رملية عنيفة لم تزعج أبناء الصحراء، لأنهم كانوا يألفون مثل هذه العواصف. وبعد مناورات، تمكّن العرب من حشر أعدائهم في مثلث ضيق بين واديين، ووجوه الأعداء تواجه العاصفة، برملها الواخز كالإبر. ولم يكن لتراثيل الأساقفة الأثر الذي كان لتكبير العرب: "الله أكبر"! ومنّ نجا من الجيش البيزنطي من حدّ السيف، إنتهى به الهرب إلى قاع الوادي، ولم ينج منهم سوى القليل. فكانت معركة اليرموك حاسمة فاصلة بالنسبة لمستقبل سورية التي كان البيزنطيون يعتبرونها أفضل ولاياتهم، وأدرك هرقل<sup>٢</sup> الذي حشد أكبر قوة، وعلّق عليها الآمال الجسام، خطورة

---

١ - اليرموك: من روافد نهر الأردن، ينبع في هضبة حوران ويصبّ فيه نهر الزرقاء قرب جسر المجمع، يجري بين جبال عجلون والبلقاء.

٢ - هرقل أو هيركليوس الأول (HÉRACLÉUS) (إمبراطور بيزنطي ٦١٠ - ٦٤١): شهد عهده حروباً كثيرة وتطوّرات جذرية في الشرق، تنقّم الفرس واحتلّوا أنطاكية ٦١١، والقنس ٦١٤، ومصر ٦١٩، واقترب الأقاليم من القسطنطينية ٦١٧، مدّه البطريق سرجيوس بالمال فنظّم الجيش وردّ الأقاليم ثمّ حمل على الفرس فردّهم إلى ما وراء الفرات واحتلّ تبريز واستردّ خشية الصليب ٦٢٢ - ٦٣٠، عندها بدأ الفتح العربي فانكسرت جيوش هرقل وخسرت الإمبراطورية سورية وفلسطين وبلاد ما بين النهرين ومصر ٦٣٤ - ٦٤٢.



الهزيمة. وكانت آخر عبارة فاه بها وهو في طريقه إلى بلاده: "عليك يا سورية السلام، ونعم البلد هذا العدو"<sup>١</sup>.

ولم تمض أيام، حتى سقطت قنسرين، ومنبج، وحلب في سورية ووُضع عليها الخراج. وكان أبو عبيدة قد أمر بجمع غنائم اليرموك، وكتب إلى الخليفة مبشراً، فأمر الخليفة "بالأ يحدثوا شيئاً حتى يفتحوا بيت المقدس"<sup>٢</sup>.

وبعد حصار طويل، سقط بيت المقدس، وهو المعروف بـ "إيلياء"، الذي يُعتبر ثالث المقدسات الإسلامية بعد مكة والمدينة، فدعا إنداك عمر قواده للاجتماع به في الجابية، حيث كان مقر قيادة جيش "الشام"، ووصلها الخليفة (سنة ٦٣٨) راكباً جمللاً ولابساً ثياباً رثة يحيط به أعوانه وخواصه. ولم يكن في استقباله شيء يدل على عظمة القادم إليهم ورفعة مقامه، فلا أهازيج ولا قرع طبول؛ ثم قام بلال، مؤذن الرسول، يدعو إلى الصلاة، وكان بلال قد انقطع عن الأذان بعد وفاة النبي ﷺ. وأولبادرة بدرت عن عمر، شجبه قواده لقومهم راكبين الجياد ولابسين الثياب السورية المزركشة المطرزة!<sup>٣</sup>.

وفي الجابية، قال بلال، مؤذن الرسول: "يا أمير المؤمنين، إن أمراء أجناد الشام ما يأكلون إلا لحوم الطير والخبز النقي، وما يجد ذلك عامة الناس!"

فما كان من عمر إلا أن فرض على أمراء الشام الفاتحين أن يضمّنوا له القوت للمسلمين، بمعدل رغيفين لكل رجل، وحاجته من الزيت والخل، كما أمر بأن تُقسم

---

١ - حتي، صائغو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٤٧.

٢ - الليقوي، مرجع سابق، ٢: ١٤٢.

حتي، صائغو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٤٨.

الغنائم بين الناس بالسوية باستثناء قبيلتي لخم<sup>١</sup> وجذام<sup>٢</sup>، وقال:

لا أجعل من خرج من الشقة إلى عدوه كمن خرج من بيته.

ولم يأبه عمر لاعتراض أحدهم إذا قال:

إن كان الله جعل الهجرة إلينا فخرجنا من بيوتنا إلى عدونا نُحرم حظنا<sup>٣</sup>؟

## مقرّرات

### الجابية

رغم أن المدونات القديمة لم تأت على ذكر ما اتخذ من مقرّرات في اجتماع الجابية، فإنّ الظاهر يدلّ على أنّ الخليفة المسلم، قد أبقى على التنظيم الإداري الذي كان معمولاً به من قبل البيزنطيين، إضافة إلى وضعه ما يشبه نظام الضرائب، من خلال ما فرض على قادته من أتوى. وفرض الخليفة عمر على من ولاهم أن يفتحوا السجّلات للأموال التي تدخل بيت المال، لتوزّع على المسلمين بحسب قرابتهم من آل البيت، وبحسب أسبقيّتهم إلى الإسلام<sup>٤</sup>.

---

١ - بنو لخم أو اللخميّون أو المناذرة: من قبائل العرب، أصلها من اليمن، أخت جذام وعاملة، رحل بعضهم إلى شمالي جزيرة العرب وسورية وفلسطين والعراق، أمسوا الدولة للخميّة في الحيرة التي عاشت في حروب متواصلة مع الضامسة، اعتنقوا المسيحيّة وتحالفوا مع البلاط الفارسيّ وعملوا على صيانة الحدود، ثلاثت دولتهم بعد وفاة النعمان الثالث ٦٠٢، انتقلوا إلى الإسلام بعد الفتح العربيّ، اشتركوا في اليرموك وصفين وحملة يزيد بن معاوية على الحجاز.

٢ - جذام بن عدّي: قبيلة عربيّة، بطن من كهلان، منهم عاملة ولخم وكندة، كانوا مسيحيّين قطنوا الصحاري بين الحجاز وسورية ومصر وناصروا المسلمين بعد معركة اليرموك.

٣ - راجع اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٤٧.

٤ - راجع: حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٤٩.

وعندما كان الخليفة عمر في سورية، زار بيت المقدس (إيلياء) إذ كان أبو عبيدة قد كتب إليه، يُعلمه بأن أهل إيلياء الذين طال صبرهم (على الحصار) يطالبون بأن يكون الخليفة المصالح لهم...

وعندما قدم الخليفة عمر إلى بيت المقدس، ولم يكن مضى على هجرة الرسول ﷺ أكثر من ستة عشر عامًا، فتح المدينة المقدسة صلحًا، وكتب لأهلها كتابًا، وقد اختلف المؤرخون في ما إذا كان هذا الصلح قد جرى مع اليهود أو مع النصارى، إلا أن المتفق عليه عمومًا هو أنه قد جرى مع النصارى، وقد جاء في كتاب العهد:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب كتبه عمر بن الخطاب لأهل بيت المقدس. إنكم آمنون على دمائكم وأموالكم، وكنائسكم لا تُسكن ولا تُخرب، إلا إن تحدثوا حدثًا عامًا.

## فَتْح

### مِصْر

وقبل أن يعود إلى المدينة، أذن الخليفة عمر لعمر بن العاص بأن يسير إلى مصر، بعد أن استأذنه هذا الأخير بقوله:

إنا إن فتحناها كانت قوة للمسلمين، وهي من أكثر الأرض أموالاً ومن أعجزها عن القتال.

سقطت المدن المصريّة بيد المسلمين الواحدة تلو الأخرى، وكان سقوط العاصمة: الإسكندريّة، في أيلول (سبتمبر) ٦٤٢، وفي ذلك نصّ محفوظ للرسالة القصيرة التي أرسلها عمرو إلى الخليفة وجاء فيها:

... أما بعد، فإنني فتحت مدينة لا أصف فيها، غير أنني أصبت فيها أربعة آلاف حمام، وأربعين ألف يهودي، عليهم الجزية، وأربعمئة ملهى للملوك<sup>١</sup>.

وكانت شروط الصلح الذي عُقد بين المسلمين ومصر المسيحية يومها، مثل شروط الصلح التي فُرضت على بلاد الشام. وحافظ العرب على شؤون التنظيم القديم المتبع في مصر. وأبقوا الموظفين الأقباط في مراكزهم الإدارية، وفرضوا الجزية<sup>٢</sup>. وليس من إثبات على صحة الرواية التي تقول بأن عمر بن الخطاب قد أمر بحرق مكتبة الإسكندرية، وكان أول من ذكر هذه الرواية عبد اللطيف البغدادي<sup>٣</sup> بعد ستة قرون من تاريخ فتح مصر. والثابت، أن مصر غدت أهراء للجزيرة العربية كما كانت من قبل أهراء لروما، وقد حكمها عمرو بن العاص، جاعلاً عاصمته القسطنطاس<sup>٤</sup>.

## طَاعُونِ عَمَاس

### وعام الرمادة

في هذه الأثناء، كان الطاعون قد كثر في أرض الشام، بعد أن كان معظم المدن الفلسطينية قد سقط بيد المسلمين، وقد عُرِف طاعون سنة ٦٣٩ بطاعون عماس، نسبة

---

١ - ابن عبد الحكم، فتوح مصر، مرجع سابق، ص ٨٢.

٢ - حَتَّى، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٥٢.

٣ - عبد اللطيف البغدادي (ت ٦٢٩هـ / ١٢٣١م): معروف بابن اللباد، اشتهر بعلم الكلام والفلسفة والطب، ولد وتوفي في بغداد، تنقل بين العراق وسوريا ومصر وأقام عشرة أعوام بالقاهرة في بلاط صلاح الدين الأيوبي، من تصانيفه الكثيرة "الإفادة والاعتبار بما في مصر من الآثار"، و"الجامع الكبير".

٤ - القسطنطين: أول مدينة أسسها العرب بالقرب من بابلين على الضفة الشرقية للنيل، بناها عمرو بن العاص نحو ٦٤٣ وأقام فيها مسجداً، هجرها الجاسيون ثم الطولونيون دون أن تتلاشى أهميتها، كانت في العهد الفاطمي من مدن الإسلام الزاهرة، اشتهرت في القرن الثالث عشر بمعامل النحل والورق والزجاج، نقلت بقلها لبناء القاهرة بعد أن قضى عليها الوباء والمجاعات، علقت إليها الحياة في عهد صلاح الدين الأيوبي وأصبح مسجدها مركزاً هاماً للدراسات الدينية حتى طاعون ١٣٤٨ فبدأت بالتدهور.

إلى قرية عمواس القريبة من القدس، والتي اشتهرت بظهور المسيح فيها لاثنتين من تلاميذه. وقد قضى أكثر من ٢٥ ألف نسمة بهذا الطاعون، منهم أبو عبيدة ابن الجراح نفسه، الذي أصبح قبره هناك مزاراً يترك به الناس.

وتقول الروايات بأن الخليفة كان عازماً على التوجّه إلى القدس عندما جاءه خبر طاعون عمواس، فكتب إلى أبي عبيدة يأذن له بالعودة إلى المدينة، فكان ردّ أبي عبيدة: "أفراراً من قدر الله؟" فأجاب عمر: "نعم نفرّ من قدر الله إلى قدر الله!"<sup>١</sup>

وقد نُوّنت هذه الرواية تبعاً لاعتبارات متناقضة، ومنها ما يذكر أنّ الخليفة عمر، كان قد خرج في تلك السنة، قاصداً الشام، ولماً بلغ سرغ<sup>٢</sup>، بلغه أنّ الطاعون قد كثر، فرجع فلقية أمراء الشام وكلمه أبو عبيدة ابن الجراح "أشدّ كلام" وقال: "أفرار من قدر الله تعالى؟" فقال عمر: "نعم أفرّ من قدر الله إلى قدر الله"<sup>٣</sup>.

وكان في العام نفسه، قد أصاب أهل الجزيرة جرب وقحط ومجاعة، كان ذلك في السنة الثامنة عشرة للهجرة، وقد عُرفت بعام الرمّادة، وقد أجرى عمر الأقوات في تلك السنة على عيالات قوم من المسلمين، وأمر أن تكون نفقات أولاد اللقط ورضاعهم من بيت المال.

في الوقت نفسه، كان قد بدأ إعمار الكوفة، حيث نزل المسلمون ومعهم من أصحاب الرسول ثمانون رجلاً، وراحوا يعمّرون المنازل ويشيّدون المباني، وقد تمكّن

---

١ - حتّي، صلتحو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٥٠.

٢ - مرغ: لعلها سرغايا من محافظة للشام.

٣ - اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٤٩. وقد تكون هذه الرواية أقرب إلى الواقع، لأنّها تحدد مكان الحديث الذي جرى بين عمر ولبي عبيدة. إذ لا يمكن أن يكونا قد تحدّثا من دون لقاء! وليس من ذكر في المنوكات لانتقال أبي عبيدة إلى الجزيرة في هذه الحقبة.

عِيَّاض بن غنم الفهري\* الذي وجَّه أبو عبيدة إلى الجزيرة، من فتح الرِّقَّة<sup>١</sup> وسروج<sup>٢</sup> والرها<sup>٣</sup> ونصيبين<sup>٤</sup> وسائر مدن الجزيرة، صلحًا، ووضعا للخراج.

## فَتْح بِلَادِ فَارَس

في مدونات فتح بلاد فارس، اضطراب. فمنهم مَنْ يجعله في العام الرابع عشر للهجرة، ومنهم مَنْ يجعله بعد ذلك بسنتين، وأحيانًا أربع. والثابت أَنَّ الخليفة كان قد أمر بغزو بلاد فارس، بحسب الواقدي\*، عندما قام الخليفة عمر في المسجد، فحمد الله وأثنى عليه، ثم دعا الناس إلى الجهاد وحضهم عليه وقال:

إِنكُمْ قَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي غَيْرِ دَارٍ مَقَامَ الْحِجَازِ، وَقَدْ وَعَدَكُمْ اللَّهُ فَتَحَ بِلَادَ كَسْرَى وَقَيْصَرَ، فَسِيرُوا إِلَى أَرْضِ فَارَس.

ولَّى الخليفة أبا عبيد بن مسعود الثقفي<sup>٥</sup> قيادة الحملة، على أَنْ لَا يَقْطَعَ أَمْرًا دُونَ مُسْلِمَةَ بْنِ أَسْلَمَ بْنِ حَرِيشٍ، وَسَلِيطَ بْنِ قَيْسٍ، مِنْ أَهْلِ بَدْر.

---

١ - الرِّقَّةُ أو الرُّشَيْد: مدينة سورية قاعدة محافظة، شيدَها الإسكندر المقدوني ودعاها اليونان "تيكرفوريون"، والرومان "كاليثيكس"، عندما انتصر قباد الأول الملك الفارسي على البيزنطيين، أقام فيها كسرى الأول قبيلة مضر المريية، بنى فيها المنصور مدينة جديدة ٧٧٢ ودعاها "الرققة"، جعلها هارون الرشيد بعد نكبة البرامكة عاصمته الصبغة ٨٠٣ وبنى فيها قصر السلام فُحِرت بمدينة الرشيد، دُمِّرَتْها غزوات المغول في القرن الثالث عشر.

٢ - سروج: مدينة في جنوب تركيا، فتحها العرب ٦٢٩، بقيت مدة تحت حكم الصليبيين.

٣ - الرُّها EDESSE أو أورفا URFA: مدينة بين النهرين في تركيا، اشتهرت بمدرستها اللاهوتية، من أساقفتها أفرام السرياني وربيولا.

٤ - نصيبين: مدينة في ما بين النهرين في تركيا اليوم، كانت منذ القرن الثالث مهد الآداب السريانية حتى سقوطها في أيدي الساسانيين ٣٦٥، ازدهرت فيها مدرسة نسطورية في أواخر القرن الخامس وحتى منتصف السادس، لمع منها الأسقفان نرساي ويريصوما.

٥ - أبو عبيد الثقفي (ت ١٣٤ هـ / ٦٣٤م): قُتِلَ من أبطال الفتوحات الإسلامية، قُتِلَ في وقعة الجسر.

عبر أبو عبيد الفرات بعد قهره لفرق صغيرة من الفرس ثم أمر ببناء جسر، ما أن  
عبر عليه جنوده حتى أمر بقطعه. فعدوا عملياً: العدو أمامهم والنهر خلفهم، ولا فارق،  
من هذه الناحية، بين النهر والبحر. ولم يابيه أبو عبيد لاعتراضات مسلمة، وسليط،  
الذي قال: "... إجعل ملجأ ومرجعاً من هزيمة إن كانت". فاتهم أبو عبيد معاونيه  
بالجبن، وأمر بالالتحام مع جيش الفرس، فكانت النتيجة مأساوية على المسلمين الذين  
لم يألّفوا مقاتلة الفيلة التي كانت فرسانهم تجفل منها، فقتل غرقاً في الفرات من  
المنهزمين أكثر ممّن قُتلوا بحد السيف. وقُتل أبو عبيد نفسه، وسليط. وراح نفر من  
المقاتلين المسلمين يحاول عقد الجسر، وأنقذوا بذلك بضعة آلاف من رجالهم، بعد أن  
فقدوا أربعة آلاف غرقاً وقتلاً.

شقّ على المسلمين مقتل أبي عبيد الثقفي، وشقّ على عمر مقتل قائده وأربعة  
آلاف من جنده. فخطب ثانية في الناس وحضّمهم على الجهاد وأمرهم بالتأهب لأرض  
العراق، وتهيباً عمر نفسه لقيادة الحملة، إلّا أنّ كبار القوم عارضوا خروج الخليفة  
للقّاتل، ومنهم عثمان بن عفّان الذي نصّح بإسناد قيادة الحملة، إلى عليّ بن أبي طالب  
عليه السلام، لكن عليّاً أبى ذلك وكرهه، فقرّر الرأي إذ ذاك على إرسال سعد بن أبي وقاص \*،  
فكتب إليه الخليفة يأمره بالتوجّه إلى العراق. وتوجّه في الوقت نفسه جرير ابن عبد  
الله البجليّ بعشرة آلاف مقاتل، وربص للفرس عند ضفة الفرات دون أن يعبر النهر،  
وإذ عبر الفرس باتجاهه، صرّعهم. ثمّ جاء المثني بن حارثة الشيبانيّ<sup>١</sup> على رأس قوّة  
ثانية، ورابط مع جرير، حيث في المعركة الثانية قتل مهران، قائد الجيش الفارسيّ.

---

١ - المثني بن حارثة الشيبانيّ (ت ١٣٥هـ / ٦٣٥م): من مشاهير القادة في عهدي الخليفتين أبي بكر وعمر، تعاون وخالد بن الوليد في  
فتح فارس فانتصر في حصين وأليس والبويب والأنبار، توفّي من جراح أصابته في إحدى المعارك.

إثر ذلك جندَ الفرس جيشًا جرّارًا للانتقام من المسلمين الذين تراجعوا إلى داخل العراق. وكان المثنّى قد أصيب، وبعد أيام توفي بأرض العراق.

وسرعان ما وصل سعد بن أبي وقاص وأتاه الرجال من محيط الشام وسواها، وأصبح جيش المسلمين بحدود الأربعين ألف رجل. بينما كان عدد الفرس المواجهين بحدود الستين ألفًا.

التقى الجيشان عند الغُذيب، وهو على فم البر، وطرف السواد، ممّا يلي القادسيّة<sup>١</sup>، وكان يقود الفرس رجل اسمه رستم.

في هذا اليوم من معركة القادسيّة قُتل خمسمائة رجل من بني سعد، ما عدا سائر الناس. وكان السعديّون قد حاولوا صرع الفيلة بقيادة طلحة بن خويلد الأسديّ، وقد عُرف هذا اليوم بيوم أغواث.

ما أن أطلّ فجر اليوم الثاني، والمعارك حامية، حتّى أشرفت على الميدان خيول المسلمين القادمة من الشام، وغبار حوافرها تحجب الشمس، وكان عليها هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، في خمسة آلاف فارس، من ربيعة، ومضر، وألف من اليمن، ومعهم القعقاع بن عمرو<sup>٢</sup>، وكان قد مرّ شهر واحد على فتح دمشق.

حينها، أيقن أهل القادسيّة بالنصر على فارس.

---

١ - القادسيّة: موقع في العراق غربي النجف حدث فيه المعركة الكبرى بين الجيشين العربيّ بقيادة سعد بن أبي وقاص والفارسيّ بقيادة رستم فانتصر فيها العرب وافتحت لهم أبواب الأباطوريّة الفارسيّة ٦٣٥.

٢ - القعقاع بن عمرو التميمي: (ت نحو ٤٠هـ / ٦٦٠م): قائد عربيّ شهد اليرموك واشترك في القادسيّة والمدائن وناوند، أقيم في الكوفة، قاتل في صفين مع عليّ بن الحسين.



وبرز القعقاع حين وصوله إلى المقدّمة، ونادى: "هل من مبارز؟"؛ فبرز إليه عظيم منهم، قال: "أنا بهمن بن جاذويه" وهو المعروف بذي الحاجب.

وإذ كان ذو الحاجب قائد جيش الفرس في يوم الجسر، يوم قُتل أبو عبيد وسليط وأربعة آلاف من المسلمين، نادى القعقاع: "يا للثأر". وسرعان ما صرع القعقاع ذا الحاجب. ورؤي أنّ القعقاع وحده قد قتل يومذاك ثلاثين رجلاً في ثلاثين حملة، وكان آخر من قتل عظيماً من الفرس، يُقال له بزرجمهر.

وكان أشهر من أبلى في هذه الحرب، أبو محجن الثقفي<sup>١</sup>، حتّى ظنّ بعضهم أنّه "الخضر"<sup>٢</sup> جاء لنجدتهم.

وفي مساء اليوم الثالث للقتال، كان سقط للمسلمين ألفان وخمسمائة ما بين قتيل وجريح، وكان ذاك، يوم أغماس. وقد سقط للفرس أضعاف هذا العدد. وأصبح الناس صبيحة ليلة الهرير<sup>\*</sup>، وتسمّى ليلة القادسيّة، والحرب ضروس، والموقف غير واضح النتائج، والكلّ بانتظار أعجوبة.

وحدث ما يشبه الأعجوبة، عندما هبّ ريح عاصفة قذفت بقائد الجيش الفارسيّ عن سريره، فسارع نحوه القعقاع ورفاقه وطاردوه حتّى قتلوه. وإذ صاح قاتل الفارسيّ رستم: "وربّ الكعبة قتلت رستم... حلّ الخوف بجنود فارس، الذين بدأوا الانهزام، فأخذتهم سيوف المسلمين، ومن لم يُقتل بالسيف، قضى غرقاً في الفرات<sup>٣</sup>."

---

١ - أبو محجن الثقفي (ت حوالي ٦٥٠): شاعر مخضرم وصحابي، أكثر ما قاله في الخمرات ومكارم الأخلاق ومظاهر البطش، كان فارماً شجاعاً أدرك الإسلام فأسلم وحارب في المغازي، إلّا أنّه لم يفلح في الإقلاع عن الإمان على الخمر فضربه عمر بن الخطّاب.

٢ - الخضر: هو إسم القنيس جرجس أو جاورجيوس عند المسلمين.

٣ - المسعودي، مرجع سابق ٣: ٥٠ - ٦٣.

بانتصار المسلمين في معركة القادسية<sup>١</sup>، أصبح جميع المناطق الواقعة إلى شرقي دجلة، تحت رحمة جيش المسلمين. وإذا كان الفرس يعتبرون دجلة خطاً دفاعياً حصيناً ضد أي هجمات على المدائن، أربع خبر عبور المسلمين له، وهو في فيضانه، القيادة الفارسية، فأسرع الأمبراطور وحاشيته وقواده بالهرب، مخلفين وراءهم الكنوز الثمينة التي تكدّست في إيوان كسرى\* عبر القرون.

وهكذا، وقعت أعظم مدينة في غربي آسية في يد المسلمين، وهي المدينة التي كانت وارثة نينوى وبابل ومنافسة القسطنطينية، واعتُبر دخولها أعظم يوم في تاريخ العربيّ العسكريّ، وهو اليوم الذي أذن المؤذن فيه من على شرفات إيوان كسرى<sup>٢</sup>.

أما ما غنمه العرب من ثروات، فقد بهر المحاربين، ويحق لهم أن يُبهروا، فالثروة كانت ثروة قصر كسرى.

وراحت المدن الفارسية تقع تباعاً بأيدي المسلمين. أمّا الأمبراطور الهارب، يزدجرد<sup>٣</sup>، فسوف يقتله أعوانه، بعد معركة نهاوند<sup>٤</sup>، الذين رأوا في هربه انهزاماً لبلاد فارس. وبذلك انتهى أمر تلك الأمبراطورية التي عمّرت ألفاً ومائتي عام.

---

١ - اختلف المؤرخون في تحديد زمن معركة القادسية، فالواقدي يذكرها في العام السادس عشر للهجرة (٦٣٧) وأبو بكر محمد بن اسحاق، صاحب السيرة النبوية، والمتوفى سنة ٧٦٨، يذكر أنها وقعت في السنة الخامسة عشرة للهجرة (٦٣٦). بينما علي بن محمد المدائني (٧٥٢ - ٨٣٩) للمؤرخ العربي الشهير، يذكر أنها حصلت في السنة الرابعة عشرة للهجرة (٦٣٥). إلا أن الأكثرية من المؤرخين، اعتمدت السنة السابعة عشرة للهجرة (٦٣٧) زمناً لمعركة القادسية. حتى، ذكرها في ربيع ٦٣٧.

٢ - حتى، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٥٥.

٣ - يزدجرد الثالث (٦١٧ - ٦٥١): حفيد كسرى الثاني، امبراطور إيراني ٦٣٢، حكم في حقبة فوضى، كان قد انتصر على العرب في معركة ٦٣٣ قبل أن يكسروه في معركة القادسية ونهاوند، قضى اغتيالاً.

٤ - نهاوند: مدينة في إيران جنوبي همدان، عندها كانت معركة حاسمة بين جيشي الفتح العربي بقيادة النعمان بن مقرن والفرس، سقط النعمان فيها قتيلاً فخلفه حنيفة بن اليمان وانتزع النصر للمسلمين ٦٤٢.

كان فتح بلاد فارس، سبباً مباشراً في مقتل الخليفة الثاني، أمير المؤمنين، قاهر البيزنطيين والفرس في أقلّ من عشر سنوات: عمر بن الخطّاب.

بعد فتح فارس، لم يسمح عمر لأحد من العجم بدخول المدينة، فكتب إليه المغيرة بن شعبة<sup>١</sup> يستأذنه بالسماح لغلّام "تجّار، نقّاش، حدّاد، فيه منافع لأهل البلد" لأن يدخل المدينة، فأذن له عمر.

هذا الغلام، واسمه أبو لؤلؤة، كان مجوسياً<sup>٢</sup> من أهل نهاوند، جاء يوماً إلى الخليفة شاكياً ثقل خراجِه. إلّا أنّ عمر، لم يجد أنّ خراجِه بكثير طالما هو يحسن كلّ تلك الأعمال، فمضى عنه وهو يتذمّر. ثمّ مرّ بعمر يوماً وهو قاعد، فقال له عمر: ألم أحدث عنك أنّك تقول: لو شئت أن أصنع رحي تطحن بالريح لفعلت؟ فقال أبو لؤلؤة: والله لأصنعنّ رحي يتحدثّ بها الناس!

ومضى أبو لؤلؤة...

إعتبر الخليفة ردّ الغلام الفارسيّ بأنّه تهديد، فتمتم بقوله:  
أمّا العبد فقد توعّدني آنفاً<sup>٣</sup>...

١ - المغيرة بن شعبة (ت ٥٠هـ / ٦٧٠م): نقّي، من دهاء العرب، صحابي، قاتل في وقعة اليمامة وفي فتوح الشام وفارس، ولّاه عمر البصرة والكوفة، عزل في عهد عثمان، ولّاه معاوية الكوفة، شدّد التّكليف بشيعة عليّ عليه السلام، كان مزواجاً مطلقاً.

٢ - هذا ما ذكره المسعودي، مرجع سابق، ٣: ٦٤؛ بينما يقول حتّي في "صانعو التاريخ العربي"، مرجع سابق، ص ٦١، بأنّ الغلام كان نصرانياً. ويلمّح سليمان مظهر، في قصّة الديانات، مرجع سابق، ص ٤٩١، إلى أنّه كان "أحد الموالى... منّ يعيشون بين العرب أنفسهم منّ دخلوا الإسلام من الفرس".

٣ - المسعودي، مرجع سابق، ٣: ٦٤ - ٦٥.

صحيح أنّ الخليفة قد شعر بنوع من التهديد في جواب الغلام، ولكنّ ردّة فعله، بما قاله، كانت شيئاً من الهزاء... فهو لم يدرك بالضبط خطر ما عناه الفتى!

ودخل الخليفة المسجد، ووقف عند القبلة... وبدأ الصلاة، وهو يقول: "الله أكبر". وفجأة، سمع المصلّون خلفه صرخة خفيفة وصوتاً يهتف محشرجاً: آه... قتلني الكلب...

وخرج المصلّون عن صلاتهم...

صرع الخليفة!

وكان عمر يخرّ صريعاً على الأرض، وهو يتمتم:

وكان أمر الله قدرًا مقدرًا.

وتلفت الناس حولهم، فإذا أبو لؤلؤة، العبد الفارسيّ، يحاول أن يفرّ، وفي يده خنجر.. لا يقترب منه أحد الآ طعنه. حتّى بلغ جملة من أصابهم، سبعة رجال<sup>١</sup>، وقالوا اثني عشر رجلاً<sup>٢</sup>. وأسرع وراءه عبد الرحمن بن عوف<sup>٣</sup> فألقى عليه برنسًا شلّ حركته، غير أنّ العبد الفارسيّ سارع إلى طعن نفسه. وقيل إنّ المصلّين هم الذين قطعوه إرباً<sup>٤</sup>.

---

١ - مظهر سليمان، قصة الديانات، مرجع سابق، ص ٤٩١.

٢ - المسعودي، مرجع سابق، ٣: ٦٥.

٣ - عبد الرحمن بن عوف (ت ٣٢٧هـ / ٦٥٢م): قرشيّ زهريّ، كان تاجراً واسع الثراء، من لكبير الصحابة، ثامن من أسلم في مكة، من العشرة المبشرة، هاجر إلى الحبشة ثم المدينة، روي عنه حديث كثير.

٤ - حتّي، صناعو التاريخ العربي، ص ٦١.

وهناك رواية أخرى تقول بأن عبيد الله، ابن عمر، هو الذي قتل أبا لؤلؤة وابنته وامراته، كما أنه قتل الهرمزان<sup>١</sup> في الوقت عينه.

وهكذا قضت طعنة من خنجر مسموم بيد غلام حقير، على مَنْ كان "يجمع في شخصه في آن واحد: الإسكندر، وأرسطو، والمسيح المنتظر، وسليمان الحكيم، وأنوشروان، والإمام أبا حنيفة، وإبراهيم أدهم الصوفي"<sup>٢</sup>... وهو الرجل الذي "يحتل المرتبة الثانية في قائمة عظماء التاريخ العربي بعد النبي محمد ﷺ، فقد كان مؤمناً، وقَف حياته في سبيل الإسلام، وقائداً يلتهب حماساً، ومقوضاً لإحدى أعظم الأمبراطوريات في العالم، ومؤسساً لمنصب الخلافة التي كانت قوة تربط العالم الإسلامي في مدى ثلاثة عشر قرناً"<sup>٣</sup>.

أما يوم وقوع هذا المصاب الجلل في تاريخ الإسلام، فكان "يوم الأربعاء لأربع ليال بقين من ذي الحجة سنة ٢٣"<sup>٤</sup> (تشرين الثاني - نوفمبر ٦٤٣ م.).

وكان عمر بن الخطاب، إضافة إلى كل مآثره، قد سنَّ قيام شهر رمضان، في السنة الرابعة عشرة للهجرة<sup>٥</sup> ٦٢١ م. وهو مَنْ كان إسلامه قبل الهجرة بأربع سنين<sup>٦</sup>، وقد "حجَّ جميع سني ولايته، ما عدا الأولى منها<sup>٧</sup> حيث حجَّ الناس

---

١ - الهرمزان: من أمراء الجيش الفارسي في معركة القادسية ٦٣٧، انهزم إلى خوزستان حيث قاوم العرب مقاومة عنيفة قبل أن يؤسر.

٢ - NJMANI SHIBLI, *UMAR THE GREAT*, TR. SALEM MUHAMMED (LAHORE, 1957) VOL: II, P. 351.

٣ - حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٦٢.

٤ - اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٥٩.

٥ - اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٤٠؛ المسعودي، مرجع سابق، ٣: ٦٤.

٦ - المسعودي، مرجع سابق، ٣: ٦٥.

٧ - المسعودي، مرجع سابق، ٣: ٤٧؛ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٥٩.

نيابة عنه عبد الرحمن بن عوف \* . وكان الغالب عليه: عبد الله بن عباس، وعثمان بن عفان<sup>١</sup> .

وهذا الأخير، هو الذي سيتولّى الخلافة الثالثة للمسلمين، وسط اضطراب للمدونات عن كيفية اختياره.

\*\*\*

خلف عمر بن الخطاب ستة ذكور هم: عبد الله، عبيد الله، عبد الرحمن، عاصم، زيد، وأبو عبيد الله. إضافة إلى حفصة زوجة الرسول، وفاطمة وبنات آخر<sup>٢</sup> . وله من أبنائه إلى اليوم ذرية.

---

١ - اليعقوبي، مرجع سابق، ٣: ٤٧.

٢ - المسعودي، مرجع سابق، ٣: ٤٦٥ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٦٠.

## عُثْمَانُ وَأَيَّامُهُ

تَوَلَّى عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ؛ النِّقْمَةُ عَلَى عُثْمَانَ؛

إِنْجَازَاتُ عُثْمَانَ؛

الثَّوْرَةُ عَلَى عُثْمَانَ.





# تَوَلَّى عَثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ

بينما يذكر مؤرخون، أنه "بعد أن قُتل الخليفة عمر، صَلَّى بالناس عبد الرحمن بن عوف\*، وصَلَّى على الخليفة الراحل صهيب الرومي<sup>١</sup>، وجعلها بعده شورى إلى ستة، وهم: عليّ عليه السلام، وعثمان، وطلحة\*، والزبير<sup>٢</sup>، وسعد بن أبي وقاص\*، وعبد الرحمن بن عوف\* . وكانت الشورى بعده بثلاثة أيام"<sup>٣</sup>، يذكر بعضهم الآخر أنه "لمّا طعن الخليفة عمر" قال لابنه:

إني كنت استسلفت من بيت مال المسلمين ثمانين ألفاً، فليردّ من مال ولدي، فإن لم يفِ مالهم، فمال آل الخطاب، فإن لم يفِ فمال بني عدي، وإلاّ قرّيش عامّة، ولا تعدوهم...

ولمّا حضرته الوفاة اجتمع إليه الناس فقال:

١ - صهيب بن سنان (ت ٣٨هـ / ٦٥٩م): صحابي، أحد السابقين في الإسلام، كان تاجراً في مكة ربح مالاً وفيراً، منعه مشركو قريش من الهجرة إلى المدينة بماله فتركه لهم كله وهاجر، شهد المشاهد كلها، ترقى بالمدينة.

٢ - الزبير بن العوّلم (ت ٣٦هـ / ٦٥٦م): قرشيّ أسديّ، ابن عمّة النبي ﷺ، اعتنق الإسلام بأول صباه، صحابي من العشرة المبشرة، حواري النبي ﷺ، هاجر إلى الحبشة ثم المدينة، قاتل في جميع الغزوات مع النبي ﷺ، من أهل للشورى بانتخاب الخليفة، لمسح من قتال عليّ عليه السلام في الجمل، اغتاله بن جرموز وهو يصلي.

٣ - المسعودي، مرجع سابق، ٣: ٤٧.

إني قد مصرت الأمصار، ودونت الدواوين، وأجريت العطايا، وغزوت في البر والبحر، فإن أهلك، فالله خليفتي عليكم، وسترون رأيكم. إني قد تركتكم على الواضحة، إنما أخاف عليكم أحد رجلين: إما رجلاً يرى أنه أحق بالملك من صاحبه فيقاتله، عليه<sup>١</sup>...؛ وإني قد قرأت في كتاب الله: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة. نكالا من الله، والله عليكم حكيم، فلا تهلکوا عن الرجم. وقد رجم رسول الله ﷺ ورجمنا، ولولا أن يقول الناس زاد عمر في كتاب الله لكتبتها بيدي، فقد قرأتها في كتاب الله...

وصير عمر الأمر شورى بين ستة نفر من أصحاب رسول الله: علي بن أبي طالب<sup>٢</sup>، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبد الله، وسعد بن أبي وقاص، وقال: "أخرجت سعيد بن زيد لقرابته مني، فقيل له في ابنه عبد الله بن عمر، قال: حسب آل الخطاب ما تحملوا منها! إن عبد الله لم يحسن يطلق امرأته. وأمر صهيبي أن يصلي بالناس حتى يتراضوا من الستة بواحد. واستعمل أبا طلحة زيد بن سهل الأنصاري، وقال: إن رضي أربعة وخالف اثنان، فاضرب عنق الاثنين. وإن رضي ثلاثة وخالف ثلاثة، فاضرب أعناق الثلاثة الذين ليس فيهم عبد الرحمن. وإن جازت الثلاثة أيام ولم يتراضوا بأحد، فاضرب أعناقهم جميعاً.. وكانت الشورى بقية ذي الحجة سنة ٢٣، وصهيب يصلي بالناس، وهو الذي صلى على عمر، وكان أبو طلحة يدخل رأسه اليهم ويقول: العجل العجل، فقد قرب الوقت، وانقضت المدة<sup>٣</sup>..."

غير أن المسعودي، يذكر في مكان آخر، أنه بعد أن طعن عمر، "دخل عليه ابنه عبد الله وهو يجود بنفسه، فقال له: يا أمير المؤمنين استخلف على أمة محمد ﷺ فإنه

١ - البخاري، مرجع سابق، ٢: ١٦٠ ومكان للنقل بياض في الأصل.

٢ - البخاري، مرجع سابق، ٢: ٦٥.

لو جاعك راعي إيلك أو غنمك وترك إيله أو غنمه لا راعي لها للّمته وقلت له: كيف تركت أمانتك ضائعة؟ فكيف يا أمير المؤمنين بأمة محمد ﷺ؟ فاستخلف عليهم! فقال (عمر):

إن استخلف عليهم فقد استخلف عليهم أبو بكر، وإن أتركهم فقد تركهم رسول الله ﷺ. فينس منه عبد الله حين سمع ذلك منه<sup>١</sup>.

على أيّ حال، فمن المتفق عليه، أنه قبل انقضاء ثلاثة أيام تمّ اختيار عثمان بن عفّان من بين السّنة الذين قاموا بالشورى ليتولّى الخلافة الثالثة للمسلمين، بعد عمر بن الخطّاب.

وبذلك، صارت مسيرة الإسلام على مشارف مفترقات خطيرة. وشيئاً فشيئاً، ستحوّل تلك الروح الرسوليّة الوثابة عن الخط الذي وضعه الرسول ﷺ، لتتّشعب في تقاطعات ومنعطفات قد يكون توقّع بعضها عمر، بنافذ بصيرته وثاقب رؤيته. ويتّضح ذلك في ما روي عن ابن عبّاس<sup>٢</sup> أنّه قال: "طرقتي عمر بن الخطّاب بعد هدأة من الليل، فقال: أخرج بنا نحرس نواحي المدينة! فخرج، وعلى عنقه درّعه، حافياً، حتّى أتى بقيع الغرقد، فاستلقى على ظهره، وجعل يضرب أخمص قدميه بيده وتأوّه صعداً. فقلت له: يا أمير المؤمنين ما أخرجك إلى هذا الأمر؟ قال: أمر الله يا ابن عبّاس!".

وإذ امتنع الخليفة عن الإفصاح عمّا يغمّه، أسمعته ابن العباس كلاماً فحواه أنّه يعتقد بأنّ ما يغمّ عمر، إنّما هو أمر الخلافة من بعده، فقال عمر: "صدقت!" فقال له ابن

١ - المسعودي، مرجع سابق، ٣: ٦٥.

٢ - عبد الله بن عباس (ت ٦٨هـ / ٦٨٧م) ابن عم النبي ﷺ، لقب "حبر الأمة"، حضر صفين مع عليّ رضي الله عنه، كان منيد الراي، روى الكثير من حديث الرسول ﷺ، حاول التوفيق بين عبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان، كفّ بصره في آخر عمره.

العبّاس: أين أنت من عبد الرحمن بن عوف؟ فقال الخليفة: ذاك رجل ممسك، وهذا الأمر لا يصلح إلاّ لمُعْطٍ في غير سرف ومانع في غير إقتار".

وفي تنمّة ما نُقل عن لسان ابن العبّاس:

"فقلت: سعد بن أبي وقّاص؟ قال: مؤمن ضعيف! فقلت: طلحة بن عبد الله؟ قال: ذاك رجل يناول للشرف والمديح، يعطي ماله حتّى يصل إلى مال غيره، وفيه بأو وكبر. فقلت: فالزبير بن العوام فهو فارس الإسلام؟ قال: ذاك يومٌ إنسان ويومٌ شيطان، وعقّة نفس، إن كان ليكادح على المكيلة من بكرة إلى الظهر حتّى يفوته الصلاة. فقلت: عثمان بن عفّان؟ قال: إن وُلّي حمّل ابن أبي معيط وبني أميّة على رقاب الناس، وأعطاهم مال الله، ولئن وُلّي ليفعلنّ والله، ولئن فعل لتسيرنّ العرب إليه حتّى تقتله في بيته. ثمّ سكّت... ثمّ قال: أمضها يا ابن عبّاس!".

أي أنّ عمر، قال لابن العبّاس، "أكمل! باستعراض الأسماء!" ثمّ ألمع عمر إلى عليّ بن ابي طالب بقوله: أترى صاحبكم (المقصود عليّ عليه السلام) لها موضعاً؟

ويكمل ابن العبّاس: "فقلت: وأين يتبعّد من ذلك مع فضله وسابقته وقرابته وعمله؟ قال: هو والله كما ذكرت ولو وُلّيهم تحمّلهم على منهج الطريق، فأخذ المحجّة الواضحة، إلّا أنّ فيه خصالاً: الدعابة في المجلس، واستبداد الرأي، والتبكيّت للناس مع حداثة السنّ...، ثمّ قال: والله يا ابن عبّاس إنّ عليّاً ابن عمّك لأحقّ الناس بها، ولكنّ قريشاً لا تحتمله، ولئن وُلّهم ليأخذنّهم بمرّ الحقّ لا يجدون عنده رخصة، ولئن فعل لينكّسنّ بيعته ثمّ ليحاربنّ!..."

يتضح من ذلك تمامًا، لمَ لمَ يعين عمر خليفة له، فهو ما أراد أن يتحمل وزر العاقبة، وهو غير مرتاح لأحد في توليها. وقد صدقت في ما بعد توقعات عمر، الذي كان آخر من دُفن في قبر الرسول ﷺ.

وإذا كان عمر بن الخطاب، قد فضّل أتباع خطى رسول الله ﷺ في أمر عدم تعيين الخليفة من بعده، ولم يتبع في ذلك خطى أبي بكر، الذي عيّن عمرَ بذاته، فذلك لقناعة منه بأنّ أحدًا لن يستطيع أن يسوس المسلمين كما يجب، وقد كثروا. ذلك على الأقل ممّن لا يصحّ تعيين أحد من سواهم، لاعتبارات شتى. وأمام هذا الوضع القلق، جعل عمر الستّة الأفضل، يختارون من بينهم واحدًا بخلال ثلاثة أيّام.

لسنا ندري إن كان عمر، بثاقب بصيرته، قد أدرك أنّ خيار هؤلاء لن يقع حكمًا على الأقوى. إنّما هذا الذي حصل فعلاً.

وقد كان الأقوى، من دون شك، ابن عمّ الرسول ﷺ، وصهره، ووالد حفيديه من ابنته فاطمة اللذين لا أحفاد للرسول ﷺ سواهما.

بالرغم من كلّ المؤهلات التي كان يتمتّع بها عليّ عليه السلام، فإنّ خيار الخمسة الآخرين، لم يقع عليه.

وما دُونِ عَمّا حصل في شأن ذلك الانتخاب، إذا صحّ التعبير، هو أنّ أحد أعضاء الشورى الستّة الذين سمّاهم الخليفة عمر حين وفاته، وأمر بأن ينتخبوا منهم خليفة بخلال ثلاثة أيّام، وهو عبد الرحمن بن عوف الزهري، في بداية الاجتماع، سأل زملاءه "أن يخرج نفسه منها على أن يختار منهم رجلاً، ففعلوا ذلك". أي أنّه اقترح ألا يكون مرشحًا للخلافة، على أن يفوضوا إليه أمر اختيار واحد من الخمسة الباقين، خليفة، فقبلوا.

"أقام عبد الرحمن ثلاثة أيام، وخلا بعليّ بن أبي طالب عليه السلام، فقال: لنا الله عليك، إن وليت هذا الأمر، أن تسير فينا بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ وسيرة أبي بكر وعمر؟ فقال عليّ عليه السلام: لكم أن أسير فيكم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ ما استطعت. فخلا بعثمان فقال له: لنا الله عليك، إن وليت هذا الأمر، أن تسير فينا بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ وسيرة أبي بكر وعمر؟ فقال: لكم أن أسير فيكم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ وسيرة أبي بكر وعمر. ثم خلا بعليّ عليه السلام، مرة ثانية، فقال له مثل مقالته الأولى، فأجابه مثل جوابه الأول. ثم خلا بعثمان، مرة ثانية، فقال له مثل المقالة الأولى. فأجابه مثل ما كان أجابه. ثم خلا بعليّ عليه السلام، مرة ثالثة، فقال له مثل المقالة الأولى، فقال عليّ عليه السلام: إن كتاب الله وسنة نبيه ﷺ لا يحتاج معهما إلى أجيري أحد<sup>١</sup>. أنت مجتهد أن تزوي هذا الأمر عني. فخلا، للمرة الثالثة، بعثمان، فأعاد عليه القول، فأجابه بذلك الجواب، وصفق على يده... وخرج عثمان، والناس يهتفونه<sup>٢</sup>..."

لا يمكن أن يكون عبد الرحمن بن عوف الزهري، قد استطاع أن يتمتع بسلطة تعيين الخليفة، على ما لهذا الشأن من أهميّة، من دون تفاهم مع سائر الأعضاء، باستثناء عليّ عليه السلام. إلا أن كلّ هذا، يبقى من التكهّنات، ولا يمكن لرأي أن يكون فاصلاً في هذا الأمر، على ما سوف يكون له من خطورة، بلغت حدّ انقسام الإسلام، واقتتاله.

عثمان، قرشي، هو الآخر، من عائلة أميّة، من تجار مكة الكبار، إعتنق الإسلام على يد أبي بكر. بينما كان عليّ عليه السلام، ثاني أو ثالث من اعتنق الإسلام، على يد الرسول ﷺ، وهو هاشمي، وابن أبي طالب، عم الرسول ﷺ الذي أوى محمداً ﷺ ورباه

١ - أجيري أحد: وكالة أحد: "إن كتاب الله وسنة نبيه لا يحتاج معهما إلى وكالة أحد".

٢ - البغوي، مرجع سابق، ٢: ١٦٢.

يوم كان يتيمًا. ولعليّ ﷺ، مآثر كبرى، وبطولات، وصولات وجولات، في معارك الرسول ﷺ الأولى، إبان بدر وسواها.

جامع آخر، يجمع عثمان إلى عليّ ﷺ، إضافة إلى قریش، والإسلام، هو أنهما، صهرا الرسول ﷺ. وفي ما عدا ذلك، فالرجلان على طرفي نقیض، وأبرز ما في ذلك: ضعف عثمان، وقوة عليّ ﷺ.

وتبدأ المشاكل، في اليوم الأول من ولاية عثمان، إذ ما خرج الخليفة الجديد من خلوة الشورى، وراح الناس يهتفون، وكان ذلك في مستهلّ محرّم سنة ٢٤ هـ. (تشرين الثاني - نوفمبر - ٦٤٣ م.) حتّى صعد عثمان المنبر، وجلس في أرقى درجاته في الموضع الذي كان يجلس فيه الرسول ﷺ، والذي جلس أبو بكر، الخليفة الأول، دونه بدرجة، احترامًا للرسول ﷺ، وجلس عمر، الخليفة الثاني، دونه بدرجتين، اعتبارًا للرسول ﷺ ولأبي بكر.

وكان ذلك أوّل ما نفّر الناس من عثمان، حتّى إنّ بعضهم قال: اليوم وُلد الشرّ. وأين وقفة عثمان المرتجف، المتلعثم في كلامه، على المنبر، من وقفة عمر التي تعودها الناس. وقد كان ذلك المديد الأصلع، الشديد الأدمة، ذا اللحية الكثّة المحنّاة، صاحب الصوت الجهوريّ، والكلمة الحديدية الثابتة. بينما عثمان، مربوع القامة، رقيق البشرة، عظيم الكرداس، كثير شعر الرأس واللحية، وأسنانه مشدودة بالذهب.

ارتجّ عثمان على المنبر، وبقي طويلاً لا يتكلّم، ثم قال: "إنّ أبا بكر وعمر كانا يُعدّان لهذا المقام مقالاً، وأنتم إلى إمام عادل أخرج منكم إلى إمام يشقّق الخطب، وإنّ تعيشوا فسيأتيكم الخطبة"¹... ثمّ نزل.

١ - اليسعوي، مرجع سابق، ٢: ١٦٣.

## النقمة

### على عثمان

طبيعي، أن تشعر النخبة بشيء من الخيبة، ومن سوء الظن في ما يمكن تفسيره قول عثمان من هزء بخطابة كل من أبي بكر وعمر، وبعثتهما.

ولم ينته الأمر عند هذا الحد، إذ خرج عثمان مساء إلى المسجد، لصلاة العشاء، بين يديه شمعة! فلقية المقداد بن عمرو<sup>١</sup>، وقال له: ما هذه البدعة؟!

واستشرت النقمة... ومال قوم مع علي بن أبي طالب عليه السلام، وراحوا ينتقدون عثمان ريتحاملون بالقول عليه". فجثى المقداد بن عمرو على ركبتيه داخل المسجد في المدينة وراح يتلهف وكأن الدنيا كانت له فسلبها، وهو يقول: واعجباً لقريش ودفعهم هذا لأمر على أهل بيت نبيهم صلى الله عليه وآله، وفيهم أول المؤمنين، وابن عم رسول الله أعلم الناس بأفقههم في دين الله وأعظمهم غناء في الإسلام، وأبصرهم بالطريق، وأهداهم صراط المستقيم، والله لقد زووها عن الهادي المهتدي الطاهر النقي، وما أرادوا صلاحاً للأمة ولا صواباً في المذهب، ولكنهم آثروا الدنيا على الآخرة، فبعداً وسحقاً قوم الظالمين"... وعندما سئل عمن يقصد بهذه الصفات الحميدة، قال: "إنه علي بن أبي طالب عليه السلام"<sup>٢</sup>.

هنا، حرّضه أحدهم "لأن يقوم بهذا الأمر"، أي يبدأ انتفاضة تهدف إلى تولية علي عليه السلام مكان عثمان، فقال: "إن هذا الأمر لا يجري فيه الرجل ولا الرجلان". ولكن

---

١ - المقداد بن الأسود (ت ٨٣٣هـ / ٦٥٣م): صحابي من الأبطال، نسب إلى الأسود بن عبد يغوث، أحد السبعة الذين كانوا أول من أظهر الإسلام، هاجر إلى الحبشة، قتل في بدر واحد، لقّب "حبّ الله وحبّ رسوله"، توفي بالمدينة.

٢ - البقوي، مرجع سابق، ٢: ١٦٣.



سرعان ما انضم إلى الرأي، أبو ذر<sup>١</sup>، ثم عبد الله بن مسعود<sup>٢</sup>، وسواهما.

وبينما كان القوم يتآلفون ضدَّ عثمان، برز آخرون يحملون عثمان، دم الهرمزان. فإنَّ الهرمزان، وهو القائد الفارسي الذي أُسر في معركة خوزستان، كان قد قُتل، على ما رُوي، على يد ابن عمر: عبيد الله، الذي قتل الهرمزان انتقامًا لأبيه عمر، بعد أن اغتيل على يد المولى الفارسي، أبي لؤلؤة. ورُوي أنَّ الهرمزان، عندما أحسَّ بالسيف، قال: أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأنَّ محمدًا رسول الله. وكان عبيد الله قد قُتل أيضًا، انتقامًا، زوجة قاتل أبيه: أبي لؤلؤة، وابنته الطفلة. والإسلام لا يسمح بقتل مسلم بريء، وهو الهرمزان، وامرأة لا تذب لها، وطفلة لا شأن لها في كلِّ ما جرى. وإذا تولى عثمان الخلافة، أفرج عن عبيد الله، ما أثار نقمة الموالي بشدة.

أما الموالي، فيذكر أحد المحققين المحدثين، أنهم "أولئك الذين كانوا يعيشون بين العرب أنفسهم، ممَّن دخلوا الإسلام من الفرس، جاؤوا كأسرى حرب أو كصنَّاع وتجَّار ورقيق. وإذا كان بعض هؤلاء قد دخل الإسلام عن إيمان حقيقي به، إلاَّ أنَّ الإسلام لم يبلغ في قلوب بعضهم الآخر مبلغًا كبيرًا، بل ربَّما انطوت هذه القلوب على غير قليل من الحقد على هؤلاء العرب الذين مزقوا أوصال بلادهم، ووطئوا بأقدامهم سيادتها. وكان هؤلاء الحاقنون من أوَّل أسباب الفرقة والخلاف بين المسلمين. وإذا كان مقتل عمر قد جاء على يد واحد منهم، فإنَّ الفتنة التي حدثت بعد ذلك، أيام عثمان،

---

١ - أبو ذر الغفاري (ت ٣٢ هـ / ٦٥٢م): هو جندب بن جندب، صحابي من أقدم المؤمنين، اشتهر بقواه ونقته، روى الكثير من أحاديث الرسول ﷺ، علَّس في بلاد الشام بعد وفاة النبي ﷺ فاجتمع إليه الفقراء والصعاليك فكان يروي لهم أحاديث الرسول ﷺ بتم الأغنياء، نعى على معاوية الترف والإسراف بعمال المسلمين فأعاده هذا إلى المدينة ثم نفاه الخليفة عثمان إلى الريدة فمات فيها.

٢ - لطفه عبد الله بن جعفر (ت ٨٠ هـ / ٧٠٠م): صحابي، ولد في الحبشة، ابن أخي علي، جاء مع أبيه إلى المدينة، لقَّب ببحر الجود لكرمِه، كان مع علي في يوم صفين، مات بالمدينة.

ثم ما تبعها من انقسام المسلمين وظهور مختلف الفرق والأحزاب التي خرج بعضها على الإسلام نفسه، وإن تظاهر بالإيمان والشدة فيه... كان وراءها نفس هؤلاء الحاقدين<sup>١</sup>..."

وإذ كثّر المطالبون بالاقتصاص من قاتل الهرمزان، صعد عثمان إلى المنبر، رخطب بالناس قائلاً: "إني وليّ دم الهرمزان، وقد وهبته لله ولعمر، وتركته لدم عمر". فقام المقداد بن عمرو فقال: "إن الهرمزان مولى لله ولرسوله ﷺ، وليس لك أن تهب ما كان لله ولرسوله ﷺ". قال عثمان: "فننظر وتظرون". أي ما معناه: سنرى! ثم أخرج عثمان عبيد الله من المدينة إلى الكوفة، وأنزله داراً، فنُسب المكان إليه: كوفية ابن عمر<sup>٢</sup>.

لم تقتصر عوامل النعمة الشعبية ضد عثمان، على كلّ هذا. فإذا كان إقصاء عليّ بن أبي طالب عليه السلام عن الخلافة قد أثار نعمة الهاشميين من قريش والمقربين منهم، قضية الهرمزان قد أثارت نعمة الموالى، وبعض تصرفات عثمان، لجهة اعتلائه رقاة الرسول ﷺ في المسجد، ولجهة بدعة حمل الشمعة بخلال الصلاة، إضافة إلى عدم قدرته على التفوّه، قد أثارت المتدينين... فإنّ إجراءات وتصرفات أخرى من قبل عثمان، قد أثارت غير هؤلاء أيضاً ضده. منها تقريبه بعض من كان الرسول ﷺ قد بعدهم عن المدينة، ومنها إيعاده من كان لهم شأن في المدينة، ومنها ما نُسب إليه من إثراء غير مشروع، ومن تصرف بأموال بيت المسلمين، ومن إغداق هذا المال على تربيائه. أضف إلى ذلك ظهور الغنى الفاحش في أوساط الذين ولّاهم، وابتعاد بعضهم عن سنة الله، ورسوله ﷺ. وسوف يقتصر العرض على نماذج من كلّ هذه الأحوال.

١ - مظهر سليمان، قصة الديقات، مرجع سابق، ص ٤٩٢.

٢ - راجع: الفيضوي، مرجع سابق، ٢: ١٦٣ - ١٦٤.

فقد حضر مجلس عثمان ذات يوم، كعب الأحبار<sup>١</sup> وأبو ذر الغفاري<sup>\*</sup>، وهو صحابي من أقدم المؤمنين، اشتهر بتقواه وتشفه. وفي هذا المجلس، قال عثمان: "أرأيتم من زكا ماله هل فيه حق لغيره؟" فقال كعب: "لا يا أمير المؤمنين"، فدفع أبو ذر في صدر كعب وقال: "كذبت يا ابن اليهودي"! ثم تلا: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾<sup>٢</sup>؛ فقال عثمان: "أترون بأساً أن نأخذ مالاً من بيت مال المسلمين فننفقه في ما ينوبنا من أمورنا ونعطيكموه؟" فقال كعب: "لا بأس بذلك"، فرفع أبو ذر العصا فدفع بها في صدره وقال: "يا ابن اليهودي ما أجراك على القول في ديننا؟". فقال عثمان له - لأبي ذر - : "ما أكثر أذاك لي! غيَّب وجهك عني فقد أديتني"<sup>٣</sup>.

وإذ طرد عثمان أبا ذر، كان لا بدّ من حدوث تملل من قبل المؤمنين. فانتقل أبو ذر إلى بلاد الشام، حيث اجتمع إليه الفقراء، وكان يروي لهم أحاديث الرسول ﷺ بزم الأغنياء، ونعى على معاوية الترف والإسراف بمال المسلمين. "فكتب معاوية إلى عثمان: إن أبا ذر تجتمع إليه الجموع ولا آمن أن يفسدهم عليك؛ فإن كان لك في القوم حاجة فاحمله إليك". وهكذا، عرف معاوية كيف لا يحمل نفسه وزر أبي ذر، إذا أمر الخليفة بإرسال الأخير إليه، فجعله معاوية "على بعير عليه قتب<sup>٤</sup> يابس، معه خمسة

١ - كعب الأحبار (ت ٣٢ هـ / ٦٥٢م): هو أبو اسحق كعب بن ماته الملقب بكعب الأحبار، من أقدم رواة الحديث، كان يهودياً يمينياً فاعتنق الإسلام وقيم المدينة في أيام عمر، ثم خرج إلى الشام فاستصفاه معاوية وجعله من مستشاريه، توفي في حمص.

٢ - البقرة، ٢: ١٧٧. ٣ - المسعودي، مروج الذهب، ٣: ٨٣. ٤ - القتب: ما يجعل على ظهر البعير كالمسرج: الرّحل.

من الصقالبة<sup>١</sup>، يطردون به، حتّى أتوا به المدينة، وقد تسلّخت بواطن أفعاله وكاد يتلف؛ فقبل له: "إنّك تموت من ذلك!". فقال: "هيهات لن أموت حتّى أنفى". ونكر جوامع ما ينزل به بعد، ومن يتولّى دفنه؛ فأحسن إليه عثمان في داره أيّامًا، ثم أدخل عليه، فجئى على ركبتيه وتكلّم بأشياء وذكر الخبر في ولد أبي العاص: إذا بلغوا ثلاثين رجلًا اتّخذوا عباد الله خولًا، ومرّ في الخبر بطوله وتكلّم بكلام كثير... وكان في ذلك اليوم قد أتى عثمان بتركة عبد الرحمن بن عوف الزهريّ من المال، فنُثرت البدر حتّى حالت بين عثمان وبين الرجل القائم، فقال عثمان: "إنّي لأرجو لعبد الرحمن خيرًا لأنّه كان يتصدّق ويقرّي الضيف، وترك ما ترون". فقال كعب الأحبار: "صدقت يا أمير المؤمنين". فشال أبو ذرّ العصا فضرب بها رأس كعب ولم يشغله ما كان فيه من الألم وقال: "يا ابن اليهوديّ تقول لرجل مات وخلف هذا المال إنّ الله أعطاه خير الدنيا والآخرة وتقطع على الله بذلك، إنّما سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما يسرّني أن أموت وأدع ما يزن قيراطًا". فقال له عثمان: "وار عني وجهك!". قال (أبو ذرّ): "أسير إلى مكّة؟". فقال: "لا والله!". قال: "فتمنعني من بيت ربّي أعبد فيه حتّى أموت؟". قال (عثمان): "إي والله!". قال: "فإلى الشام؟". قال: "لا والله!". قال: "البصرة؟". قال: "لا والله فاختر غير هذه البلدان". قال: لا والله لا أختار غير ما نكرت لك ولو تركتني في دار هجرتي ما أردتُ شيئًا من البلدان فسيرني حيث شئت! قال (عثمان): فإني مسيرك إلى الرّبذة<sup>٢</sup>؛ قال: "الله أكبر! صدق رسول الله ﷺ قد أخبرني

١ - للصقالبة: SLAVES، هم عند مؤرّخي العرب الشعوب السلافية القاطنة بين جبال أورال والبحر الأدرياتيكيّ في أوروبا الشرقية والوسطى، وهم فرعان: صقالبة الشمال أي الروس والروس اللييخ والبولونيون، وصقالبة الجنوب اليوغوسلافيون أي الصرب والكرواتيون والسلوفاكيون والبيلغاريون، وأطلق العرب اسم الصقالبة على جماعة من العبيد المجنّدين في الخدمة العسكرية وهم إما من الصقالبة الأصليين أو من غيرهم من العبيد للقائمين من الغرب.

٢ - الرّبذة: من قرى المدينة على طريق الحجاز، خربت ٣١٩ هـ بتّصال الحروب بين أهلها وبين ضريبة الذين أنجدهم للقرامة.

بكل ما أنا لاقٍ!". قال عثمان: "وما قال لك؟". قال: "أخبرني بأنني أُمْنَعُ عن مَكَّةَ والمدينة وأموت بالربذة ويتولى دفني نفر يَرُون من العراق إلى الحجاز..."

وَبُعْثَ أَبُو ذَرٍّ إِلَى جَمَلٍ لَهُ فَحَمَلَ عَلَيْهِ امْرَأَتَهُ (وَقِيلَ ابْنَتُهُ) وَأَمَرَ عَثْمَانُ أَنْ يَتَحَامَاهُ النَّاسَ حَتَّى يَسِيرَ إِلَى الرَّبْذَةِ؛ فَلَمَّا طَلَعَ عَنِ الْمَدِينَةِ وَمَرَّ بِمُرْوَانَ<sup>١</sup> سَيَّرَهُ عَنْهَا، طَلَعَ عَلَيْهِمْ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام وَمَعَهُ ابْنَاهُ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ، وَعَقِيلٌ\* أَخُوهُ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ\*، وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ<sup>٢</sup>؛ فَاعْتَرَضَهُ مُرْوَانُ بِقَوْلِهِ: "يَا عَلِيُّ، إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ نَهَى النَّاسَ أَنْ يَصْبَحُوا أَبَا ذَرٍّ وَيَشِيعُوهُ، فَإِنْ كُنْتَ لَمْ تَعْلَمْ بِذَلِكَ فَقَدْ أَعْلَمْتُكَ؛ فَحَمَلَ عَلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام بِالسُّوْطِ وَضَرَبَ بَيْنَ أَذْنَيْ نَاقَةِ مُرْوَانَ وَقَالَ: "تَحَّ نَحَاكَ اللَّهُ إِلَى النَّارِ!"، وَمَضَى مَعَ أَبِي ذَرٍّ فَشِيعَهُ ثُمَّ وَدَّعَهُ وَانْصَرَفَ؛ فَلَمَّا أَرَادَ عَلِيُّ عليه السلام الْإِنْصِرَافَ بَكَى أَبُو ذَرٍّ وَقَالَ: "رَحِمَكُمُ اللَّهُ أَهْلَ الْبَيْتِ إِذَا رَأَيْتَكَ يَا أَبَا الْحَسَنِ وَوَلَدَكَ ذَكَرْتُ بِكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ"... فَشَكَا مُرْوَانُ إِلَى عَثْمَانَ مَا فَعَلَ بِهِ عَلِيُّ عليه السلام فَقَالَ عَثْمَانُ: "يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَعْذُرُنِي مِنْ عَلِيٍّ؟ رَدَّ رَسُولِي عَمَّا وَجَّهْتَهُ لَهُ وَفَعَلَ، وَاللَّهِ لَنُعْطِيَنَّهُ حَقَّهُ!". فَلَمَّا رَجَعَ عَلِيُّ عليه السلام اسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ فَقَالُوا: "إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْكَ غَضَبَانِ لِنَشِيعِكَ أَبَا ذَرٍّ". فَقَالَ عَلِيُّ عليه السلام: "غَضَبَ الْخِيَلِ عَلَى اللَّجُمِ؛ ثُمَّ جَاءَ؛ فَلَمَّا كَانَ بِالْعَشِيِّ جَاءَ إِلَى عَثْمَانَ فَقَالَ لَهُ: "مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ بِمُرْوَانَ وَلَمْ اجْتَرَأْتَ عَلَيَّ وَرَدَدْتَ رَسُولِي وَأَمْرِي؟". قَالَ: "أَمَّا أَمْرُكَ فَلَمْ أَرُدَّهُ". فَقَالَ عَثْمَانُ: "أَوَلَمْ يَبْلُغْكَ أَنِّي قَدْ

---

١ - مِرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ (٢ - ٦٥ هـ / ٦٢٣ - ٦٨٥ م): دافع عن عثمان واشترك في معركة الجمل، الخليفة الأموي الرابع، به انتقلت الخلافة من المقيمين إلى المروانيين، ببيع بالخلافة في الجابية ثم في دمشق، انتصر على القيسيين أنصار ابن الزبير في معركة مرج راهط شمالي دمشق واستولى على مصر، ضبط المقييس والموازن، مات بالطاعون في دمشق.

٢ - عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ (ت ٨٣٧ / ٦٥٧ م): صحابي من المسلمين الأوائل ومن غنَّب لإسلامه، لبوه ياسر وأمه سمية أول شهيدتين في الإسلام ماتا في التخييب، كان أقرب المقرَّبين إلى النبي ﷺ، هاجر إلى الحِمْيَرِ والمدينة وشهد جميع المشاهد مع النبي ﷺ، من أخلص أنصار علي بن أبي طالب عليه السلام، شهد معه الجمل وصفين حيث قُتل وهو ابن أربع وتسعين سنة.

نهيت الناس عن أبي ذرٍّ وعن تشييعه؟" فقال عليّ عليه السلام: "أوكلَ ما أمرتُا به من شيء نرى طاعة الله والحقَّ في خلافه اتَّبَعنا فيه أمرك؟ لعمر الله لا نفعل!". قال عثمان: "أؤذُ مروان". قال: "وممَّ أؤيده؟" قال: "ضربت بين أذني راحلته وشتمته فهو شاتمك وضارب بين أذني راحلتك". قال عليّ عليه السلام: "أمَّا راحلتي فهي تلك فإن أراد أن يضربها كما ضربت راحلته فليفعل، وأمَّا أنا فوالله لئن شتمني لأشتمنك مثلها بما لا أكذب فيه ولا أقول إلاَّ حقًّا!". فقال عثمان: "ولمَ لا يشتمك إذا شتمته؟ فوالله ما أنت عندي بأفضل منه؟". فغضب عليّ عليه السلام وقال: "ألي تقول هذا القول وبمروان تعدلني؟ فأنا والله أفضل منك وأبي أفضل من أبيك وأمِّي أفضل من أمك وهذه نبلي قد نثلتها وهلمَّ فأنثِلْ نبلك!"; فغضب عثمان وأحمرَّ وجهه فقام ودخل داره وانصرف عليّ عليه السلام؛ فاجتمع إليه أهل بيته ورجال من المهاجرين والأنصار؛ فلما كان من الغد واجتمع الناس إلى عثمان شكوا اليهم عليًّا عليه السلام وقال: "إنَّه يعيبي ويظاهر من يعيبي"، يريد بذلك أبا ذرٍّ وعمارًا؛ فدخل الناس حتَّى أصلحوا بينهما وقال عليّ عليه السلام: "والله ما أردت بتشيعي أبا ذرٍّ إلاَّ الله تعالى".<sup>٢</sup>

مَنْ هو عَمَّار، الذي قصده عثمان بقوله إنَّ عليًّا يظاهره على مَنْ يعييه؟ هو عَمَّار بن ياسر، صحابيٌّ من المسلمين الأوائل، وممَّنْ عُنِبَ لإسلامه. أبوه ياسر وأمّه سمية، أولَ شهيدَيْن في الإسلام، ماتا في التعذيب. كان أقرب المقرَّبين إلى النبي، هاجر إلى الحبشة والمدينة وشهد جميع المشاهد مع النبي.

"وقد كان عَمَّار، حين بويع عثمان، بلغه قول أبي سفيان\* في دار عثمان عُقِيب الوقت الذي بويع فيه عثمان ودخل داره ومعه بنو أمية؛ فقال: (يومذاك) أبو سفيان:

١ - بمعنى الاقتداء. أي فليكن لمروان منك مثلما كان لك منه.

٢ - المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ٨٣ - ٨٦.

"أفيكم أحدٌ من غيركم؟" وقد كان عَمِي... قالوا: "لا"، قال: "يا بني أَمِيَّةٌ تَلَقُّوا تَلَقَفَ الكرة. والذي يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم ولتصيرنَ إلى صبيانكم وراثَةً!" فانتهره عثمان وساءه ما قال. ونُمي هذا القول إلى المهاجرين والأنصار وغير ذلك من الكلام؛ فقام عَمَار بن ياسر في المسجد فقال: "يا معشر قريش، أَمَّا إذا صرفتم هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم ﷺ ها هنا مرّةً وها هنا مرّةً فما أنا بأَمَن أن ينزعه الله منكم فيضعه في غيركم كما نزَعتموه من أهله ووضعتموه في غير أهله..." وقام المقداد\* فقال: "ما رأيت مثل ما أُوذي به أهل هذا البيت بعد نبيهم ﷺ". فقال له عبد الرحمن بن عوف\*: "وما أنت وذلك يا مقداد؟". فقال: "إنّي والله لأحبهم لحبّ رسول الله ﷺ إياهم وإنّ الحقّ معهم، وفيهم يا عبد الرحمن أعجب من قريش وإنّما تطولهم على الناس بفضل أهل هذا البيت وقد اتَّفَقوا على نزع سلطان رسول الله ﷺ بعده من أيديهم، وأيمُ الله يا عبد الرحمن لو أجد على قريش أنصارًا لقاتلتهم كقتالي إياهم مع رسول الله ﷺ يوم بدر!"<sup>١</sup>.

وفيما هذه الأسباب تتفاعل، كانت أسباب من نوع آخر، تزيد النقمة على عثمان، الذي "كتب إلى الحَكَم بن أبي العاص أن يقدم عليه. وكان الحكم طريد رسول الله ﷺ، وقد كان عثمان لما وُلِّي أبو بكر اجتمع هو وقوم من بني أَمِيَّةٍ إلى أبي بكر، فسألوه في الحكم، فلم يأذن له، فلما وُلِّي عمر فعلوا ذلك، فلم يأذن، فأنكر الناس إذن عثمان له. وقال بعضهم: رأيت الحَكَم بن أبي العاص يوم قدم المدينة عليه فَرَزَ خلق، وهو يسوق تيسًا، حتّى دخل دار عثمان، والناس ينظرون إلى سوء حاله وحال من معه، ثم خرج وعليه جَبّة خزّ وطيلسان"<sup>٢</sup>.

١ - المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ٨٦ - ٨٧.

٢ - اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٦٤.

أمرٌ كهذا، لم يكن سهلاً على أهل المدينة تقبله، اللهم باستثناء بني أمية. وما زاد في النعمة، تحول نهج الخلافة الذي اتسم بالتقشف أيام الرسول ﷺ والخليفتين: أبي بكر وعمر، إلى النقيض تماماً. وشاعت الأخبار حول ذلك.

لقد كان عثمان "في نهاية الجود والكرم والسماحة والبذل في القريب والبعيد"<sup>١</sup>. بمعنى آخر، كان مبذراً. بينما كان عمر، قد حثّد بأن خليفة المسلمين "يجب أن يكون مُعطياً في غير سرفٍ ومانعاً في غير إقتار..."<sup>٢</sup>. وقد صدقت توقّعات عمر، بأنّه "إذا وليّ عثمان بن عفّان، حمل ابن أبي معيط وبني أمية على رقاب الناس، وأعطاهم مال الله، ولئن وليّ ليفعلنّ والله، ولئن فعل لتسيرنّ العرب إليه حتّى تقتله في بيته"<sup>٣</sup>...

في الواقع، سلك عثمان كما توقّع عمر، "وسلك عمّاله وكثير من أهل عصره طريقته، وتأثروا به في فعله؛ فقد بنى عثمان داره في المدينة وشيّد بها بالحجر والكلس وجعل أبوابها من الساج والعرعر، واقتنى أموالاً وجنّاتاً وعيوناً بالمدينة؛ وذكر عبد الله بن عتبة أنّ عثمان يوم قُتل كان له عند خازنه من المال خمسون ومائة ألف دينار وألف درهم، وقيمة ضياعه بوادي القرى وخُنين وغيرهما مائة ألف دينار، وخلف خيلاً وإيلاً كثيرة... وفي أيام عثمان<sup>٣</sup>، إقتنى جماعة من الصحابة الدور والضياع، منهم الزبير بن العوام الذي بنى داره بالبصرة... وابنتى أيضاً دوراً بالكوفة ومصر والإسكندرية، وما ذكرنا من دوره وضياعه فمعلوم غير مجهول...، وبلغ ثمن ملك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار، وخلف الزبير ألف فرس وألف عبد وأمة وخططاً بحيث ذكرنا من الأمصار... وكذلك طلحة بن عبيد الله اليماني ابنتى داره بالكوفة

١ - للمسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ٧٦.

٢ - راجع: لليقوبي، مرجع سابق، ٢: ص ١٥٨.

٣ - راجع مقمّة ابن خلدون.



في الكناسة المشهورة في هذا الوقت بدار الطلحيين، وكانت غلته من العراق في كل يوم ألف دينار وقيل أكثر من ذلك. وبناحية الشراة أكثرها ممّا ذكرنا؛ وشيّد داره بالمدينة وبنّاها بالجصّ والآجرّ والساج. وكذلك عبد الرحمن بن عوف الزهريّ ابتنى دارة ووسّعها، وكان على مربطه مائة فارس، وله ألف بعير وعشرة آلاف شاة من الغنم؛ وبلغ بعد وفاته الرّيع من ماله أربعة وثمانين ألف دينار... وابتنى سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق فرفع سمكها ووسّع فضاءها وجعل على أعلاها شرافات. وقد ذكر سعيد بن المسيّب أن زيد بن ثابت، حين مات، خلف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس، غير ما خلف من الأموال والضّياح بقيمة مائة ألف دينار... وابتنى المقداد داره بالمدينة في أعلاها شرافات وصيّرها مجصّصة الظاهر والباطن؛ ومات يعلى بن مئنة وخلف خمسمائة ألف دينار وديوناً على الناس وعقارات وغير ذلك من التركة، ما قيمته ثلاثمئة ألف دينار؛ وهذا باب يتّسع ذكره ويكثر وصفه فيما تملّك من الأموال في أيّامه (عثمان) ولم يكن مثل ذلك في عصر عمر بن الخطّاب بل كانت جادة واضحة وطريقة بيّنة؛ وحجّ عمر فأنفق في ذهابه ومجيئه إلى المدينة ستّة عشر ديناراً وقال لولده عبد الله: "قد أسرفنا في نفقتنا في سفرنا هذا"<sup>١</sup>.

إضافة إلى كلّ هذا، روى بعضهم "أنّ عثمان زوج ابنته من مروان بن الحکم، وأمر له بخمس غنائم غزو أفريقيا التي بلغت ألفي ألف دينار وخمسمائة ألف دينار وعشرين ألف دينار...؛ وزوج عثمان ابنته من عبد الله بن خالد بن أسيد، وأمر له بستمئة ألف درهم، وكتب إلى عبد الله بن عامر أن يدفعها إليه من بيت مال البصرة...؛ وحدث أبو إسحاق عن عبد الرحمن بن يسار قال: رأيت عامل صدقات المسلمين على سوق المدينة إذا أمسى أتاها عثمان، فقال له: إيفعها إلى الحکم بن أبي

١ - المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ٧٦ - ٧٧.

العاص؛ وكان عثمان إذا أجاز أحداً من أهل بيته بجائزة جعلها فرضاً من بيت المال"، وعندما اعترض خازن بيت المال على هذا، وطالب الخليفة بردَ هذه الأموال إلى بيت المسلمين، جعل عثمان "يدافعه ويقول له: يكون فنعطيك إن شاء الله، فألح عليه، فقال: إنما أنت خازن لنا، فإذا أعطيناك فخذ، وإذا سكتنا عنك فاسكت. فقال: كذبت والله! ما أنا لك بخازن، ولا لأهل بيتك، إنما أنا خازن المسلمين. وجاء بالمفتاح يوم الجمعة وعثمان يخطب، فقال: أيها الناس زعم عثمان أنني خازن له ولأهل بيته، وإنما كنت خازناً للمسلمين، وهذه مفاتيح بيت مالك. ورمى بها، فأخذها عثمان، ودفعها إلى زيد بن ثابت<sup>١</sup>.

عند مقتل الخليفة الأصيل، عمر بن الخطاب، كان سعد بن أبي وقاص\* على الكوفة (وقيل المغيرة) وأبو موسى الأشعري<sup>٢</sup> على البصرة، وعمير بن سعد الأنصاري على حمص، ومعاوية بن أبي سفيان على بعض الشام، وعمرو بن العاص على مصر، وزيد بن ليلى البياضي على بعض اليمن، وأبو هريرة على عُمان، ونافع بن الحارث على مكة، ويعلى بن مزية التميمي على صنعاء، والحارث بن أبي العاص الثقفي على البحرين، وعبد الله بن أبي ربيعة على الجند<sup>٣</sup>.

بدأ عثمان تغييراته على هذا الصعيد، بعزل عمرو بن العاص، عن ولاية مصر، وولّى مكانه عبد الله بن أبي سرج. فكان ذلك سبب العداوة بين عثمان وعمرو.

١ - البقرى، مرجع سابق، ٢: ١٦٦، ١٦٨ - ١٦٩.

٢ - أبو موسى الأشعري (ت ٤٤ هـ / ٦٦٥ م): صحابي، أحد الحكمين مع عمرو بن العاص اللذين رضي بهما عليّ في معاوية في تحكيم لفرح بعد صفين، ارتد بعد التحكيم إلى الكوفة وفيها توفي.

٣ - البقرى، مرجع سابق، ٢: ١٦١.

كان ذلك سنة ٢٦ هـ. (٦٤٦ م.) ولم يكن قد مرَّ على ولاية عثمان سنتان. وفي السنة التالية، ولَّى الوليد بن عقبة بن أبي معيط<sup>١</sup> الكوفة مكان سعد. وصلَّى (الوليد بالناس الغداة، وهو سكران، أربع ركعات، ثم تهوَّع في المحراب، والتفت إلى مَنْ كان خلفه، فقال: أزيذكُم؟ ثم جلس في صحن المسجد، وأتى بساحر يدعى "بطروى" من الكوفة، فاجتمع الناس إليه، فجعل يدخل من دبر الناقة ويخرج من فيها، ويعمل أعاجيب. فرآه جندب بن كعب الأزديّ، فخرج إلى بعض الصياقلة<sup>٢</sup>، فأخذ منه سيفاً ثم أقبل في الزحام وقد ستر السيف حتّى ضرب عنقه، ثم قال له: أحي نفسك، إن كنت حاذقاً! فأخذه الوليد، فأراد أن يضرب عنقه، فقام قوم من الآزد، فقالوا: لا تقتل والله صاحبنا. فصيّره في الحبس. وكان يصلّي الليل كلّهُ، فنظر إليه السجّان، وكان يُكنّى أبا سنان، فقال: "ما عذري عند الله إن حبستك علّ الوليد يقتلك؟" فأطلقه، فصار جندب إلى المدينة، وأخذ الوليد أبا سنان فضربه مائتي سوط، فوثب عليه جرير بن عبد الله، وعدي بن حاتم، وحذيفة ابن اليمان، والأشعث بن قيس، وكتبوا إلى عثمان مع رسلهم، فعزله وولّى سعيد ابن العاص مكانه. فلَمّا قدم الوليد قال عثمان: مَنْ يضربه؟ فأحجم الناس لقرايته، وكان أخاً لعثمان لأُمّه، فقام عليّ فضربه؛ ثم بعث به عثمان على صدقات كلب وبلقين<sup>٣</sup>... ولمّا دخل الوالي الجديد سعيد بن العاص الكوفة أباى أن يصعد المنبر إلّا بعد "غسله من نجس الوليد ورجسه"<sup>٤</sup>.

١ - الوليد بن عقبة بن أبي معيط (ت ٦١١هـ / ٦٨٠ م.): كثرته أبو ذؤيب، أخو عثمان بن عفّان لأُمّه، من فتيان قريش وشعرانهم، أسلم يوم فتح مكّة، مات بالرقّة.

٢ - الصياقلة: جمع صياقلي، أي صانع السيوف.

٣ - الليقوي، مرجع سابق، ٢: ١٦٤ - ١٦٥.

٤ - المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ٨٠.

غير أن سعيداً هذا، ما لبث أن استبدّ بالأموال، ما جعل مالك بن الحارث النخعي، الأمير الشاعر الملقّب بالأشتر، يخرج إلى الخليفة عثمان في سبعين راكباً من أهل الكوفة، "فذكروا سوء سيرة سعيد وسألوه عزله عنهم؛ فمكث الأشتر وأصحابه أياماً لا يخرج إليهم من عثمان في سعيد شيء".

وبينما كان وفد الكوفة في المدينة، قدم إلى المدينة عدد من ولاة الأمصار، ولا يذكر لنا التاريخ ما هي المناسبة التي جعلت هؤلاء يجتمعون إلى عثمان في الوقت نفسه، ومنهم: عبد الله بن سعد بن أبي سرح من مصر، ومعاوية من الشام، وعبد الله بن عامر من البصرة، إضافة إلى سعيد بن العاص نفسه، الذي قدم من الكوفة.

في هذه الأثناء، كتب إلى الخليفة عدد من الولاة الذين في باقي الأمصار، يشكون "كسر الخراج وتعطيل الثغور".

في خضمّ هذه النقمة، جمع عثمان ولاته، وبعد عرض الحال، سألهم: "ما ترون؟" فكان معاوية أول المتحدثين، وقد اكتفى بالدلالة على أن لا مشكلة في ما يتعلّق بولايته شخصياً، إذ قال "أما أنا فراض بي جندي". إلا أن بعضهم، أدلى بدلوه حول موضوع الكوفة، ومن جملة هؤلاء، عبد الله والي مصر، الذي صرّح بأنّه "ليس بكثير عزل عامل للعامة وتولية غيره". هذا يعني أن لا بأس من الاستجابة إلى مطالبة أهل الكوفة بتحية سعيد بن العاص. إلا أن سعيداً، الذي كان حاضراً، أشار إلى الخليفة بأنّه إذا استجاب لهذا المطلب "كان أهل الكوفة هم الذين يولّون ويعزلون". ثم اقترح على الخليفة أن يجهّز هؤلاء في الحروب، حتّى يتلهّوا عن "الأحاديث والخوض في المسجد". وعندما بلغ الأشتر وأهل الكوفة عمّا يجري، عاد الأشتر، بتشجيع من طلحة والزبير، إلى الكوفة قبل أن يعود سعيد، وصعد الأشتر "المنبر، وسيفه في عنقه، ثم

وضعه عنه، وقال: أما بعد، فإن عاملكم الذي أنكرتم عداه وسوء سيرته قد ردّ عليكم وأمر تجهيزكم في البعوث فبايعوني على أن لا يدخلها".

وعلى هذا الأساس، بايع الأُستُر عشرةُ آلاف من أهل الكوفة. وبعد مبايعته، منع سعيدًا من دخول الكوفة، وكتب للخليفة: "إنا والله ما منعنا عاملك الدخول لنفسد عليك عملك، ولكن لسوء سيرته فينا وشدة عذابه، فابعث إلى عملك من أحببت". أمام هذا الواقع، كتب عثمان إلى أهل الكوفة: "أنظروا مَنْ كان عاملكم في أيام عمر بن الخطّاب فولّوه". فنظروا، فإذا هو أبو موسى الأشعريّ، فولّوه<sup>١</sup>.

قبل ذلك التاريخ، كان عثمان قد "عزل أبا موسى الأشعريّ (عن البصرة) وولّى مكانه عبد الله بن عامر بن كُريز، وهو يومئذ ابن خمس وعشرين سنة. فلما بُلغ أبو موسى ولاية عبد الله بن عامر، قام خطيبًا، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على نبيّه ﷺ ثم قال: "قد جاءكم غلام كثير العمات والخالات والجذات في قريش، يفيض عليكم المال فيضا"<sup>٢</sup>.

## إنجازات

### عثمان

كانت الإنجازات التي حقّقها عثمان محدودة بالقياس إلى إنجازات الخليفة الذي سبقه. لذلك لم تكن أعمال الخليفة الثالث بارزة لتغطّي على أسباب الثورة.

١ - المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٢: ٨٠ - ٨١.

٢ - الطبري، مرجع سابق، ٢: ١٦٦.

أما تلك الإجازات، فيمكن تلخيصها في سطور.

ففي السنة الأولى من ولايته، وكان قد مضى ٢٤ سنة على الهجرة (٦٤٤م) افتتح المغيرة بن شعبة<sup>١</sup> همدان، وكتب إلى عثمان أنه دخل الري وأنزلها المسلمين. وكانت الري قد فتحت في حياة عمر؛ وقيل لم تفتح، ولكنها كانت محاصرة<sup>٢</sup>.

وفي السنة التالية (٦٤٥م) "انقضت الإسكندرية، وحاربهم عمرو بن العاص، حتى فتحها وسبى الزراري، ووجه بهم إلى المدينة، فردهم عثمان إلى نمتهم الأولى..."<sup>٣</sup>.

"ووسّع عثمان في المسجد الحرام، وزاد فيه (٦٤٦م) وابتاع من قوم منازلهم، وأبى آخرون، فهنّمت عليهم، ووضع الأثمان في بيت المال، فصاحوا بعثمان، فأمر بهم للحبس. وقال: ما جرّأكم عليّ إلّا حلمي، وقد فعل عمر، فلم تصيحوا"<sup>٤</sup>... كذلك جند أنصاب الحرم<sup>٥</sup>. وفي السنة نفسها، افتتح عثمان بن أبي العاص<sup>٥</sup> الثقفي سابور.

وفي السنة الثالثة من عهده (٦٤٧م) "أغزى عثمان الناس أفريقيا، وعليهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح... وكثرت الغنائم حتى بلغت ألفي دينار وخمسمائة ألف دينار وعشرين ألف دينار...؛ كما افتتح معاوية قبرس... وبعد سنتين وسّع مسجد الرسول ﷺ.

---

١ - للمغيرة بن شعبة (ت ٥٠ هـ / ٦٧٠م) ثقفي، من دماء العرب، صحابي، قتل في وقعة اليمامة وفي فتوح الشام وفارس، ولأه عمر البصرة والكوفة، عزله عثمان، ثم ولأه معاوية الكوفة، شدّد التنكيل بشعبة عليّاً، كان مزولجاً مطلقاً.

٢ - اليقوي، مرجع سابق، ٢: ١٦٤ - ١٦٥.

٣ - كان عمر بن الخطّاب قد وسّع المسجد الحرام على حساب هدم بعض المنازل، إلّا أن ذلك تمّ بالتراضي.

٤ - اليقوي، مرجع سابق، ٢: ١٦٤ - ١٦٥.

٥ - عثمان بن أبي العاص (ت ٥١ هـ / ٦٧١م): صحابي من أهل الطائف، أسلم في وفد ثقيف، فاستعمله النبي ﷺ على الطائف، ولأه عمر عُمان والبحرين، له فتوح وغزوات بالهند وفارس، توفّي بالبصرة.

وفي السنة التالية (٦٥٠م) إفتتح عبد الله بن عامر<sup>١</sup> نيسبور، وأبرشهر، وطوس، ومرو الروذ، والطارقان، والفاريات، وطخارستان، وسرخس، وغيرها من البلدان الفارسية. كما فتح حبيب بن مسلمة<sup>٢</sup> بعض أرمينيا وتولّى عليها<sup>٣</sup>.

وسنة ٣١ هـ / ٦٥٢ م. "أغزى عثمان جيشاً، أميرهم معاوية، على الصائفة، فبلغوا إلى مضيق القسطنطينية، وفتحوا فتوحاً كثيرة. وصير عثمان إلى معاوية غزو الروم، على أن يوجه من رأى إلى الصائفة. فولّى معاوية سفيان بن عوف الغامدي فلم يزل عليها أيام عثمان"<sup>٤</sup>.

ومن إنجازات عثمان، أنه "جمع القرآن وألفه، وصير الطوال مع الطوال، والقصار مع القصار من السور، وكتب في جمع المصاحف من الآفاق حتى جُمعت، ثم سلقها بالماء الحارّ والخلّ؛ وقيل أحرقها، فلم يبقَ مصحف إلا فعل به ذلك خلا مصحف ابن مسعود<sup>٥</sup>. وكان بن مسعود بالكوفة، فامتنع عن أن يدفع مصحفه إلى عبد الله بن عامر، وكتب إليه عثمان: "أن أسخّصنه، إنّه لم يكن هذا الدين خبالاً وهذه الأمة فساداً". فدخل المسجد وعثمان يخطب، فقال عثمان: "إنّه قد قدمت عليكم دابة سوء".

---

١ - عبد الله بن عامر القرشي (ت نحو ٥٩ هـ / ٦٧٩ م): أمير فتح من اللوات، ولد وتوفي بمكة، لشارك في فتوح فارس وحاز أموالاً كثيرة، ولأه عثمان البصرة عندما كان عمر في الخامسة والحشرين، فأحسن التخيير والانشاء، للترزم جانب علشنة مخالفة لطبيعتها، ولأه معاوية البصرة مرة ثانية ثم صرفه عنها فأقام في المدينة.

٢ - حبيب بن مسلمة (سنة ٤٢ هـ / ٦٦٢ م): فهرّي قرشي، قائد من كبار الفاتحين، ولأه عثمان على أنريجان، كان موالياً لمعاوية، رافقه في صفين، ولي أرمينيا وتوفي فيها.

٣ - اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٦٨.

٤ - اليعقوبي، مرجع سابق، ٣: ١٧٠.

٥ - عبد الله بن مسعود (ت ٣٢ هـ / ٦٥٢ م): صحابي هذلي، خدم النبي ﷺ مدة حياته، سادس من أسلم، أول من جهر بالقرآن في مكة، هاجر إلى الحبشة. أحد المبشرين بالجنة، ممن ألقوا ثلاثة القرآن، روى عن النبي ﷺ.

فكلمه ابن مسعود بكلام غليظ فأمر به عثمان، فجرّ برجله حتّى كسر له ضلعان، فتكلّمت عائشة، وقالت قولاً كثيراً<sup>١</sup>.

وبعث عثمان، بعد ذلك، بالمصاحف إلى الأمصار... وأمر الناس أن يقرأوا على نسخة واحدة... وكان سبب ذلك أنّه بلغه أنّ الناس يقولون: قرآن آل فلان، فأراد أن يكون نسخة واحدة، وقيل: إنّ ابن مسعود كان كتب بذلك إليه، فلمّا بلغه أنّه يحرف المصاحف، قال: "لم أرد هذا". وقيل كتب إليه بذلك حذيفة بن اليمان<sup>١</sup>. واعتلّ ابن مسعود، فأتاه عثمان يعذّره، فقال له: "ما كلام بلغني عنك؟". قال: "ذكرت الذي فعلته بي، إنّك أمرت بي فوطيء جوفي، فلم أعقل صلاة الظهر، ولا العصر، ومنعتني عطائي". قال: "لأنّي أقيّدك من نفسي فافعل بي مثل الذي فعل بك". قال: "ما كنت بالذي أفتح القصاص على الخلفاء". قال: "فهذا عطاؤك، فخذ". قال: "منعتني وأنا محتاج إليه وتعطينيه وأنا غنيّ عنه؟ لا حاجة لي به". فانصرف. وأقام ابن مسعود مغاضباً لعثمان حتّى توفي<sup>٢</sup>.

هذا جلّ ما يذكره المؤرّخون عن إنجازات عثمان. مع كلّ ما قد رافق تلك الإنجازات من إجراءات كانت تساهم في نقمة الرعيّة، ممّا زاد في طين التملّل، بلّة. ولن يطول الوقت حتّى يتحوّل ذلك التملّل، إلى ثورة... وهي، دون شك، الثورة الأولى في الإسلام.

---

١ - حذيفة بن اليمان (ت ٣٦هـ / ٦٥٦م): صحابي من لواء الفتحين، ولّاه عمر على المدائن فتخلّب على القرس في نهالند ٦٤٢، غزا همدان والري، توفي بالمدين.

٢ - الليثوي، مرجع سابق، ٢: ١٧٠ - ١٧١.



## الثورة

### على عثمان

ليس بوسع الباحث في خلفيات الثورة على الخليفة الثالث: عثمان بن عفان، إلا أن يجد ما كان لمروان بن الحكم من مسؤولية في رجرة وضع الخليفة الذي كان قرب مروان إليه، وجعله مستشاره الأول، إلى أن أصبح لمروان تأثير واضح في مواقف عثمان وتصرفاته. حتى إن بعض مواقف عثمان، تتم عن حب ومعة لمروان، وضحى المعالم. فبالإضافة إلى أن عثمان قد أزواج مروان ابنته، فهو كان ابن عمه: الحكم بن العاص، الذي كان نفاه الرسول ﷺ إلى الطائف، إلا أن عثمان رد طريد الرسول، الحكم، إلى المدينة، بعد أن ملك زمام الحكم، وأكرمه، ومنحه الهبات.

وبمجرد أن يكون مروان، ابن طريد الرسول ﷺ، فهو لم يكن محبوباً من المسلمين عامة. أضف إلى ذلك ما كان يتصف به مروان من مكر، وقساوة، وما كان يخططه للوصول إلى الخلافة يوماً. وهذا ما سوف يحققه فعلاً في يوم من الأيام، عندما سيصل... وبوصوله سينقل الخلافة من السفينيين إلى المروانيين. إلا أن ذلك الحدث لا يزال بعيداً، يفصل بينه وبين اليوم الذي نحن بصده سبعة وعشرون عاماً.

وإذا كان المؤرخون يحكمون على مروان، كل بحسب انتمائه، فيفسو الشيعة عليه كما لا يفعل السنة، فإنهم يجمعون على أن عثمان كان ضعيف الشخصية، وعلى أن مروان كان له تأثير واضح عليه.

عندما تسنم عثمان بن عفان كرسي الخلافة في العام الرابع والعشرين للهجرة، كان الإسلام قد غدا مشروعاً امبراطورية، ولم يعد موضوع تدبير الأمور مقتصرًا على مكة والمدينة وبعض الجزيرة كما كان في عهد الخليفة الأول: أبي بكر. فإن الخليفة الثاني: عمر بن الخطاب، أورث خليفته مشروعاً امبراطورية ضمت، إلى الجزيرة:

بلاد الشام وفلسطين وأمصار مصر وأرض العراق وبعضاً من فارس. وإذا كان الإسلام في بداية ظهوره، والمسلمون، بعضهم أسلم عن إيمان، وبعضهم عن مصلحة، وبعضهم لأسباب أخرى، لم يعد الأمر مجرد مركز، بل، وقد أصبحت الخلافة أكثر من دولة، توجب أن يكون الخليفة، أكثر من رمز بكثير.

فقد ذكر بعض رواة السنة أن آخر ما قاله عمر بن الخطاب، قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، يوم طعنه الفارسي أبو لؤلؤة:

الحمد لله الذي لم يجعل قاتلي يحاجني عند الله بسجدة سجدها له قط... ما كانت العرب لتقتلي.

وبضيف ناقل هذا القول، بأن "كانت هذه هي الحقيقة؛ فما كان في العرب من يجرؤ على قتل عمر خليفة رسول الله ﷺ! ولكن كان هناك من يعيشون بين العرب أنفسهم، ممن دخلوا الإسلام من الفرس. جاؤوا كأسرى حرب أو كصناع وتجار ورقيق. وإذا كان بعض هؤلاء قد دخل الإسلام، عن إيمان حقيقي به، إلا أن الإسلام لم يبلغ في قلوب البعض الآخر منهم مبلغاً كبيراً، بل ربما انطوت هذه القلوب على غير قليل من الحقد والموجدة على هؤلاء العرب الذين مزقوا أوصال بلادهم ووطنوا بأقدامهم سيادتها".<sup>١</sup>

وإن كررنا هذا الرأي، وقد ذكرناه في خبر مقتل عمر، فبهذه الإحاطة. إذ يضيف صاحبه بأنه "كان هؤلاء الحاقدون من أول أسباب الفرقة والخلاف بين المسلمين. وإذا كان مقتل عمر، قد جاء على يد واحد منهم، فإن الفتنة التي حدثت بعد ذلك أيام عثمان بن عفان، ثم ما تبعها من انقسام المسلمين وظهور مختلف الفرق

---

١ - مظهر، قصة الديانات، مرجع سابق، ص ٤٩٢.

والأحزاب التي خرج بعضها على الإسلام نفسه، وإن تظاهر أصحابها بالإيمان والشدة فيه، كل ذلك كان وراءه نفس هؤلاء الحاقدين"<sup>١</sup>.

ولكن إذا دققنا في أحداث الثورة على عثمان، نجد أن مَنْ كانوا وراءها، كانوا من كل الفئات، ومن جميع المشارب، ومن غير مصر. فقد اشترك فيها من أهل المدينة، كما اشترك من الموالي، ومن مصر، ومن العراق. لقد كان واضحاً "منذ أول خلافة عثمان، أن شيئاً سيحدث. فما كان عثمان بالذي يستطيع ملء مكان عمر بن الخطاب الذي عرف كيف يسوس أمور الأمبراطورية الإسلامية التي اتسعت خارج الجزيرة العربية اتساعاً هائلاً... وما كان الخليفة الجديد بقادر على أن يمسك بيديه المرتعشتين دفعة السفينة بحزم وقوة كما فعل عمر في أدق حقبة من تاريخ الإسلام وأخطرها... من أجل ذلك برزت عوامل النكسة لتسيطر على أقدار المسلمين، ونهض العداء الدفين للإسلام داخل الجزيرة وخارجها، يستغل فرصة عدم التكافؤ بين شخصية الخليفة عثمان، بشيخوخته وتساهله وضعفه أمام أسرته، فراح يعمل عمله في جسم الإسلام القوي الصلب. وأطلت العصبية القبلية بوجهها الكتيب، لتجعل الأمويين يضمرون العداء للهاشميين الذين كانوا أعداء لهم في الجاهلية"<sup>٢</sup>.

ثم إن عائشة، أم المؤمنين، والتي كان لا يزال تأثيرها الكبير في المدينة، كان لها مآخذ كبرى على عثمان. وهذا ما سوف يؤدي، في النهاية، إلى عدم قيام أحد من أصحاب الشأن لنصرة عثمان في اليوم العصيب، وإن كان الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قد بذل جهوداً لمنع حصول الكارثة، بحسب بعض المؤرخين، كما سيأتي.

---

١ - المرجع السابق.

٢ - مظهر، قصة الديانات، مرجع سابق، ص ٤٩٢.

وقبل سرد أهمّ ماجريات أحداث الثورة على عثمان، لا بدّ من الإشارة إلى بدعة دينيّة كانت قد ظهرت يومذاك، هذّدت لأول مرّة، وحدة الإسلام. وهناك من يعتبرون بأنّ تلك البدعة، كانت من جملة العوامل التي أدّت إلى ترجرج وضع الخلافة. وإذا لم يكن الأمر كذلك، يكفي أن تكون تلك البدعة قد ظهرت، لتزيد من المؤشّرات على سوء إدارة عثمان.

إنّها بدعة ابن سبأ، ومذهبه الجديد. وهي فكرة قامت بنفس يهودي، هو ابن السوداء عبد الله بن سبأ، وهو من صنعاء، خرج منها، ونزل المدينة وتظاهر بإسلامه، وتغلغل بين صفوف الجماهير الإسلاميّة "حيث عرف مراميههم، ومقاصدهم، وعرف أنّ منصب الخلافة أصبح واهي الدعائم، تحت عثمان، وعرف أنّ النفوس تنزع إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وهو الرجل الذي يريد ابن سبأ أن يستغلّ اسمه في فكرته الجديدة ومذهبه الجديد، وإن كان عليّ عليه السلام نفسه لا يتقبّلها ولا تنطلي عليه، وإن كانت تهدف إلى توليته وتنصيبه. ولعلم هذا السبئيّ بأنّ تربة المدينة لا تصلح لبذر فكرته ومذهبه، فلا بدّ من أن يجد لها تربة خصبة تنمو فيها وتؤتي ثمارها، وإن كان في المدينة من يتقبّل الفكرة ما دامت تقوم على رفع شأن عليّ عليه السلام، ففي المدينة كثير ممن يحبّونه ويؤيّلونه، رأى ابن سبأ أنّ خير تربة لفكرته هي تلك التي تكون بعيدة عن مرأى ومسمع عليّ عليه السلام، حتّى لا ينهض لمحاربتها، فاختار البصرة، حيث يوجد أذهان تتقبّل الفكرة ما دامت غايتها الظاهرة القضاء على الحكم القائم. وهناك، بثّ ابن سبأ دعوته القائمة على تفسير الآية: «إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ»<sup>١</sup>

---

١ - (من: القصص: ٨٥) جاء في تفسير هذه الآية، وهي خطاب للرسول ﷺ، عند ابن عباس، ومجاهد، والجبلي: "إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ" أي "الذي أوجب عليك الامتثال بما تضمنه القرآن ونزله عليك.. لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ" أي: "يردّك إلى مكّة". وقد صدقت الآية. وقال القتيبي: "مَعَادُ الرَّجُل، بلده، لأنّه يتصرّف في البلاد ثم يعود إليه... وقيل إلى مَعَاد: إلى الموت". وبعضهم اعتبر "المعاد": يوم القيامة. وبعضهم الآخر اعتبر "المعاد": الجنة.

بأنها تعني أن محمداً ﷺ سيعود إلى الأرض. وراح يرتدّها، ويقول: "العجب ممّن يزعم أن عيسى يرجع، ويكذب بأن محمداً ﷺ يرجع"...

وإذ ارتاح الناس لأن يجدوا مسلماً منهم يبشّر بعودة نبيهم ثانية إلى الحياة، وهناك وفرة قليلة المعرفة بتفسير الآيات القرآنية، تبعه بعضهم. وراح ابن سبأ يوسّع دعوته بسماتٍ سياسية كفيفة بتغيير الحكم وتبديله، ما زاد النفوس ارتياحاً إليه، بسبب استيائهم من الحكم القائم... وسرعان ما راح ابن سبأ يتقدّم من أنصار عليّ ابن أبي طالب ﷺ ومريديه في البصرة، ويفسّر مبدأه ويؤوِّله ويلخصه بالتالي:

"إنه كان ألفا نبيّ ولكلّ نبيّ وصيّ. وكان عليّ ﷺ وصيّ محمّد ﷺ، ومحمّد ﷺ خاتم الأنبياء، وعليّ ﷺ خاتم الأوصياء. فمن أظلم ممّن أظلم ممّن لم يُجزِ وصيّة رسول الله ﷺ ووثب على وصيّ رسول الله ﷺ، وتناول أمر الأمة"<sup>١</sup>.

يفسّر الشيعة هذا الكلام بأنّه حقّ أريد به باطل. إلّا أنّه كلام نزل في نفوس العامّة منزلة الرضى... وإذا كان فيهم من لم ترتح نفسه إلى "الرجعة" فقد سرّه في الدعوة المسلمة بوصيّة رسول الله ﷺ استخلاف ابن عمّه وصهره عليّ بن أبي طالب ﷺ...

وحين لقيت دعوة ابن سبأ أذاناً صاغية وقلوباً منفتحة... "فرّق أنصاره في البلاد والأمصار، ينتشرون هذا المذهب ويدعون له من بعد أن يخطّط طرق العمل بعد الكلام". وقد قال لهؤلاء الأنصار: "إنّ عثمان قد أخذها بغير حقّ" ثم قال: "هذا عليّ ﷺ وصيّ رسول الله ﷺ، فانهضوا في الأمر فحركوه، وابدأوا بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس"<sup>٢</sup>...

١ - الإمام عليّ في فضائله (مجهول المؤلف) منشورات مكتبة "الحياة" (بيروت، لا.ت.) ص ٩٤ - ١٠٠.

٢ - المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ٨٧.

وعندما رأى والي البصرة الفتى، أن دعوة ابن سبأ قد اتسعت وكثر أتباعه، نفاه من البصرة. فخرج هذا الأخير إلى الكوفة، مسروراً، ليبثّ دعوته في الكوفة. بيد أن والي الكوفة سعيد بن العاص طرده، بعد أن تمكّن ابن سبأ من تدعيم مذهبه هناك، فانتقل إلى الشام. ولكن معاوية، هو الآخر، قد سارع إلى إبعاده عن الشام "وحرّم عليه المكوث في كلّ البقاع التابعة لها"... وينتهي المطاف بابن سبأ في مصر، وهناك حطّ رحاله، وأخذت دعوته تنمو وتنتشر حتّى أصبحت مصر مقراً رئيسياً للسبئيين.

\*\*\*

إنّ: كلّ الأجواء تلبّدت في سماء الخلافة، وأصبحت التربة مهيأة تماماً لبذور الثورة الأولى في الإسلام. فكيف جرت؟

حدث ذلك في السنة ٣٥ للهجرة (٦٥٥م) من دون مقتّمات. فقد جاءت الوفود، في وقت واحد، من الأمصار، إلى المدينة. فسار "مالك بن الحارث النخعيّ من الكوفة في مائتي رجل. وحكيم بن جبلة العبديّ من البصرة في مائة رجل. وعبد الرحمن بن عديس البلويّ من مصر بستمائة رجل. كذلك قدم من مصر، عمرو بن الحمق الخزاعيّ، وسودان بن حمران التجيبيّ، ومعهم... محمّد بن أبي بكر، الذي كان تكلم بمصر، وحرّض الناس على عثمان"... والذي سيكون له اليد الطولى في مقتل الخليفة.

نزل هؤلاء جميعاً بذئ خشب من المدينة. ولا يذكر لنا التاريخ كيف حصل التواعد على هذه العاميّة. إلّا أنّ بعضهم روى أنّه "لما بلغ عثمان أن أهل مصر قدموا، وعليهم السلاح، وجّه إليهم عمرو بن العاص وكلمهم، فقال لهم: "إنّه - أي الخليفة - يرجع إلى ما تحبون"... ثم كتب لهم بذلك، وانصرفوا<sup>١</sup>.

١ - الليقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٧٤.

وبعضهم يذكر أن من كلفه عثمان بالتحث إلى المصريين، إنما هو علي بن أبي طالب عليه السلام إذ "بعث (عثمان) إلى علي بن أبي طالب عليه السلام، فأخبره وسأله أن يخرج إليهم ويضمن لهم كل ما يريدون من العدل وحسن السيرة. فسار علي عليه السلام إليهم، فكان بينهم خطب طويل فأجابوه إلى ما أراد وانصرفوا".<sup>١</sup>

إنما المتفق عليه، أن المصريين، قد غادروا متجهين إلى مصر، بعد حصولهم على وعد من الخليفة بأنه سيعدل. ولكنهم ما "أن صاروا في بعض الطريق، فإذا براكب على جمل يمر من هناك، فاشتبهوا به، وفتشوه، فوجدوا معه كتاباً من عثمان إلى عامله في مصر: عبد الله بن سعد، يطلب منه فيه أن يقطع أيدي أولئك الذين ساروا إلى المدينة وأرجلهم، فور عودتهم"<sup>٢</sup>. وعلم القوم "أن الكتاب بخط مروان (بن الحكم) فرجعوا إلى المدينة"<sup>٣</sup>... وكان على رأس هؤلاء "محمد بن أبي بكر، ومحمد بن أبي حذيفة، وكنانه بن بشر، وابن عديس البلوي"<sup>٤</sup>...

بعض الباحثين يعتقد بأن الخليفة بريء من هذه الرسالة، إذ لم يكن له علم بها. ومنهم من يقول بأنها مدسوسة. ومنهم من يعتقد بأنها من صنع مروان. إنما حامل الرسالة، على ما يبدو، كان "ورش... غلام عثمان"<sup>٥</sup> وبعضهم ذكره باسم "أبي الأعور ابن سيفان السلمي"<sup>٦</sup>.

١ - للمسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ٨٧.

٢ - اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٧٥.

٣ - للمسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ٨٨.

٤ - اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٧٥.

٥ - للمسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ٨٨.

٦ - للطبري، مرجع سابق، ١: ٢٩٦٤، ١: ٢٩٨٤.

على أيّ حال، فما حصل إثر ذلك، هو أن القوم عادوا ثائرين غاضبين إلى المدينة، حيث اجتمعوا إلى من قدم من العراق، وتوافقوا، ونزلوا المسجد، وراحوا يتداولون في الثورة. فاتفق رأيهم على محاصرة الخليفة حتى النهاية.

بدأ الحصار بمنع وصول الماء إلى قصر الخليفة الذي "أشرف على الناس وقال: "ألا أحد يسقينا؟".

وقال:

بماذا تستحلون قتلي وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: "لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إيمان أو زنى بعد إحصان أو قتل نفس بغير نفس"... والله ما فعلت ذلك في جاهليّة ولا في إسلام!

بلغ عليّاً عليه السلام طلب عثمان الماء، فبعث إليه بثلاث قرب ملأنة، فما وصل ذلك إليه حتى خرج من موالي بني هاشم وبني أمية جماعة وارتفع الصوت وكثر الضجيج وأحذقوا بداره بالسلاح وطالبوه بمروان؛ فأبى أن يخلّي عنه؛ وفي الناس بنو زهرة لأجل عبد الله بن مسعود لأنه كان من أحلافها، وهذيل لأنه منها، وبنو مخزوم وأحلافها لعمّار، وغفار وأحلافها لأجل أبي ذر، وتيم بن مرة مع محمد بن أبي بكر، وغير هؤلاء.. فلما رأى عليّ عليه السلام أنهم يريدون قتل عثمان، بعث بإبنائه الحسن والحسين مع مواليه بالسلاح إلى بابه، نصرته له، وأمرهم أن يمنعوه منهم. وبعث الزبير ابنه عبد الله، وبعث طلحة ابنه محمدًا، وأكثر أبناء الصحابة أرسلهم آبائهم إقتداء بمن ذكرنا، فصوّهم عن الدار، فرمى من وصفنا بالسهم. واشتدّ (واشتبك) القوم وجرح الحسن، وشجّ قنبر وجرح محمد بن طلحة، فخشي القوم أن يتعصّب بنو هاشم وبنو أمية، فتركوا القوم في القتال على الباب. ومضى نفر منهم إلى دار قوم من الأنصار فتسوّروا عليه (على عثمان)، وكان ممن وصل إليه محمد بن أبي بكر



ورجلان آخران. وعند عثمان زوجته وأهله ومواليه مشاغل بالقتال؛ فأخذه محمد بن أبي بكر بلحيته، فقال:

يا محمد والله لو رأيك أبوك لساءه مكانك!...

فترأخ يده وخرج عنه إلى الدار ودخل الرجلان فوجاه<sup>١</sup> فقتلاه، وكان المصحف بين يديه يقرأ فيه؛ فصعدت امرأته فصرخت:  
قد قُتل أمير المؤمنين...

ودخل الحسن والحسين ومن كان معهما من بني أمية وغيرهم فوجدوه قد فاضت نفسه، فبكوا.

فبلغ ذلك علياً عليه السلام وطلحة والزبير وسعدا وغيرهم من المهاجرين والأنصار، فاسترجع القوم، ودخل علي عليه السلام الدار وهو كالواله الحزين، فقال لابنيه:  
كيف قُتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب؟...

ولطم الحسن وضرب صدر الحسين وشم محمد بن طلحة ولعن عبد الله بن الزبير؛ فقال له طلحة:

لا تضرب يا أبا الحسن ولا تشتم ولا تلعن! لو دفع إليهم مروان ما قُتل...  
وهرب مروان وغيره من بني أمية وطُلبوا ليُقتلوا فلم يوجدوا. وقال علي عليه السلام  
لزوجته (زوجة عثمان) نائلة بنت الفرافصة:  
من قتله وأنت كنت معه؟

---

١ - وجأ فلانا بالسكين لو بيده: ضربه في أي موضع كان.

فَقَالَتْ:

دخل إليه رجلاً... وقصّت خبر محمد بن أبي بكر في دخوله إليه وما خاطبه به عثمان، فأحضر محمد بن أبي بكر فلم ينكر ما قالت وقال:

والله لقد دخلت عليه وأنا أريد قتله، فلما خاطبني بما قال خرجت ولا أعلم بتخلف الرجلين عني. والله ما كان لي في قتله من سبب ولقد قُتل وأنا لا أعلم بقتله<sup>١</sup>.

\*\*\*

إذا كان بالإمكان اختصار خبر حصار دار الخليفة، قبل قتله، في سطور، فإنّ "مدة ما حوَصر عثمان في داره كانت تسعاً وأربعين يوماً، وقيل أكثر من ذلك"<sup>٢</sup>. وفي أمد كهذا، لا بدّ من أن يكون قد حدث الكثير...

من ذلك مثلاً، أنّ الخليفة قد أرسل مروان بن الحكم إلى أمّ المؤمنين: عائشة، مستغيثاً. فقال: "يا أمّ المؤمنين لو قمت فأصلحت بين هذا الرجل وبين الناس!". قالت: "قد فرغت من جهازي، وأنا أريد الحجّ". قال: "فيدفع إليك بكلّ درهم أنفقته درهمين". قالت: "لعلّك ترى أنّي في شكّ من صاحبك؟ أمّا والله لو ددت أنّه مقطّع في غرارة من غرائري، وأنّي أطيق حمله، فأطرحه في البحر"<sup>٣</sup>.

سبب ذلك أنّه "كان بين عثمان وعائشة مناصرة، ذلك أنّه نقصها ممّا كان يعطيها عمر بن الخطّاب، وصيرها أسوة غيرها من نساء رسول الله ﷺ؛ فإنّ هذا الخليفة قام يوماً ليخطب إذ دلّت عائشة قميص رسول الله ﷺ، ونادت: "يا معشر المسلمين! هذا

---

١ - المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ٨٩ - ٩٠.

٢ - المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ٩٠.

٣ - الطبري، مرجع سابق، ٢: ١٧٦.

جلباب رسول الله ﷺ لم يُبَلِّ، وقد أبلى عثمان سنته!". فقال: "ربّ اصرف عني كيدهنّ إن كيدهنّ عظيم"<sup>١</sup>.

وقيل إنّ كان طرق "مسمعها التدهور الخلقي بين الناس، فنقمت على عثمان لأجله، وراحت ترميه بكلّ ما يثير عليه النفوس، ولم تقف هذا الموقف وهي الحافظة لتراث الرسول ﷺ ولها من العلم ما يجعل رأيها في عثمان حكماً قاطعاً مبرماً ليس له من ينقضه أو يغضّ منه. وأطلقت عائشة لسانها ينال من عثمان وراحت تؤلّب الناس ثورة ونقمة على عثمان، فعمدت إلى قميص لرسول الله ﷺ ونشرته في بيتها وكلّما مرّ به أحد قالت: "هذا قميص رسول الله ﷺ لم يبَلِّ وقد أبلى عثمان سنته"<sup>٢</sup>.

\*\*\*

وإذا كان الرواة يختلفون في من حرّض وخطّط للثورة على عثمان، فإنهم لا يختلفون في خبر تلك معاوية عن نصرته. ويذكر جلهم أنّ الخليفة، وهو محاصر، وأكثر من يؤلّب عليه طلحة والزبير وعائشة، كتب إلى معاوية يسأل تعجيل القدوم عليه، فتوجّه إليه في اثني عشر ألفاً، ثم قال (معاوية):

"كونوا بمكانكم في أوائل الشام، حتّى آتي أمير المؤمنين لأعرف صحّة أمره.

"فأتى (معاوية) عثمان، فسأله عن المدة (المدد) فقال:

"قد قدمت لأعرف رأيك وأعود إليهم فأجيبك بهم.

---

١ - الليقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٧٥.

٢ - الإمام عليّ في فضائله، مرجع سابق، ص ١٠٠ - ١٠١.

قال (عثمان):

"لا والله، ولكنك أردت أن أقتل فتقول: - أنا وليُّ الثأر... إرجع، فجئتني بالناس!...  
"فرجع... ولم يعد إليه حتَّى قُتل"¹.

\*\*\*

على أيِّ حال، فإنَّ المحظور قد وقع، وكان مقتل الخليفة الأمويِّ، عثمان بن عفَّان، ثالث الخلفاء الراشدين، "لا تَنَتِّي عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة سنة ٣٥ (١٧) حزيران - يونيو سنة ٣٦٥٦" وهو ابن ثلاث وثمانين سنة، وقيل ست وثمانين... وكان الذين تولَّوا قتله: محمد بن أبي بكر، ومحمد بن أبي حنيفة، وابن حزم، وقيل كنانة بن بشر التجيبي، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وعبد الرحمن بن عديس البلوي، وسودان بن حمران...

وأقام ثلاثاً لم يدفن، وحضر دفنه حكيم بن حزام، وخُبَيْر بن مطعم، وحويطب بن عبد العرِّي، وعمرو ابن عثمان. ونُفِن بالمدينة ليلاً في موضع يُعرف بحشّ كوكب⁴. وفيه مقابر بني أمية، ويُعرف أيضاً بحله⁵.

وكان لعثمان "من الولد: عبد الله الأكبر، وعبد الله الأصغر، أمهما رقية بنت رسول الله ﷺ؛ وأبان، وخالد، وسعيد، والوليد، والمغيرة، وعبد الملك، وأمَّ أبان، وأمَّ

---

١ - اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٧٥.

٢ - اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٧٦.

٣ - حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٦٤.

٤ - اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٧٦.

٥ - المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ٧٥.

سعيد، وأمّ عمرو، وعائشة<sup>١</sup>.

\*\*\*

بمقتل عثمان، بدأ صراع خطير في الإسلام، لن تقتصر عواقبه على الخلافة، بل ستتعدّها إلى نشوء المذاهب والطوائف والملل، ليس في مدّة محدّدة، بل على مدى الأجيال اللاحقة.

---

١ - المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ٧٥؛ قابل اليعقوبي الذي لم يذكر عبدالله الأكبر وعبدالله الأصغر والمغيرة، بل قال إنّ كان له من الولد الذكور سبعة: عمرو وعمر وخالد وأبان والوليد وسعيد وعبد الملك.



## عهد الإمام عليّ

مبايعة عليّ؛ تعيينات العهد الجديد؛

يوم الجمل؛

صيفين؛ التحكيم؛ محضر التحكيم؛

الإقسام.





## مبايعة عليّ

أدرك عليّ بن أبي طالب عليه السلام قبل تسنّمه سدة الخلافة أنّ أحداثاً مقلقة تنتظره. ونستشفّ هذا الإدراك من قوله لمن كانوا يطلبون منه القبول بالولاية: "ألا فاعلموا أنّي إن أحببتكم، ركبت بكم ما أعلم"<sup>١</sup>. وقد يكون إدراكه هذا، سبباً رئيسياً في تردده بقبول تولّي الخلافة بعد عثمان.

والواقع، أنّه لم يكن إنسان مثل عليّ عليه السلام في ورعه وتقواه، وحفاظه على الشعائر الإسلامية، وفي تزّهده في عيشه وانصرافه عن ملاذ الدنيا... كما أنّ لعليّ عليه السلام سجلاً رائعاً في الأعمال البطوليّة في الحرب، بدأ بموقعة بدر، التي أبلى فيها بلاء حسناً وأصبح بعدها حامل راية النبي صلى الله عليه وآله؛ وكان سيفه "نو الفقار" مضرب المثل<sup>٢</sup>. وإنّ رجلاً ورعاً تقيّاً محافظاً مترهّداً شجاعاً محارباً وأبياً، لا يمكن، إذا ما ترأس سلطة، إلّا أن يكون محارباً... ومحارباً. وقد يكون هذا ما جعل عمر بن الخطّاب، الذي تنبأ بالثورة على عثمان، وصدق، يتنبأ بحروب عليّ عليه السلام، إذ قال يوماً: "إنّ عليّاً... لأحقّ الناس بها، ولكنّ قریشاً لا تحتمله، ولئن وليهم ليأخذنهم بمرّ الحقّ لا يجدون عنده رخصة؛ ولئن فعل لينكسّن بيعته ثمّ ليتحاربين"<sup>٣</sup>.

١ - الإمام عليّ وفضائله، مرجع سابق، ص ١٦٧.

٢ - حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٦٤.

٣ - اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٥٩؛ راجع الجزء التاسع عشر من هذه الموسوعة.

بعد مقتل عثمان "احتشد في المسجد، بالمدينة، جمع غفير من الناس، فيهم الصحابة، ومنهم طلحة والزبير وسعد، وفيهم عدد وافر من أهل الكوفة والبصرة والمصريين. ونهض رجل من المصريين يقول: "يا أهل المدينة، إنكم أهل الشورى وأنتم تعقدون الإمامة وأمركم عابر على الأمة، فانظروا رجلاً تتصّبونه ونحن لكم تبع". فتعالت الهتافات من كل صوب: "عليّ، عليّ بن أبي طالب نحن به إخوان". ثم يتابع ذلك الرجل قوله: "قدونكم، وإنّا لمؤجّلوكم يومين اثنين، فوالله لئن لم تفرّغوا لنقتلنّ غدًا عليًا وطلحة والزبير وأناسًا من رجالكم كثيرين".

وبينما كانت الوفود تتوالى إلى المسجد، حتّى غصّ وباحاته بالجموع، يتبادلون الآراء ويتذاكرون في أمر الخلافة، قام صحابي من المسلمين الأوائل، كان أقرب المقربين إلى النبي ﷺ، والداه أول شهيدَيْن في الإسلام، ماتا في التعذيب في مكّة قبل هجرة الرسول ﷺ، هو: عمّار بن ياسر يقول: "أيّها الناس، قد سار فيكم عثمان بالأمر إلى ما رأيتموه، وأنتم اليوم على شرف من الوقع في مثله، إن لم تنظروا لأنفسكم. وإنّ عليًا أولى الناس بهذا الأمر لفضله وسابقته". فعلت الأصوات: "رضينا به" ... ومضت طوائف من هذه الجموع، وفيهم طلحة والزبير، إلى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو معتزل في بيته لا يبرحه، فأحاطوا بداره حتّى أخرجه والتفّوا حوله يهيبون به أن يقبل مبايعتهم ... غير أنّ عليًا رضي الله عنه أجابهم "لا... فإن أكون وزيرًا خير من أن أكون أميرًا". وكان الهتاف: "أنت، أنت لنا رضى". ويصرّ عليّ رضي الله عنه: "لا حاجة لي في أمركم أيّها الناس. أنا معكم فمن اخترتم فقد رضيت" ... ويبرز من بينهم الأمير الشاعر، مالك بن الحارث الأشتر النخعي، ويخاطب عليًا رضي الله عنه بشيء فيه نبوة، إلّا أنّها لم تُغضب عليًا. قال الأشتر: "والله لتمنّ يدك نبايعك أو لتعصرنّ عينك عليها ثالثة". ومن جواب عليّ رضي الله عنه هنا، يبرز الإدراك الذي كان يمنعه عن الإقدام على القبول، فيقول: "دعوني

والتمسوا غيري أيها الناس. إنا مستقبلون أمراً له وجوه وله ألوان، لا تثبت عليه العقول ولا تقوم له القلوب".

واستمرت المناشدة من قبل الجموع، إلى أن قال عليّ عليه السلام، بعد لأي، كلمته الأخيرة:

"قد أحببتكم لما أرى منكم. ألا فاعلموا أنني إن أحببتكم ركبتم بكم ما أعلم، وإن تركتموني لإنما أنا كأحدكم، بل أنا أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم".

فصاح الجميع: "ما نحن بمفارقيك حتى نبايحك". وكان موعدهم، الغد، في المسجد، وتفرقت الجموع.

ما كاد يشرق صباح الجمعة ١٨ ذي الحجة سنة ٣٥ لهجرة النبي صلى الله عليه وآله (حزيران - يونيو ٦٥٦) حتى كانت الحشود تحفّ بدار عليّ عليه السلام، إلى أن خرج، فالتفوا حوله، ومشوا به إلى المسجد في عاصفة من التهليل والتكبير. وسط هذا الحماس، وصلوا المسجد، فصعد عليّ عليه السلام المنبر، ورحاب المسجد تضيق بال جماهير، وقال:

"يا أيها الناس، (...) إن هذا أمركم، ليس لأحد فيه حق إلا من أمرتم، وقد افترقنا بالأمس على هذا الأمر، فإن شئتم قعدت لكم، وإلا فما أجد على أحد". وعلا هتاف: "نحن على ما فارقناك بالأمس".

ويتابع عليّ عليه السلام قوله:

"ألا إنني كنت كارهاً لأمركم، فأبيئتم إلا أن أكون عليكم، رضيتم؟"

- "تبايعك على كتاب الله"

ويقول عليّ عليه السلام:

"اللهم إشهد عليهم"<sup>١</sup>.

وكانت المبايعة.

كان أول من بايعه وصفق على يده، الصحابي القرشي التميمي، أحد العشرة المبشرة، وأحد أغنياء قريش: طلحة بن عبيد الله، الذي كان يلقب بطلحة الفياض، وطلحة الجود، لسخائه.

ثم الأستر الذي قال: "أبايعك يا أمير المؤمنين على أن عليّ بيعة أهل الكوفة". ونهض صحابي آخر، قريشي أسدي، ابن عمّة الرسول ﷺ... وعليّ رضي الله عنه. اعتنق الإسلام بأول صباه، وكان هو الآخر، أحد العشرة المبشرة. قاتل في جميع غزوات النبي ﷺ، وكان من أهل الشورى في انتخاب عثمان. إنه: الزبير بن العوام. وبايع، مع طلحة - مرة ثانية - بالقول: "تبايعك يا أمير المؤمنين على أن علينا بيعة المهاجرين". ثم قام أبو الهيثم بن التيهان، وعقبة بن عمرو، وأبو أيوب، وبايعوا، "على أن عليهم بيعة الأنصار، وسائر قريش"<sup>٢</sup>.

وبايع الجميع، من مهاجرين وأنصار، باستثناء ثلاثة من قريش: أحدهم مروان بن الحكم<sup>٣</sup>، وسعيد بن العاص، والوليد بن عقبة. أولئك كانوا: حزب عثمان.

وهنا، كان أول غيث الأيام العسوية. واتضح أن بني أمية، لم ينسوا ما كان من حمزة<sup>٤</sup>، وعليّ رضي الله عنه، لما صرع أكبر رجالهم في يوم بدر. وأمام هذا الواقع، يجب ألا

١ - راجع: الإمام عليّ وفضائله، ص ١٥٥ - ١٦١.

٢ - من المستغرب أن يكون مروان بن الحكم في المبايعة، في الوقت الذي ذكر فيه المؤرخون أنه كان فاراً من الجموع الذين كانوا يطلبونه ليقتلوه<sup>٥</sup> لما قتلوا عثمان، إلا أن هذا ما ورد في المدونات!

٣ - حمزة بن عبد المطلب (٢٣٠هـ / ٦٢٥م): عم النبي ﷺ، من سادات قريش في الجاهلية وصدر الإسلام، قاتل في بدر واستشهد في أحد.

يكون بنو هاشم قد نسوا ما كان من هذا<sup>١</sup> حين لاكت كبد حمزة ومثلت به يوم أحد. وإذا كان حمزة قد استشهد، فإن علياً عليه السلام اليوم، في يوم مبايعته.

قال الوليد بن عقبة، وهو أخ عثمان لأمه، متحدثاً باسم حزب عثمان، موجّهاً كلامه لعلي عليه السلام: "يا هذا، إنك قد وترتنا جميعاً. أما أنا فقتلت أبي صبراً يوم بدر، وأما سعيد فقتلت أباه يوم بدر، وكان أبوه من نور قریش، وأما مروان فشتت أباه وعبت على عثمان حين ضمّه إليه... على ذلك بنو عبد مناف، فتبايعنا على أن تضع عنا ما أصبنا وتعفي لنا عما في أيدينا، وتقتل قتلة صاحبنا (عثمان)".

يمكن تصوّر جرأة الوليد بن عقبة في هذا المقام. ذلك ليس فقط، أنه وجّه مثل هذه الشروط لعلي عليه السلام، في مثل هذه المناسبة، ولكن، خاصّة، لأنّ الجموع التي كانت تحيط بالمسجد والمدينة، كانت مهتأة تماماً لأسوأ الاحتمالات! وقد كانت إشارة من علي عليه السلام، كافية من أجل وضع حدٍّ مخيف لمثل هذه الجرأة.

غضب علي عليه السلام، ولكنه تمالك نفسه، وأجاب:

أما ما ذكرت من ونّري إياكم، فالحق وتركم؛ وأما وضعي عنكم ما أصبتم، فليس لي أن أضع حقّ الله تعالى؛ وأما إعفائي عما في أيديكم، فما كان لله وللمسلمين فالعدل يسعكم؛ وأما قتلي قتلة عثمان، فلو لزمني قتلهم اليوم لزمني قتالهم غداً، ولكن لكم أن أحملكم على كتاب الله وسنة نبيّه، فمن ضاق عليه الحق، فالباطل عليه أضيق، وإن شئتم فالحقوا بملاحقكم.

---

١ - هند بنت عتبة (ت ١٤هـ / ٦٣٥م): صحابية عالية الشهرة، زوجة أبي سفيان ولم معلوية مؤسس الخلافة الأموية، حرّضت المكيين على مقتل النبي ﷺ في بدر ولحد وقالت شعراً كثيراً في رثاء المشركين، ثم أسلمت وشهدت معركة اليرموك.

إستدراكاً لنتائج هذا الموقف الصارم، تفتّق دهاء مروان عن موقف مناسب، فقال:  
"بل نبايحك، ونقيم معك، فترى ونرى"<sup>١</sup>.

وعقب ذلك خطّب المديح، بعليّ عليه السلام، من قبل بعض مبايعيه.

## تعيينات

### العهد الجديد

عندما تسلّم عليّ بن أبي طالب عليه السلام الخلافة الرابعة للمسلمين بعد الرسول ﷺ، كانت تشكيلة عثمان، على الأمصار، كما يلي:

على اليمن: يعلى بن منبّه التميمي؛ وعلى مكّة: عبد الله بن عمرو الحضرمي؛  
وعلى همذان: جرير بن عبد الله البجلي؛ وعلى الطائف: القاسم بن ربيعة  
التقفي؛ وعلى الكوفة: أبو موسى الأشعري؛ وعلى البصرة: عبد الله بن عامر بن  
كريز؛ وعلى مصر: عبد الله بن سعد بن أبي سرح؛ وعلى الشام: معاوية ابن أبي  
سفيان<sup>٢</sup>.

وبينما كان الخليفة الجديد في صدد دراسة أمر الولاية، جاءه تقفيّ من دهاة العرب،  
صحابي، قاتل في وقعة اليمامة وفي فتوح الشام وفارس، كان ولّاه عمر البصرة  
والكوفة، وعزله عثمان. إنه المغيرة بن شعبة. جاء عليّاً عليه السلام، ونصحه بالأعزل  
عمّال عثمان في أول سنة من عهده، بل بأن يكتب إليهم بتثبيتهم على أعمالهم، فإذا

١ - راجع: اليقوي، مرجع سابق، ٢: ١٧٩.

٢ - اليقوي، مرجع سابق، ٢: ١٧٦.

"بايعوا لك واطمان أمرك عزلت من أحببت وأقرت من أحببت". غير أن جواب علي رضي الله عنه الذي ينم عن حقيقة شخصيته، كان: "والله لا أدهن في ديني ولا أعطي الرياء في أمري".

عندها، نصحه المغيرة بالألّا يعزل معاوية، على الأقل: "فإن له جراءة... وهو في أهل الشام مسموع منه، ولك في إثباته حجة: فقد كان عمر ولآه الشام كلها". أجاب علي رضي الله عنه: "والله لا أستعمل معاوية يومين أبدًا"<sup>١</sup>.

وبخلال استشاراته هذه، أخبر علي رضي الله عنه ابن عمه عبد الله بن عباس، الملقب بـ "خبر الأمة" لما كان عليه من صوابية الرأي، أخبره عن نصيحة المغيرة له، فأشار ابن العباس عليه "بأن يثبت معاوية: فإن بايعك فعلي أن أقلعه من منزله". فقال علي رضي الله عنه: "والله لا أعطيه إلاّ السيف"؛ وعندما قال له ابن العباس: "يا أمير المؤمنين أنت رجل شجاع، أما سمعت رسول الله يقول: الحرب خدعة؟"؛ وعند ردّ علي رضي الله عنه بالإيجاب، استأنف: "أما والله لئن أطعنتي لأصدرنّ بهم بعد وردٍ ولأتركنهم ينظرون في أبار الأمور ولا يدرون ما كان وجهها في غير نقص لك ولا إثم عليك". إلاّ أن جواب علي رضي الله عنه كان: "يا ابن عباس، لست من هنالك ولا من هنات معاوية في شيء. تشير به عليّ برأي فإذا عصيتك فأطعني".

ويروي ابن العباس كلّ هذا، ويقول إنّه هنا، أجاب عليًا رضي الله عنه بقوله: "أنا أفعّل، فإنّ أيسر ما لك عندي الطاعة"<sup>٢</sup>.

١ - راجع: المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ٩٩ - ١٠٠؛ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٨٠؛ الطبري، مرجع سابق، ١: ٣٠٨٥.

٢ - راجع: المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٠١.

قبل أن يتخذ عليّ عليه السلام قراره النهائي بشأن معاوية، كان قد عزل أكثر عمال عثمان عن البلدان، ولم يثبت منهم سوى أبي موسى الأشعري، الذي كَلَّمه فيه الأُستر، فأقره؛ وولّى قثم بن العباس مَكَّةَ؛ وعبيد الله بن العباس اليمن؛ وقيس بن سعد بن عبادة مصر؛ وعثمان بن حنيف الأنصاري البصرة؛ وأتاه طلحة والزبير فقالا: إنه قد نالنا بعد رسول الله جفوة، فاشركنا في أمرك. فقال: أنتمأ شريكاي في القوة والاستقامة، وعوناي على العجز والأود... وروى بعضهم أنه ولّى طلحة اليمن، والزبير اليمامة والبحرين، فلما دفع إليهما عهديهما قال لاه: "وصلتك رحم!" قال: "وإنما وصلتكما بولاية أمور المسلمين"... واستردَّ العهد منهما، فعتبا على ذلك، وقالوا: "أثرت علينا!". فقال: "لولا ما ظهر من حرصكما لقد كان لي فيكما رأي"¹.

## يَوْمُ

## الْجَمَلِ

قبل أن يتمَّ عليّ عليه السلام تشكيلته الجديدة للولاة، واجهته مشكلة طارئة، ربَّما كانت في حساباته، ولكن، ليس إلى هذا الحدّ. إنها تلك المشكلة التي أنتت إلى أحد أرهَب أيام الإسلام: يوم الجمل.

في الوقت نفسه، ظهر تمرّد معاوية في الشام، إذ أرسل هذا الأخير، إلى الخليفة الجديد، بدل المبايعة، قائلاً:

"سلم قتل عثمان خليفة الرسول الذي بايعته الأمة أولاً، فإنك شريك لهم في الجريمة"².

١ - الطبرقي، مرجع سابق، ٢: ١٧٩ - ١٨٠.

٢ - حنّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٦٥.



وكان معاوية يُخرج قميص عثمان الملوّث بالدم، وأصابع زوجته نائلة التي قُطعت حين اتّقت ضربة السيف عنه عندما قُتل وهو يقرأ القرآن الذي كان قد جمعه. وكان المصحف الذي جمعه عثمان، القرآن المعترف به، وقد سال دم عثمان فُلطَخ صحائف القرآن الكريم ومنها الآية: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَكَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾<sup>١</sup>.

وجاء مَنْ يخبر عليّاً عليه السلام بما ظهر من أمّ المؤمنين: عائشة، عندما علمت بمبايعته خليفة على المسلمين، وهي في طريق عودتها من الحجّ في مكة، إلى المدينة.

فما أن قالوا لها بأنّ عثمان بن عفّان قُتل، وبويع بعده عليّ بن أبي طالب عليه السلام، حتّى قالت: "والله ما كنت أبالي أن تقع هذه على هذه". ثم رجعت إلى مكة.

وفجأة، أتاه طلحة والزبير يستأذنانه السفر، قائلين: "إنّا نريد العمرة، فأذن لنا في الخروج..." وبعد خروجهما، يُروى أنّ عليّاً عليه السلام قال: "والله ما أرادا العمرة، ولكنهما أرادا الغدرة"<sup>٢</sup>. وكان عليّ عليه السلام قد ردّ عليهما مشكّكاً وهما في صدد استئذانه: "لعلكما تريدان البصرة أو الشام؟". فأقسما أنّهما لا يقصدان غير مكة<sup>٣</sup>.

وهناك، إلّام شمل كلّ من أمّ المؤمنين: عائشة، وعامل البصرة المخلوع من قبل عليّ: عبد الله بن عامر، وعامل اليمن المخلوع أيضاً: يعلى منبّه، ومروان ابن الحكم، إضافة إلى طلحة والزبير، وبعض من بني أميّة.

كان أول مَنْ حرّض على المطالبة بدم عثمان، يعلى بن منبّه، الذي كان قد تهيّأ للتمرد، وجاء من اليمن هارباً... مزوداً بالأموال. "فأعطى عائشة وطلحة والزبير

١ - سورة البقر، ١٣١.

٢ - الليثوي، مرجع سابق، ٢: ١٨٠.

٣ - المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٠٢.

أربعمئة ألف درهم وكراعًا وسلاحًا، وبعث إلى عائشة بالجمل المسمّى عسكريًا، وكان شراؤه عليه باليمن مائتي دينار".

بعد المداولة قرّر المجتمعون في مكة الانتقال إلى دمشق، للانضمام إلى معاوية، وبدء الانقضاض على عليّ عليه السلام من هناك. إلا أن ابن عامر، عارض ذلك بقوله: "إن معاوية، لا ينقاد إليكم ولا يعطيكم من نفسه النصفة، لكن هذه البصرة، لي بها صنائع وعدد... فجهّزهم بألف ألف درهم، ومائة من الإبل، وغير ذلك. فسار القوم نحو البصرة في ستمائة راكب.

ويُجمع المؤرّخون على أنه عند وصول القوم إلى نبع، أو بئر، لبني كلاب، يُعرف بالحوأب، وكان عليه أناس من بني كلاب "عوت كلابهم على الركب، فقالت عائشة: ما اسم هذا الموضع؟ فقال لها السائق لجمالها: الحوأب، فاسترجعت وذكرت ما قيل لها في ذلك، وقالت: رتوني إلى حرم رسول الله... لا حاجة لي في المسير. فقال الزبير: - والله ما هذا الحوأب... وقد غلط فيما أخبرك به! - وكان طلحة في ساقية الناس فلحقها فأقسم بالله تعالى أن ذلك ليس بالحوأب. وشهد معهما خمسون رجلاً ممن كان معهم، فكان ذلك أول شهادة زور أقيمت في الاسلام..."

ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان قد قال لعائشة يومًا: "لا تكوني التي تنبحك كلاب الحوأب"<sup>١</sup>.

تمكّن طلحة والزبير من إقناع أمّ المؤمنين عائشة باستئناف المسير، وهي التي كان "النبيّ صلى الله عليه وآله قد تزوّج منها وهي صغيرة السنّ لا تزال تلهو بالدمى التي جاء بها من بيت أبيها أبي بكر. وكانت تضمّر البغضاء لعليّ عليه السلام بسبب حادثة جرت لها يوم تخلّفت عن

١ - راجع: الطبرقي، مرجع سابق، ٢: ١٨١؛ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٠٢ - ١٠٣.

الموكب عندما كانت في سفر مع الرسول ﷺ. فارتاب علي عليه السلام في سلوكها، ونزل الوحي ببراعتها<sup>١</sup>. ولكنها لم تتس ذلك لعلي<sup>٢</sup>.

وصل القادمون من مكة، البصرة وعلى رأسهم أم المؤمنين، فخرج إليهم عامل علي عليه السلام: عثمان بن حنيف. وبعد قتال قصير، تم التوافق على كفا الحرب إلى حين قدوم علي عليه السلام. لكن القادمين من مكة "غدروا بعامل علي عليه السلام"، فأسروه، وנתقوا لحيته، وشاربه، وأسفار عينيه، وحاجبيه، وانتهبوا بيت المال، وأخذوا ما فيه... وراح يصلي بالناس طلحة يومًا والزبير يومًا، بعد أن حصل خلاف بين الإثنين وكل منهما يريد الصلاة، إلى أن أفتت عائشة بالمداورة<sup>٣</sup>.

أمام هذا الواقع، وإذ كان الخليفة الجديد بخلاف أسلافه وبخلاف الذين أتوا بعده، يقود جنوده بنفسه، انطلق علي عليه السلام ليقمع الفتنة، فسار من المدينة على رأس سبعمئة مقاتل، منهم أربعمئة من المهاجرين والأنصار، بينهم سبعون من الذين اشتركوا بواقعة بدر إلى جانب الرسول ﷺ، والباقيون من الصحابة. واستخلف على المدينة ابن حنيف الأنصاري. وقصد الربرة، بين مكة والكوفة، طالبًا طلحة والزبير وأصحابهما. غير أن هؤلاء كانوا قد فاتوه إلى العراق، فاتجه بطلبهم. ولحق بعلي عليه السلام جماعة من الأنصار من أهل المدينة... وكان علي عليه السلام كاتب من الربرة أبا موسى الأشعري ليستنفر الناس، لكن هذا الأخير رفض إطاعة الخليفة قائلاً: "إنما هي فتنة". وعندما بلغ عليًا عليه السلام موقف أبي موسى، كتب إليه: "اعتزل عملنا يا ابن الحائك مذمومًا مدحورًا، فما هذا أول يومنا منك، وإن لك فينا لهنات وهنات"... وولى مكانه على الكوفة قرظة بن كعب

١ - راجع: سورة النور، ١١: ٢١.

٢ - حنفي، صناعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٦٤.

٣ - المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٠٢ - ١٠٣؛ البيهقي، مرجع سابق، ٢: ١٨١.

الأنصاري، وأرسل ابنه الحسن وعمار بن ياسر يستفران الناس. وسار إلى ذي قار، حيث لاقاه الحسن وعمار ومعهما حوالى سبعة آلاف مقاتل من الكوفة، من بينهم الأشر. ومن هناك، توجه الجيش إلى البصرة، وفور وصوله، راسل علي رضي الله عنه القوم وناشدهم الاستسلام، إنما هم أبوا إلا قتاله. وقد أصرّوا على موقفهم رغم تكرار محاولة الخليفة "حقن دماء المسلمين"¹.

يُجمع المؤرخون على أن الثائرين على علي رضي الله عنه، كانوا البادئين بالقتال. واذ فشلت جميع محاولاته لإبعاد شبح الحرب، أمام إصرار مناوئيه، قام علي رضي الله عنه في الناس خطيباً، رافعا صوته يقول:

أيها الناس، إذا هزمتهم، فلا تجهزوا على جريح، ولا تقتلوا أسيراً، ولا تتبعوا مولياً، ولا تطلبوا مديراً، ولا تكشفوا عورة، ولا تملّوا بقتيل، ولا تهتكوا سترًا، ولا تقربوا شيئاً من أموالهم إلا ما تجدونه في عسكرهم من سلاح أو كراع أو عبد أو أمة، وما سوى ذلك فهو ميراث ورثتهم على كتاب الله تعالى.

وخرج علي رضي الله عنه بنفسه، حاسراً على بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله، فنادى:  
يا زبير أخرج إليّ.

فخرج إليه الزبير شاكاً سلاحه.

ف قيل ذلك لعائشة، فقالت: "واحزنك يا أسماء!". ف قيل لها إن علياً رضي الله عنه حاسر، فاطمأنت...

قال علي رضي الله عنه للزبير: "ما الذي أخرجك؟". قال: "دم عثمان". قال: "قتل الله أولادنا بدم عثمان! أما تذكر يوم لقيت رسول الله صلى الله عليه وآله في بني بياضة وهو راكب حماره

١ - المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٠٥ - ١٠٦.

فضحك إليّ رسول الله ﷺ وضحكت إليه وأنت معه، فقلت أنت: يا رسول الله ما يدعُ عليّ زهوه، فقال لك: ليس به زهوه، أحبّه يا زبير؟ فقلت إي والله إنّي لأحبه؛ فقال لك: إنك والله ستقاتله وأنت له ظالم؟.

فقال الزبير: "أستغفر الله لو ذكرتُها ما خرجت".

فقال له: "يا زبير إرجع".

فقال: "وكيف أرجع الآن وقد التقت حلقتا البطان؟" هذا والله العار الذي لا يُغسل!.

فقال: "يا زبير إرجع بالعار قبل أن تجمع العار والنار".

وإذ رجع، قال ابنه عبد الله: "أين تذهب وتذرنّا؟". قال: "ذكرني يا بنيّ بأمر كنت نسيته". فقال: "لا والله ولكن خفت من سيوف بني عبد المطلّب فإنّها طوال حداد تحملها فتية أنجاد". فقال: "لا والله ولكنّي ذكرت ما أنسانيه الدهر فاخترت العار على النار! أباللّجين تعيرني لا أبا لك!؟". ثمّ قلع سِنانه من قنّائه وشدّ في ميمنة عليّ عليه السلام فقال عليّ عليه السلام:

أفرجوا له فقد هاجوه.

ثمّ رجع فشدّ في المسيرة، ثمّ رجع فشدّ في القلب، ثمّ عاد إلى ابنه فقال "أيفعل هذا جبان؟". ثمّ مضى منصرفاً حتّى أتى وادي السباع والأحنف بن قيس معتزلاً في قومه من بني تميم؛ فأتاه آت فقال له: "هذا الزبير ماراً". فقال: "ما أصنع بالزبير وقد جمع بين فئتين عظيمتين من الناس يقتل بعضهم بعضاً وهو مارٌ إلى منزله سالماً؟". فلحقه

---

١ - مثل يضرب في اللحظة إذ بلغت النهاية.

نفر من بني تميم، وسبقهم إليه عمرو بن جرموز وقد نزل الصلاة، فقتله عمرو في الصلاة. وقيل إن الأحنف بن قيس قد أرسل من قتلته<sup>١</sup>. وكان الزبير قد بلغ إذ ذاك الخامسة والسبعين من عمره.

كان عليّ عليه السلام بعد أن ابتعد الزبير عن أرض المعركة، قد نادى طلحة:

"يا أبا محمد ما الذي أخرجك؟". قال: "الطلب بدم عثمان".

قال عليّ عليه السلام: "قتل الله أولادنا بدم عثمان! أما سمعت رسول الله يقول: اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وأنت أول من بايعني ثم نكث، وقد قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِثْوَتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾"<sup>٢</sup>

فقال: "أستغفر الله". ثم رجع. فقال مروان بن الحكم: "رجع الزبير ورجع طلحة. ما أبالي رميتُها هنا أم هنا؟" ورمى مروان طلحة في أكحله فقتله<sup>٣</sup>.

ما أن رمي طلحة، حتّى شنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام هجومه الشهير، وقد توسّع المدوتون في وصف بلائه الحسن في تلك المعركة التي جرت في التاسع من كانون الأول (ديسمبر) ٦٥٦، والتي عُرفت بيوم الجمل، لأنّ عائشة كانت تبعث الحماسة في نفوس الثائرين وهي راكبة ذلك الجمل الذي قدّمه لها يعلى بن منبه، ممول الثورة، وهنّفه الثار لدم عثمان.

١ - راجع الطبري، مرجع سابق، ١: ٣١٦١؛ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٠٧ - ١٠٨؛ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢:

١٨٢ - ١٨٣.

٢ - الفتح، ١٠.

٣ - المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٠٩.

على خطام هذا الجمل، قُطِع سبعون يداً من بني ضبّة، وكلّما قُطعت يد واحد منهم فصرع، قام آخر فأخذ الخطام وقال: - أنا الغلام الضبّيّ -.. ورمي هودج الجمل بالنشاب، والنبل، حتّى صار كأنّه قنْفَذ، وهو لا يقع، وقد قُطعت أعصابه وأخذته السيوف حتّى سقط... ولما - سقط الجمل ووقع الهودج، جاء محمّد ابن أبي بكر فأدخل يده فقالت - من أنت؟ فقال: "أقرب الناس منك قرابة وأبغضهم إليك: أنا محمّد أخوك؛ يقول لك أمير المؤمنين: هل أصابك شيء؟ قالت: ما أصابني إلّا سهم لم يضرّني. فجاء عليّ عليه السلام حتّى وقف عليها وضرب الهودج بقضيب وقال:

يا حُميراء أرسول الله أمركِ بهذا؟ ألم يأمركِ أن تقرّي في بيتكِ؟ والله ما أنصفك الذين أخرجوك إذ صاتوا حلائلهم وأبرزوك.

وأمر أخاها محمّداً بإنزالها دار صفيّة بنت الحارث، أمّ طلحة الطلحات<sup>١</sup>... وبعد انتهاء المعركة، أمر عليّ عليه السلام أن تُردّ عائشة أمّ المؤمنين إلى المدينة المنورة يرافقها حرس يليق بمكانتها. وكان من نبل عليّ عليه السلام أنّه جزع على منافسيه اللذين سقطا، طلحة والزبير، وبكاهما، ثم صلّى عليهما<sup>٢</sup>.

وقد ذكر الموتون والرواة، أنّه قُتل من أصحاب عليّ عليه السلام في هذه المعركة، حوالي خمسة آلاف نفس، ومن أصحاب الجمل من أهل البصرة وغيرهم ثلاثة عشر ألفاً<sup>٣</sup>. وبعد المعركة، أعطى عليّ عليه السلام الأمان لابن أخت عائشة: ابن الزبير عبد الله،

١ - المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١١٦.

٢ - حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٦٥.

٣ - المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١١٦.

ولمروان بن الحكم، ولوليد بن عقبة، ولأبناء عثمان، وسواهم من بني أمية، لا بل آمن  
الناس جميعاً. وقد كان نادى يوم الواقعة:

مَنْ ألقى سلاحه فهو آمن، ومَنْ دخل داره فهو آمن.

وكان من أبرز مَنْ قُتل في معركة الجمل، من أنصار عليّ عليه السلام: عمار بن ياسر،  
الذي بكاه عليّ عليه السلام من جملة مَنْ بكاهم من مشايحيه... وخصومه.

وبمقتل طلحة والزبير، وانكسار مروان بن الحكم، وخيبة الولاة الثائرين، لم يعد  
أمام الخليفة الثالث سوى خصم عنيد واحد لا بدّ من تصفية الحساب معه، هو والي  
الشام المتمرد: معاوية.



## ٣ صِفِين

بعد يوم الجمل الذي حَقَّق فيه عَلِيٌّ نصرًا ساحقًا على معارضيهِ الذين انضَوا جميعًا تحت لواء استتسبوه لهذه الغاية: لواء حزب عثمان، انتقلت هذه الراية إلى الشام، وأصبح على رأس هذا الحزب، عاملها المتمرّد، معاوية.

كان الخليفة الأول أبو بكر قد أرسل معاوية قائدًا للجيش في الشام، ثم ولّاه الخليفة الثاني عمر عليها، وأقرّه الخليفة الثالث عثمان على هذه الولاية... وهو ابن صخر بن حرب بن أميّة: أبي سفيان، الذي قاد المشركين ضدّ المسلمين، يوم كان عليّ عليه السلام يجاهد إلى جانب الرسول ﷺ. وإذا كان الإسلام قد جمع في ما بعد بين الهاشميين وبنِي أميّة، إذ أسلم أبو سفيان، والد معاوية، يوم فتح مكّة، يظهر للمحقّق أنّ الحقّ كان لا يزال دفينًا في النفوس بين الأمويّين والهاشميّين. واليوم، أصبح عليّ عليه السلام الخليفة، على رأس الهاشميّين، ومعاوية، عامل الشام المتمرّد، على رأس الأمويّين. أضف إلى ذلك أنّ معاوية كان يطمح بالخلافة، وقد أخفى ما كان يضمّره متحيّنًا الفرصة... وعندما حانت الفرصة، لم يبدُ معاوية للناس كرجل قام يطالب بالثار من قاتلي قريب له، بل تظاهر لهم أنّه يناصر الشرعيّة في أمر الخلافة<sup>١</sup>.

وبينما كان عليّ يجيِّس جيشه للزحف إلى الشام، بهدف تأديب المتمرّد معاوية، كان الأخير يستنفر أهل الشام لمقاتلة أهل العراق. وإذا كان العراقيّون، على ما بدا، قد

---

١ - حتّى، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٦٥.

تَحَمَّسُوا لمحاربة معاوية، رفضًا منهم للسيطرة الشامية، فإنَّ أهل الشام كانوا على استعداد للنضال من أجل هذه السيطرة.

ويختلف المؤرخون في عدد كلِّ من الجيشين اللذين جمع كلُّ منهما، عليّ عليه السلام ومعاوية، بيد أنَّ أكثرهم يتفق على أنَّ جيش عليّ عليه السلام قد بلغ حوالى تسعين ألفًا، جلَّهم من أهل العراق، وجيش معاوية، قد بلغ خمسة وثمانين ألفًا، وهم من الشام. كما أنَّهم يُجمعون على وصف هذه الحرب، التي عُرفت بمعركة صفين، بأنَّها معركة بين أهل العراق وأهل الشام.

وصفين، موضع على الحدود السوريَّة، على شاطئ الفرات الأيمن بين الرقة وإسكي مسكنة. ويبدو أنَّه كان يستحيل الحصول على الماء من النهر، في تلك المنطقة، لوعورة الضفة، إلَّا من موضع واحد، يُقال له "شريعة"، حيث يُمكن ورود الخيل.

سبق معاوية عليًّا عليه السلام بجيوشه إلى صفين، ووضع عند "شريعة" أربعين ألفًا من جنوده بقيادة أبي الأعور السلمي. وهذا الأخير سفياني، من كبار رجال معاوية، كان تولَّى فرقة من الجيش لحصار طبرية في معركة فحل بعد اليرموك واحتلال دمشق عام ٦٣٥.

وبوصول عليّ عليه السلام وجيشه إلى قرب الفرات، استحال عليهم الحصول على الماء، فبات الجيش في حالة عطش.

وكان معاوية، بدهائه، قد تمكَّن من استقدام عمرو بن العاص إلى جانبه، واعدًا إيَّاه بتوليته مصر إذا انتصر على عليّ عليه السلام<sup>١</sup>. وعندما بلغ الموقف هذا الحد، نصح عمرو

١ - الطبرقي، مرجع سابق، ٢: ١٨٤ - ١٨٦.

معاوية بفكّ الحصار عن "شريعة" قائلًا: "إِنَّ عَلِيًّا لَا يَمُوتُ عَطْشًا هُوَ وَتَسْعُونَ أَلْفًا مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَسَيُوفِهِمْ عَلَى عَوَاتِقِهِمْ، وَلَكِنْ دَعِهِمْ يَشْرَبُونَ وَتَشْرَب..."، فقال معاوية: "لَا وَاللَّهِ أَوْ يَمُوتُوا عَطْشًا كَمَا مَاتَ عَثْمَانُ!"<sup>١</sup>

وسرعان ما شنَّ عليّ عليه السلام هجومًا على شريعة، أدّى إلى انسحاب الجيش الشاميّ منها، "بعد أن غرق منهم، في الفرات، بشر وخيل..." وبعد سيطرة عليّ عليه السلام على مورد الماء، سمح لجيش معاوية بالورود والاستقاء من النهر<sup>٢</sup>.

وإذ تمركز جيش عليّ عليه السلام في سهل صفين، بعث إلى معاوية بعد يومين "يدعوه إلى اجتماع الكلمة، والدخول في جماعة المسلمين... وطالت المراسلة بينهما، فاتفقا على المواجهة (الهندة) إلى آخر المحرم من سنة ٣٧ هـ / ٦٥٧ م... وامتنع المسلمون عن الغزو في البرّ لشغلهم بالحرب، وقد كان معاوية صالح ملك الروم على مال يحمله إليه. لشغله بعليّ عليه السلام"<sup>٣</sup>.

وفي مساء اليوم الأخير من المحرم<sup>٤</sup>، بعث عليّ عليه السلام إلى الشام ما يلي:  
إِنِّي قَدْ أَحْجَجْتُ عَلَيْكُمْ بَكْتَابَ اللَّهِ تَعَالَى، وَدَعَوْتُكُمْ إِلَيْهِ، وَإِنِّي قَدْ نَبَذْتُ إِلَيْكُمْ عَلَى سِوَاءِ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾<sup>٥</sup>.

---

١ - المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٢١.

٢ - راجع: المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٢٣؛ الطبري، مرجع سابق، ٢: ١٨٨.

٣ - المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٢٣.

٤ - راجع الطبري، مرجع سابق، ١: ٣٢٨١.

٥ - انظر: سورة الأنفال، ٥٨.

فلم يردّوا عليه جوابًا إلا: السيف بيننا وبينك حتّى يهلك الأعجز منا<sup>١</sup>.

وبدأت المناوشات في اليوم التالي، بين الجيشين، واستمرت أسابيع، إلى أن كان السادس والعشرون من تمّوز (يوليو) ٦٥٧، لما زحف جيش عليّ عليه السلام وأزال أهل الشام عن مراكزهم، وظهرت أمارات النصر لعليّ عليه السلام. فأشار قائد الفرسان الداهية، عمرو بن العاص، على معاوية، برفع خمسمائة مصحف على أسنة الرماح، علامة على النزول عند "حكم الله" لا عند حكم السيف. ويبدو أنّ الحرب كانت قد أنهكت قوى الجيشين، وقد أسرف المؤرخون في عدد القتلى الذي كما يقولون، بلغ سبعين ألف قتيل. فحثّ عليّ عليه السلام أعوانه على قبول التحكيم حقًا لدماء المسلمين<sup>٢</sup>.

قبل ذلك التاريخ، كان عليّ عليه السلام قد ينس من إقناع معاوية بالمبايعة وإنهاء التمرد، وقد استعمل من أجل هذه الغاية كلّ الوسائل. منها أنّه نادى:

"يا معاوية، على أيّ شيء تقتل الناس بيني وبينك؟ هلّم أحاكمك إلى الله؛ فأينا قتل صاحبه استقامت له الأمور".

وإذ كان رأي عمرو بن العاص أن يقبل معاوية بمبارزة عليّ عليه السلام، معبرًا عن ذلك بقوله لمعاوية: "قد أنصفك الرجل"؛ فقال معاوية: "ما أنصف وإنك لتعلم أنّه لم يبارزه رجل قطّ إلا قتله أو أسره". قال عمرو: "وما يجمال بك إلا مبارزته". فقال معاوية:

---

١ - المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٢٤.

٢ - حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٦٦.

٣ - المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٣٤؛ وراجع: الطبري، مرجع سابق، ١: ٣٣٢٢.

"طمعت فيها بعدي"<sup>١</sup>. وتكثر هنا الأقاويل حول أخبار تلك المباراة التي، في النهاية، لم تحصل<sup>٢</sup>.

## التحكيم

لا بدّ من التوقّف مليّاً عند ذلك التحكيم الذي حصل، بين عليّ عليه السلام ومعاوية، في صفين. ذلك لأنّ هذا التحكيم سيؤدّي في ما بعد، إلى نشوء فرقة في الإسلام، بعد السبئية<sup>٣</sup>، هي: الخوارج. ولا يمكن الإحاطة بموضوع الخوارج، دون معرفة تفاصيل التحكيم.

كانت تلك، "ليلة الهرير"... كانت ليلة جمعة... وكانت الالتحامات قد ألغت ضرب النبال، وبات القتال تماماً بالسيوف والخناجر والتكادم. وكان الفارس يعتنق الفارس حتّى يقعا جميعاً على الأرض مع فرسيهما... "وأصبح القوم على قتالهم، وكسفت الشمس وارتفع القتام"<sup>٤</sup>، وتقطّعت الألوّة والرايات ولم يعرفوا مواقيت الصلاة...

---

١ - المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٤٣، وعنه: "وقد ذكر هشام بن محمد الكلبي عن الشرقي بن القطامي أنّ معاوية قال لعمر بن عبد قيس: "هل غشيتني منذ نصحتني؟" - قال: "لا"؛ قال: "بلى والله يوم أشرت عليّ بمبارزة عليّ وأنت تعلم من هو؟" قال: "دعك إلى المبارزة فكنت من مبارزته على إحدى الحصنتين: إمّا أن تقتله فتكون قد قتلت قتل الأكرن فتزداد شرفاً إلى شرفك، وإمّا أن يقتلك فتكون استجملت مرافقة الشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً" فقال معاوية: "يا عمرو الثّنية أشد من الأولى".

٢ - يذكر المسعودي (مروج الذهب، ٣: ١٣٤) قول في بعض الروايات إنّ معاوية قسم على عمرو لمّا أثار عليه بهذا أن يبرز إلى عليّ عليه السلام، فلم يجد عمرو من ذلك بداً. فبرز، فلما التقيا عرفه عليّ عليه السلام، وشال السيف ليضربه، فكشف (عمرو) عورته وقال: "مكرة أخوك لا بطل" فحول عليّ عليه السلام وجهه عنه وقال: "تجئت؟" ورجع عمرو إلى مصافّه، راجع: للميداني، ٢: ٢٧٤.

٣ - راجع الجزء التاسع عشر من هذه الموسوعة.

٤ - القتال: غبار الحرب.

فنادت مشيخة الشام: "يا معشر العرب الله الله في الحرمات والنساء والبنات". وقال معاوية: "هلمّ مَخْبَأَتِكَ يا ابن العاص فقد هلكنا وتَنَكَّرَ ولاية مصر!"<sup>١</sup> فقال عمرو: "مرّ الناس من كان معه مصحف فليرفعه على رُمحه". فكثُر في الجيش رفع المصاحف وارتفعت الضجة ونادوا:

كتاب الله بيننا وبينكم من لثغور الشام بعد أهل الشام؟ من لثغور العراق بعد أهل العراق؟ من لجهاد الروم ومن للترك وللکفار؟

ورُفِع في عسكر معاوية نحو خمسمائة مصحف؛ وفي ذلك يقول نجاشي بني الحارث<sup>٢</sup>.

فأصبح أهل الشام قد رَفَعُوا القَنَا      عليها كتاب الله خير قرآن  
ونادوا عليًا: يا ابن عمّ محمدٍ      أما تتقي أن يهلك الثقلان؟

فلما رأى كثير من أهل العراق ذلك قالوا:  
نُجِيب إلى كتاب الله وتُنِيبُ إليه.

وأحبّ القوم الموادعة، وقال لعلّي عليه السلام كثير من أصحابه:  
قد أعطاك معاوية الحقّ ودعاك إلى كتاب الله تعالى فاقبل منه.  
وكان أشدهم في ذلك الأشعث بن قيس<sup>٣</sup>؛ فقال عليّ عليه السلام:

١ - ذلك لأن معاوية كان قد وعد عمرو بن العاص بولاية مصر إن انتصر. فنكره بذلك وقال له ما معناه: "فعل شيئاً من مفاجأتك" بالنظر لحراجة الموقف.

٢ - لنجاشي قيس بن عمرو الحارثي (ت حوالي ٦٦٠): شاعر يمنيّ عاش في نجران وملة، ناصر عليّاً في صفين، لُعن السُكْر فطُرد ولجأ إلى معاوية ثم عاد إلى اليمن وتوفي فيها.

٣ - الأشعث بن قيس الكندي (٦٠٠ - ٦٦١): من أمراء كندة، وفد على النبي ﷺ مع جماعة من قومه ليظن إسلامهم سنة ٦٣١. شهد اليرموك والفلسية ونهالوند إضافة إلى صفين. توفي في الكوفة.

أيها الناس، إنه لم يزل بي من أمركم ما أحبُّ حتى قرحتكم الحرب وقد والله أخذت منكم وتركت. وإني كنت بالأمس أميراً فأصبحت اليوم مأموراً وقد أحببتكم البقاء؟

فقال الأشر: <sup>١</sup>

إن معاوية لا خلف له من رجاله ولك بحمد الله الخلف، ولو كان له مثل رجالك لما كان له مثل نصرك ولا صبرك؛ فأفرع الحديد بالحديد واستعن بالله تعالى...

وتكلم رؤساء أصحاب علي عليه السلام بنحو من كلام الأشر. فقال الأشعث بن قيس: إن لك اليوم على ما كنّا عليه أمس. ولسنا ندري كيف يكون غداً... وقد والله كلّ الحديد وقلّت البصائر.

وتكلم معه غيره بكلام كثير، فقال علي عليه السلام: <sup>٢</sup>

ويحكم إنهم ما رفعوها لأنهم يعلمونها ولا يعلمون بها. وما رفعوها لكم إلا دهاء وخديعة ومكيدة!

فقالوا له:

إنه ما يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله، عز وجل، فنأبى أن نقبله.

فقال:

ويحكم! إنما قاتلتهم ليدِينُوا بحكم الكتاب، فقد عصوا الله في ما أمرهم به ونبذوا كتابه، فأمضوا على حقكم وصدقكم وجتوا في قتال عدوكم؛ فإن معاوية وابن العاص وابن أبي مُعيط وحبيب ابن سلمة وابن النابغة وعدداً غير هؤلاء ليسوا

---

١ - راجع: شرح نهج البلاغة، ١: ١٨٥.

٢ - راجع: شرح نهج البلاغة، ١: ١٨٦؛ والطبري، مرجع سابق، ١: ٣٣٣.

بأصحاب دين ولا قرآن، وأنا أعرف بهم منكم، صحبتهم أطفالاً ورجالاً، فهم شرّ  
أطفال ورجال!

وجرى له مع القوم خطب طويل... وتهنّده أن يُصنع به ما صنّع بعثمان<sup>١</sup>.

ويذكر بعض المؤرّخين أنّ الأشعث، وجّه كلامه هنا إلى عليّ عليه السلام قائلاً:  
والله لئن لم تُجبهم إنصرفت عنك.

ومالت اليمانيّة مع الأشعث، فقال الأشعث:

والله لتجيبنهم إلى ما دعوا إليه، أو لنُدفعنَّ إليهم برمتك...

فتتازع الأشر والأشعث في هذا كلاماً عظيماً، فكاد أن يكون الحرب بينهم، حتّى  
خاف عليّ عليه السلام أن يفترق عنه أصحابه. فلما رأى ما هو فيه أجابهم إلى الحكومة<sup>٢</sup>...

بعد أن رضخ عليّ عليه السلام لرأي المطالبين بالتحكيم قال الأشعث:  
إن شئت أتيتُ معاوية فسألته ما يريد.

فقال الخليفة عليّ عليه السلام:

ذلك إليك، فإنّته إن شئت.

فأتى الأشعث معاوية وسأله فقال له معاوية<sup>٣</sup>:

نرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به في كتابه؛ تبعثون منكم رجلاً ترضونه  
وتختارونه، ونبعث برجل ونأخذ عليهما العهد والميثاق أن يعملأ بما في كتاب الله ولا  
يخرجا عنه، وننقلأ جميعاً إلى ما اتّفقنا عليه من حكم الكتاب.

١ - المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٣٧ - ١٣٩؛ راجع: الطبري، مرجع سابق، ١: ٣٣٢٩.

٢ - اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٨٩؛ المقصود بالحكومة هنا: التحكيم.

٣ - راجع: الطبري، مرجع سابق، ١: ٣٣٣٣.



فصوّب الأشعث قوله وانصرف إلى عليّ عليه السلام، فأخبره بذلك، فقال أكثر الناس: رضينا وقبلنا وسمعنا وأطعنا.

فاختار أهل الشام عمرو بن العاص. وقال الأشعثُ ومن ارتدّ بعد ذلك من الناس إلى رأي الخوارج: رضينا نحن بأبي موسى الأشعريّ.

فقال عليّ عليه السلام: قد عصيتموني في أول هذا الأمر، فلا تعصوني الآن. إنّي لا أرى أن أولّي أبا موسى.

فقال الأشعث ومن معه: لا نرضى إلاّ بأبي موسى.

قال:

ويحكم! ليس هو ببقّة وقد فارقتي وخذل الناس منّي، وفعل كذا وكذا (ونكر أشياء فعلها أبو موسى الأشعريّ) ثمّ إنّه هرب شهورًا حتّى آمنته؛... هذا عبد الله بن عباس أوليه<sup>١</sup> ذلك.

فقال الأشعث وأصحابه:

والله! لا يحكم فينا مضريّان.

قال عليّ عليه السلام: فالأشتر.

قالوا: وهل أشعل ما نحن فيه إلاّ الأشتر؟

---

١ - في الطبري: نوليه بدل أوليه، وللغلق معنى ينمّ عن وضع عليّ عليه السلام يومذاك.

قال: فاصنعوا الآن ما شئتم وافعلوا ما بدا لكم أن تفعلوه.

فبعثوا إلى أبي موسى وكتبوا القصّة؛ وقيل لأبي موسى: "إنّ الناس قد اصطلحوا". فقال: "الحمد لله رب العالمين". قالوا: "وقد جعلوك حكماً". قال: "إنّا لله وإنّا إليه راجعون"<sup>١</sup>.

\*\*\*

إنّ المدقّق في التاريخ، يتأكّد من أنّ الخروج على عليّ عليه السلام من قبل بعض من كانوا حتّى موقعة صفّين من أنصاره، لم يأت بعد التحكيم. وإذا وردت في هذا الكتاب تسمية عليّ عليه السلام بأمر المؤمنين، برز قوم من صفّ عليّ عليه السلام، وعلى رأسهم أبو الأعور السلمي، ليعترضوا على هذه الصفة. غير أنّ أصحاب عليّ عليه السلام، رفضوا إلّا أن تبقى صفة أمير المؤمنين تابعة، في الكتاب، لعليّ عليه السلام. "فتنازعوا على ذلك منازعة شديدة حتّى تضاربوا بالأيدي، فقال الأشعث: - أمحو هذا الإسم! - فقال له الأشر: - والله يا أعور لهمت أن أملأ سيفي منك. فلقد قتلت قوماً ما هم شرٌّ منك، وإنّي أعلم أنّك ما تحاول إلّا الفتنة، وما تدور إلّا على الدنيا وإيثارها على الآخرة - فلما اختلفوا قال عليّ عليه السلام: - الله أكبر! قد كتب رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الحديبية لسهيل بن عمرو: - هذا ما صالح رسول الله - فقال سهيل: - لو علمنا أنّك رسول الله ما قاتلناك؛ فمحا رسول الله صلى الله عليه وآله اسمه بيده، وأمرني فكتبت: - من محمّد بن عبد الله - وقال: - إنّ اسمي واسم أبي لا يذهبان بنبوتيّ - وكذلك كتبت الأنبياء، كما كتب رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الآباء، وإنّ اسمي واسم أبي لا يذهبان بإمرتي. - وأمرهم، فكتبوا: "من علي ابن أبي طالب"<sup>٢</sup>.

١ - المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٢٩ - ١٤٠.

٢ - الطبرقي، مرجع سابق، ٢: ١٨٩.

وفي النهاية، نصّت الوثيقة، وجاء فيها أن "الفريقين يرضون بذلك بما أوجبه كتاب الله". واشترطت الوثيقة "على الحكّمين أن يحكما بما في كتاب الله من فاتحته إلى خاتمته لا يتجاوزان ذلك، ولا يحدّان عنه إلى هوى، ولا إدهان"<sup>١</sup>، كما نصّت الوثيقة على "أن يُحيي الحكمان ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات القرآن"<sup>٢</sup>... وقال عليّ عليه السلام للحكّمين:

إن لم تحكما إلا بما في كتاب الله تعالى فكتاب الله كلّ لي؛ فإن لم تحكما بما في كتاب الله فلا حكم لكما<sup>٣</sup>.

ونصّ الاتفاق على أن يكون موعد التحكيم، في دومة الجندل، وهي بين الكوفة والشّام، بعد حوالى سنة ونصف من تاريخ الاتفاق، أي في كانون الثاني (يناير) ٦٥٩م/ رمضان ٣٨ هـ. أمّا تاريخ الاتفاق، فكان في نهاية "صفر سنة سبع وثلاثين من الهجرة، وقيل بعد هذا الشهر"<sup>٤</sup>.

وبذلك انتهت واقعة صفّين، وهي تعدّ من أروع المعارك التي جرت بين المسلمين، إذ قدر المدوّتون عدد الذين سقطوا في هذه المعركة، التي دامت مائة وعشرة أيّام، بحوالى مائة وعشرة آلاف من الفريقين: منهم تسعون ألفاً من أهل الشّام، وعشرون ألفاً من أهل العراق<sup>٥</sup>. ويذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن عدد الذين قاتلوا

---

١ - البيهقي، مرجع سابق، ٢: ١٩٠.

٢ - راجع الطبري، مرجع سابق، ١: ٣٣٣٦.

٣ - المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٤١.

٤ - المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٤٢.

٥ - الثّوري أحمد بن إبراهيم، عن يحيى بن معين للمسعودي، ٣: ١٤٣.

في صفوف معاوية كان يزيد على مائة وخمسين ألف مقاتل، خلافاً للتقديرات التي ذكرت بأنهم حوالي ٨٥ ألفاً، ويقولون إنَّ عددًا مماثلاً لهذا، كان يرافقهم، من خدم وسواهم، أي أنَّ مجموع جيش معاوية كان بحدود الثلاثمائة ألف، على الأقل. ويقول هذا الرأي بأنَّ أهل العراق كانوا في حدود المائة وعشرين ألف مقاتل، ما عدا الأتباع والخدم. إلا أنَّ رواة آخرين، يقدِّرون أنَّ عدد قتلى صفَّين، قد بلغ حوالي سبعين ألفاً: خمسة وأربعين ألفاً من أهل الشام، وخمسة وعشرين ألفاً من أهل العراق، فيهم خمسة وعشرون بدريةً<sup>١</sup>.

بتفسّخ صفّ عليّ عليه السلام، وكان قد بدأ حربه الثالثة، بعد الجمل، وصفَّين، مع الخوارج<sup>٢</sup>، وبسبب تفور عدد كبير من أعوان عليّ عليه السلام نتيجة السياسة المترددة المتقلّبة<sup>٣</sup>، وفي الوقت الذي كان الحَكَمَانِ المعينان، يُميلان الدفّة لمصلحة معاوية، فعندما حصل مؤتمر التحكيم، كان الاتجاه سائراً نحو تحية عليّ عليه السلام عن الخلافة، حقناً لدماء المسلمين.

وكان عليّ عليه السلام قد وجّه إلى المؤتمر، ابن عمّه: عبد الله بن العباس، السديد الرأي الملقَّب بحبر المسلمين، في أربعمئة من أصحابه، كما أرسل معاوية عددًا مماثلاً<sup>٤</sup>، على رأسه، إضافة إلى الحَكَم، عمرو بن العاص، وشرحبيل بن السَّمط. وكان هذا العدد، ليس لإلقاء الرهبة، إنّما ليكون أعضاؤه شهوداً.

١ - الهيثم بن عدي؛ الشرقبي بن القطامي؛ أبو مخنف لوط بن يحيى؛ المسعودي، ٣: ١٤٣.

٢ - راجع: الفصل التالي: نشوء الطوائف في الإسلام، مقطع: الخوارج.

٣ - حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٦٧.

٤ - اختلفت المحدثات حول مكان هذا المؤتمر، بين: إنزع، محطّة القوافل بين معان والبراء على طريق الحج، ودومة الجندل: واحة وبلدة في جوف السرمان، وأرض البلقاء في الأردن.

يَتَضَح حذر عليّ عليه السلام، وأصحابه، من تحكيم أبي موسى الأشعري، من الكلام الذي وجَّهه عبد الله، حبر الإسلام، إلى الأشعري، قبيل وصول الوفد إلى المؤتمر، إذ قال له:

إِنَّ عَلِيًّا لَمْ يَرْضَ بِكَ حَكَمًا لِفَضْلِ غَيْرِكَ، وَالْمُتَقَنُّونَ عَلَيْكَ كَثِيرٌ، وَإِنَّ النَّاسَ أَبَوْا غَيْرَكَ، وَإِنِّي لَأُظَنَّ ذَلِكَ لَشَرِّ يُرَادُ بِهِمْ وَقَدْ ضُمَّ دَاهِيَةُ الْعَرَبِ مَعَكَ. فَمَهْمَا نَسِيتَ فَلَا تَنْسَ أَنْ عَلِيًّا بَايَعَهُ الَّذِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ، وَلَيْسَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ تَبَاعَدُهُ مِنَ الْخِلَافَةِ، وَلَيْسَتْ فِي مَعَاوِيَةَ خَصْلَةٌ تَقْرِبُهُ مِنَ الْخِلَافَةِ<sup>١</sup>.

في هذه الأثناء، كان معاوية يوصي مندوبه بقوله:  
"يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، إِنَّ أَهْلَ الْعِرَاقِ قَدْ أَكْرَهُوا عَلِيًّا عَلَى أَبِي مُوسَى، وَأَنَا وَأَهْلُ الشَّامِ رَاضُونَ بِكَ؛ وَقَدْ ضُمَّ إِلَيْكَ رَجُلٌ طَوِيلُ اللِّسَانِ قَصِيرُ الرَّأْيِ، فَأَخَّرَ الْحَزَّ وَطَبَّقَ الْمِفْصَلَ<sup>٢</sup>، فَلَا تَلْقَهُ بِرَأْيِكَ كُلَّهُ"<sup>٣</sup>.

## محضر

## التحكيم

وفي ما يلي، محضر التحكيم على ما جاء في... المدونات:

كان التقاء عمرو وأبي موسى في شهر رمضان من سنة ثمان وثلاثين؛ فقال عمرو لأبي موسى: "تَكَلَّمْ وَقُلْ خَيْرًا". فقال أبو موسى: "بَلْ تَكَلَّمْ أَنْتَ يَا عَمْرُو". فقال

١ - المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٤٥.

٢ - انظر المثال: إِنَّكَ لَتَكْثُرُ الْحَزَّ وَتُخْطِئُ الْمِفْصَلَ (الميداني، ١: ٥٩)

٣ - المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٤٥.

عمرو: "ما كنت لأفعل وأقدّم نفسي قبلك، ولك حقوق كلها واجبة لسنك وصحبك رسول الله ﷺ، وأنت ضيف"<sup>١</sup>.

فتكلّم أبو موسى، فحمد الله وأثنى عليه وذكر الحدث الذي حلّ بالإسلام والخلاف الواقع بأهله ثم قال:

يا عمرو هلمّ إلى امرء<sup>٢</sup> يجمع الله به الإلفة ويلمّ الشعث ويصلح ذات النبين.

فجزاه عمرو خيراً وقال:

إنّ للكلام أولاً وآخرًا ومتى تنازعنا الكلام خطبًا لم نبليخ آخره حتّى ننسى أوله، فاجعل ما كان من كلام بيننا في كتاب يصير إليه أمرنا.

قال: "فاكتب".

فدعا عمرو بصحيفة وكاتب وكان الكاتب غلامًا لعمرو، فتقدّم إليه أن يبدأ به أولاً دون أبي موسى لما أراد به من المكر به؛ ثمّ قال له بحضرة الجماعة: "أكتب، فإنك شاهد علينا ولا تكتب شيئاً أمرك به أحدنا حتّى تستأمر الآخر فيه؛ فإذا أمرك فاكتب، وإذا نهاك فاصبر حتّى يجتمع رأينا؛ أكتب: باسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تقاضى عليه فلان وفلان" (فكتب الكاتب وبدأ بعمرو) فقال له عمرو: "لا أم لك! أتقدّمني قبله كأنك جاهل بحقه؟ (فبدأ باسم عبد الله بن قيس وكتب:) تقاضياً على أنهما يشهدان أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمّداً عبده ورسوله أرسله ﴿بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ

١ - إذا صحّ هذا الكلام، وقد اعتبر مندوب معاوية أن مندوب عليّ عليه السلام "ضيف" فيكون المؤتمر قد عقد في أرض تابعة لحكم معاوية.

٢ - يستدلّ من هذه العبارة أنّ بداية التحكيم كانت تتجه إلى تسمية خليفة جديد: "هلمّ إلى امرء يجمع الله به الإلفة..." إلّا أنّ خلافاً قد سجّل حول كلمة "امرء" وقد وردت في بعض المندوبات "امرئ" وليس "امرء" عندها يتغيّر المعنى تملّامًا.

لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ<sup>١</sup>. ثُمَّ قَالَ عمرو: "ونشهد أَنَّ أبا بكر خليفة رسول الله ﷺ عمل بكتاب الله وسنة رسوله حتى قبضه الله إليه وقد أدى الحق الذي عليه". فقال أبو موسى: "أكتب"; ثم ذكر في عمر مثل ذلك، فقال أبو موسى: "أكتب"; ثم قال عمرو: "إِنَّ عثمان وَلِي هذا الأمر بعد عمر على اجتماع من المسلمين وشورى من أصحاب رسول الله ﷺ ورضى منهم وإنه كان مؤمناً". قَالَ أَبُو موسى: "ليس هذا مما قعدنا له". فقال عمرو "لا بد من أن يكون كافرًا أو مؤمنًا". قَالَ أَبُو موسى: "ليس هذا مؤمنًا"; قَالَ عمرو: "قمره يكتب"; فقال أبو موسى: "أكتب". قَالَ عمرو: "وظالمًا قُتِل عثمان أو مظلومًا؟"; قَالَ أَبُو موسى: "مظلومًا"; قَالَ: "أفليس قد جعل الله لولي المظلوم سلطانًا يطلب بدمه؟"; قَالَ أَبُو موسى: "نعم"; قَالَ عمرو: "فهل تعلم لعثمان وليًا أقوى من معاوية؟"; قَالَ أَبُو موسى: "لا"; قَالَ عمرو: "أفليس لمعاوية أن يطلب قاتله حيثما كان حتى يقتله أو يعجز عنه؟"; قَالَ: "بلى"; قَالَ عمرو للكاتب: "أكتب" وأمره أبو موسى فكتب؛ فقال عمرو: "فإِنَّا نقيم البيعة أَنَّ عليًّا قَتَلَ عثمان"; قَالَ أَبُو موسى: "هذا أمر قد حدث في الإسلام وَإِنَّمَا اجتمعنا لغيره؛ فهلَمَّ إِلَى أمر يصلح الله تعالى به أمر أمة محمد ﷺ"; فقال عمرو: "وما هو؟"; قَالَ أَبُو موسى: "قد علمت أَنَّ أهل العراق لا يحبون معاوية أَبَدًا، وأهل الشام لا يحبون عليًّا أَبَدًا، فهلَمَّ نخلعهما جميعًا ونستخلف عبد الله بن عمر<sup>٢</sup> فقال عمرو: "أيفعل ذلك عبد الله؟"; قَالَ أَبُو موسى: "نعم، إذا حمّله الناس على ذلك"; فعمد عمرو إلى كلِّ ما مال إليه أبو موسى فصوّبه وقال: "هل لك في سعد؟"; قَالَ أَبُو موسى: "لا"... وعَدَّدَ لَهُ عمرو جماعة وأبو موسى يَأْبَى ذلك الآبَن عمر؛ فأخذ عمرو الصحيفة فطواها ووضعها تحت قدمه من بعد أن ختماها جميعًا،

١ - التوبة: ٣٣؛ و الصف، ٩.

٢ - كان عبد الله بن عمر صهر أبي موسى زوج ابنته.

وَقَالَ عمرو: "أرأيت إن رضي أهل العراق بعبد الله بن عمر وأباه (رفضه) أهل الشام أتقاتل أهل الشام؟" قال أبو موسى: "لا"؛ قال عمرو: "إن رضي أهل الشام وأبى أهل العراق أتقاتل أهل العراق؟" قال أبو موسى: "لا"؛ فقال عمرو: "أما إذا رأيت الصلاح في هذا الأمر والخير للمسلمين فقم واخطب الناس واخلع صاحبينا معاً وتكلم باسم هذا الرجل الذي تستخلفه؟" فقال أبو موسى: "بل أنت فقم فاخطب، فأنت أحقّ بذلك"؛ فقال عمرو: "ما أحبّ أن أتقّمك وما قلبي وقولك للناس إلاّ واحد فقم راشداً".

فقام أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ﷺ، ثم قال: أيّها الناس إنّنا نظرنا في أمرنا فرأينا أقرب ما يحضرنا من الأمن والصلاح ولمّ الشعث وحقن الدماء وجمع الإلفة خلعنا علياً ومعاوية، وقد خلعت علياً كما خلعت عمامتي هذه (ثم أهوى إلى عمامته فخلعها) واستخلفنا رجلاً قد صحب رسول الله ﷺ بنفسه وصحب أبوه النبي ﷺ فبرز في سابقته، وهو عبد الله بن عمر.

وأطراه ورغب الناس فيه، ثم نزل.

فقام عمرو فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ﷺ ثم قال: "أيّها الناس إنّ أبا موسى عبد الله بن قيس قد خلع علياً وأخرجه من هذا الأمر الذي يطلب وهو أعلم به، ألا وإنّي قد خلعت علياً معه وأثبت معاوية عليّ وعليكم، وإنّ أبا موسى قد كتب في الصحيفة أنّ عثمان قُتل مظلوماً شهيداً وأنّ لوليّه سلطاناً يطلب بدمه حيث كان؛ وقد صحب معاوية النبي ﷺ وصحب أبوه النبي ﷺ فهو الخليفة علينا وله طاعتنا وبيعتنا على الطلب بدم عثمان."

فقال أبو موسى:

كذب عمرو، لم نستخلف معاوية وإنما خلعناه وخلعنا علياً معه



فقال عمرو: كذب عبد الله بن قيس قد خلع عليًا ولم أخلع معاوية<sup>١</sup>.

وفي تفصيل آخر، أنهما "اتفقا على خلع علي ومعاوية، وأن يجعل الأمر بعد ذلك شورى، يختار الناس رجلاً يصلح لهم؛ فقدم عمرو أبا موسى فقال أبو موسى: "إني قد خلعت عليًا ومعاوية فاستقبلوا أمركم"؛ وتتخى؛ فقام عمرو مكانه وقال: "إن هذا قد خلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية". فقال أبو موسى: "ما لك لا وفقك الله! غدرت وفجرت وإنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً"<sup>٢</sup>؛ فقال عمرو: "بل إياك يلعن الله كذبت وغدرت، إنما مثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث"<sup>٣</sup>. ثم ركل أبا موسى فألقاه لجنبه: فلمّا رأى شريح بن هانئ الهذاني ذلك قنع عمرًا بالسوط، وانخزل أبو موسى فاستوى على راحلته ولحق بمكة، ولم يعد إلى الكوفة، وقد كانت خطته وولده بها، وآلى أن لا ينظر في وجه علي عليه السلام ما بقي؛ ومضى سعد وابن عمر إلى بيت المقدس فأحرما"<sup>٤</sup>.

وهكذا، وباعتقادنا أنه بعكس ما ذهب إليه الاعتبار السائد، فإن التحكيم لم يؤت ثماره. وبالتالي، لم يضع خاتمة لخلافة علي عليه السلام. إنما الشأن الذي قهر خلافة علي عليه السلام هو: مبدأ القبول بالتحكيم، قبل حوالى سنة ونصف من تاريخ التحكيم نفسه. إذ منذ ذلك الحين، منذ القبول بمبدأ التحكيم، أصبح الإسلام شعنا.

١ - نقلًا عن: المسعودي، مروج الذهب، ٣: ١٤٥ - ١٤٨.

٢ - «مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً» ينسب مثل القوم الذين كتبوا بليغ الله والله لا يهدي القوم الظالمين (الجمعة: ٥).

٣ - «ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخذ إلى الأرض ونصب هوأه فمطأه كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فأفصنس لفصص لتفكرون» الأعراف: ١٧٦.

٤ - المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٤٨ - ١٤٩؛ راجع الطبري، مرجع سابق، ١: ٣٣٥٩؛ وشرح نهج البلاغة، ١:

١٩٨؛ واليقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٩٠.

## الإنقسام

ما أن أرفضَ مجلسَ التحكيم على خلاف، في كانون الثاني (يناير) ٦٥٩، حتّى وفى معاوية بوعدة لعمره، فولّاه مصر<sup>١</sup>، بعد أن بايع أهل الشام معاوية "الذي انصرف إلى أهله خليفة". في هذه الأثناء، اجتمع حوالى أربعة آلاف من الخوارج في الحرورية - أو حاروراء - بالقرب من الكوفة، وسمّوا عبد الله بن وهب الراسبيّ خليفة، وبايعوه. ومنذ ذلك الحين، بات الخوارج يلقّبون بالحرورية. وقد جعلوا شعارهم: "لا حكم إلّا لله".

وبذلك، بات في الإسلام، للمرّة الأولى، أكثر من خليفة. بل أصبح هنالك ثلاثة خلفاء: الخليفة الشرعيّ عليّ بن أبي طالب. والخليفة المتمرد، معاوية. وخليفة الخوارج، عبد الله بن وهب الراسبيّ.

---

١ - راجع: المسعودي، مروج الذهب، ٣: ١٥٢، وفيه تفاصيل الرواية التي تتحدث عن محاولة عمرو لبتزاز معاوية، وعن كيفية قيام معاوية بليقاع عمرو في فخ نصبه له، فمنعه عن لبتزازه.

# إِنتِشَارُ الْإِسْلَامِ قَبْلَ مُنْتَصَفِ الْقَرْنِ السَّابِعِ

رَقْعَةُ الْإِسْلَامِ فِي عُهُودِ الرَّاشِدِينَ؛

الْإِنتِشَارُ الْإِسْلَامِيُّ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ؛

فِي عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ؛ فِي عَهْدِ عُمَرَ؛ فِي عَهْدِ عُثْمَانَ؛

لِحَاجَةِ كَامِلَةٍ عَنْ إِنتِشَارِ الْإِسْلَامِ فِي الْقَارَةِ الْأَفْرِيقِيَّةِ.



# رَقْعَةُ الْإِسْلَامِ

## فِي عُهُودِ الرَّاشِدِينَ

عندما قبض الرسول ﷺ، كانت رسائله قد أجفلت القادة والملوك في العربية الحبشة وفارس والقسطنطينية. وما كان أحد يتوقع أن تكون تلك الرسائل الداعية إلى الإسلام، إنذاراً حقيقياً جدياً لا مفرّ من تداعياته. ولا شك في أن أحداً من أولئك القادة الذين قرأوا عبارة "أسلم تسلم"، لم يفقه لبّ المضمون وجوهره، ولا أدرك أنه إن لم يتّجه طوعاً إلى الإسلام، فإنّ الإسلام آت إليه لا محالة.

في الواقع، كانت الدولتان الوحيدتان اللتان تتمتعان بقوة عالمية يومذاك، فارس وبيزنطية. في حين لم يكن العرب شيئاً مذكوراً على هذا الصعيد. فمنّ من معاصري تلك الحقبة كان باستطاعته أن يتكهّن أن مثل ما حدث سيحدث، أو أنه من الأمور المحتملة الوقوع؟<sup>١</sup>

يصورُ بحاتّة في تاريخ الشرق هذا الواقع، مشيراً إلى أنه بينما كانت الحروب على أشدها بين الفرس والبيزنط، كانت فرقة من ثلاثة آلاف رجل عربيّ تشنّ غارة

---

١ - حتّى، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ٣.

على بلدة تدعى "مؤتة" واقعة إلى الشرق من ساحل البحر الميت الجنوبي، يقودها زيد بن حارث ربيب محمد ﷺ. وكان الغرض من هذه الغارة، على ما يبدو، الانتقام لرسول، قتله أحد العرب الغساسنة، وكان النبي ﷺ قد بعث به إلى "بصرى" من أجل أن يعود منها، إلى الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً، بغنائم ذات بال بينها السيوف المشرقية المفضلة التي كانت تُصنع في تلك النواحي<sup>١</sup>. وقد اعتبرت هذه الخطة التي اختطها محمد ﷺ بمهاجمة البلدان المتاخمة، مما يزيد في قدر الدين الجديد وشهرته بين المؤمنين. أما زيد فقد سقط في ساحة القتال، وأما بقية جيشه فعاد بهم إلى المدينة القائد الفتى خالد بن الوليد<sup>٢</sup>، الذي لم يلبث أن غدا بطل الإسلام العربي. ولم تكن هذه الغزوة في نظر سكان مؤتة، سوى واحدة من غزوات البدو المتكررة التي اعتادها من أمد بعيد، لكنها كانت، في واقع الأمر، السهم الأول في نزاع لم يهدأ حتى استسلمت بيزنطة، وحل اسم النبي العربي ﷺ في معابدها محل اسم المسيح<sup>٣</sup>.

إستعرضنا في الفصول السابقة، في مجال الحديث عن الفتوحات الأولى، وبالتالي عن فتوحات الخلفاء الراشدين الثلاثة الأول: أبي بكر، وعمر، وعثمان، المجالات التي صلها الإسلام في الجزيرتين العربية والعراقية، وفي بلاد الشام، وفارس، ومصر، وبعض أفريقيا. وسوف يستمر استعراض الفتوحات ومجالاتها في الأجزاء التالية من هذه الموسوعة، تبعاً لحقب الخلافات والممالك والسلاطين، إكمالاً من عهد رابع الخلفاء

١ - راجع: ياقوت الحموي، معجم البلدان، طبعة دار صادر (بيروت، لا.ت. ٤ : ٥٣٦ : DE GOEGE M. J., MÉMOIRE SUR LA

CONQUÊTE DE LA SYRIE (LEYDEN, 1900) P.5.

٢ - الطبري، مرجع سابق، ١ : ١٦١٠.

٣ - حتى، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢ : ٤.

الراشدين، مروراً بالأمويين فالعباسيين وصولاً إلى العثمانيين، فيألي واقع الإسلام اليوم. غير أننا سنتوقف في الفصل التالي من هذا الجزء الذي خصصناه لنشوء الإسلام وانتشاره، عند فتح الأندلس، وهو المدى الأوسع الذي طاله الإسلام قبل العهد العثماني. أما هنا، فسنحاول أن نرسم خريطة انتشار الإسلام قبل ذلك التاريخ.

## الانتشار الإسلامي

### في عهد النبي ﷺ

بعد أن نشر الإسلام في المدينة المنورة ومكة المكرمة، وضواحيهما، قاد النبي محمد ﷺ سنة ٦٣٠ بنفسه حملة على واحة تبوك، في شمال الحجاز، على طريق الحج، بين دمشق والمدينة، ومنها شرع المفاوضات مع المواطن المجاورة انتهت بخضوع سكانها. فقد آمن الأقبام على أرواحهم، ومنحوا حق الاحتفاظ بممتلكاتهم، والبقاء على عقائدهم، شريطة أن يدفعوا جزية سنوية. وكان أول هذه المواطن قاعدة "أيلة" الواقعة في رأس خليج العقبة، وسكانها نصارى. تليها "مقنا"، الواحة الواقعة إلى الجنوب من أيلة على ساحل الخليج، وسكانها من اليهود الذين كانوا يمارسون، في الغالب، صناعة الحياكة وصيد الأسماك. ثم "إذرح" الواقعة بين "البراء" و"معان"، وعدد سكانها نحو مائة أسرة. ثم "الجرباء" على مسيرة ساعة من إذرح شمالاً على الطريق الروماني القديم بين بصرى والبحر الأحمر، وسكانها نصارى أيضاً<sup>١</sup>. وقد كانت هذه المواطن الوحيدة في سورية التي اتصل بها الإسلام في غضون حياة النبي محمد ﷺ. ولقد كانت الشروط التي استسلمت

---

راجع: اليقوي، مرجع سابق، ٢: ٦٦ - ٦٨.

بموجبها<sup>١</sup> موعزة بما سيجيء. فإنّ حملات محمد ﷺ على هذه المواطن لم تكن إلّا بمثابة محاولات تجريبية لما قدّر أن يتمّ في ما بعد على أيدي خلفائه.

## في عهد

### أبي بكر

وكما رأينا سابقاً، فإنّه في عهد أول الخلفاء الراشدين: أبي بكر الصديق (خليفة ١١ - ١٣هـ / ٦٣٢ - ٦٣٤م) قد تمّ، على يد خالد بن الوليد، فتح "بانقيا" و"كسكر" و"الحيرة" و"الخورنق" في العراق؛ واسترداد "البحرين" من المرتدين على يد العلاء بن الخضرميّ؛ و"عمان" على يد حذيفة بن محصن؛ و"اليمن" على يد زياد بن ليبيد البياضيّ. وفي عمر ولاية أبي بكر القصير، الذي لم يدم سوى أكثر من سنتين بقليل، تمكّن جيش الإسلام، بعد إخضاع الجزيرة العربيّة، من بدء مواجهة الروم في بلاد الشام ونواحيها وإخضاعهم، بقيادة كلّ من: يزيد بن أبي سفيان الذي فتح فلسطين؛ وأبي عبيدة بن الجراح الذي كانت له فتوحات في بلاد الشام؛ وشرحبيل بن حسنة الذي فتح البلقاء بفلسطين؛ وعمر بن العاص الذي انتصر على البيزنطيين في أجنادين فلسطين، وفتح مصر وهزم الأعداء في عين شمس وبابلين، واحتلّ الإسكندرية ٦٤٢، وحكم مصر، وبنى مدينة الفسطاط، وتوفّي بالقاهرة سنة ٦٦٤؛ وخالد بن الوليد الذي قاد الجيوش الإسلاميّة في فتوح فارس والشام، وانتصر على الفرس واحتلّ الحيرة سنة ٦٣٣، وهزم الروم بأجنادين سنة ٦٣٤ واليرموك سنة ٦٣٦ وإن في عهد عمر؛ وشدّ

١ - راجع: البلاذري، مرجع سابق، ص ٥٩ - ٦٠.

٢ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ص ٤ - ٥.



قبضة الخلافة على مناطق البحرين بقيادة عثمان بن أبي العاص والعلاء ابن الحضرمي.

## في عهد عمر

في عهد عمر ابن الخطاب (خليفة ١٣ - ٢٣هـ / ٦٣٤ - ٦٤٤م) تعززت الفتوحات واتسعت، فكان، على يد خالد ابن الوليد، فتح دمشق عاصمة البيزنطيين في سورية، يوم كانت مملكتهم السورية تمتد من طوروس إلى سيناء، وقد فتحت دمشق أبوابها للفاحين العرب سنة ٦٣٥ بعد حصار دام ستة أشهر؛ ثم كان فتح الجابية، فاستقبال المسلمين من قبل القبائل المسيحية المنتصرة في بلدات ضفاف العاصي، أهل شيزر، الذين استقبلوا العرب بالغناء والأهازيج وضرب الطبول؛ وفتح عمرو بن العاص وشرحيل للأردن عنوة؛ وبعليك وأرض البقاع على يد خالد بن الوليد؛ ومن هناك توجه إلى حمص، حيث لحقه أبو عبيدة، وحاصرا بجيوشهما المدينة حصاراً شديداً حتى طلب أهلها الصلح، ثم دخل المسلمون المدينة وبث أبو عبيدة عماله في نواحي حمص؛ وعززت الفتوحات في عهد عمر بمعركة اليرموك التي أبلى فيها أبو عبيدة سنة ٦٣٦، ولم تمض أيام، حتى سقطت قنسرين، ومنبج، وحلب في سورية ووُضع عليها الخراج؛ وبعد حصار طويل، سقط بيت المقدس سنة ٦٣٨؛ ثم كان فتح مصر على يد عمرو بن العاص سنة ٦٤٢؛ وقبل اغتياله، توج الخليفة انتصارات الإسلام بفتح بلاد فارس. وبذلك تمكن الإسلام في غضون سنوات معدودة من القضاء على أكبر امبراطوريتين في القرن السابع: بيزنطية وفارس.

## في عهد عثمان

في عهد ولاية عثمان (خليفة ٢٣ - ٣٥هـ / ٦٤٤ - ٦٥٦م) فتح المغيرة بن شعبه همدان سنة ٦٤٤، ودخل الريّ وأنزلها المسلمين<sup>١</sup>. وفي السنة التالية (٦٤٥م) "انتفضت الإسكندرية، فأعاد إخضاعها عمرو بن العاص. وبذلك يكون الإسلام قد سيطر على مصر وفلسطين وبرّ الشام وقسم من لبنان وعلى فلسطين والأردن والعراق وقسم من بلاد فارس قبل منتصف القرن السابع.

## لمحة كاملة

### عن انتشار الإسلام

اختصر باحثون محدثون<sup>٢</sup> موضوع انتشار الإسلام على الشكل التالي:

قضى النبي محمد ﷺ وقتاً طويلاً يتعبّد في غار حراء الليالي ذوات العدد، ولما نزل عليه الوحي يأمره بتبليغ رسالته «وأنذر عشيرتكم الأقربين»<sup>٣</sup> وجّه دعوته إلى إقناع قومه باعتماد الإسلام، وكانت زوجته السيّدّة خديجة أول مَنْ آمن به، فزيّد بن حارثه، فعليّ بن أبي طالب عليه السلام، فالصديق أبو بكر، ثمّ تلاهم غيرهم.

---

١ - بنكر مؤرّخون أنّ الريّ قد فتحت في حياة عمر؛ وقيل لم تفتح، ولكنّها كلفت محاصرة.

٢ - الموسوعة العربية الميسرة، مرجع سابق.

٣ - الشعراء: ٢١٤.

بدأ محمد ﷺ يجهر بدعوته، فدعا عشيرته إلى الدين الجديد لكنه لاقى معارضة شديدة، ولا سيما من قبيلة قريش، فأشار على أتباعه بالهجرة إلى الحبشة سنة ٦١٥ م. ولما اعتنق عمر بن الخطاب الإسلام سلك المسلمون مسلكاً أشدَّ جرأة، وجهرُوا بتأدية شعائر الإسلام جماعات حول الكعبة، فثار ذلك ضغينة قريش، وصمَّ رجالها على مقابلة دعوة النبي ﷺ بالإهانة، ما اضطرَّ محمدًا ﷺ إلى الانطلاق إلى الطائف، حيث دعا فريقًا من أهلها إلى وحدانية الله، فأخرجوه من ديارهم. لكنه لم ييأس.

وفي أحد مواسم الحجَّ إلى مكة، نجح محمد ﷺ في التأثير على عقيدة بعض الحجاج، فاعتنقوا الدين الحنيف، وكانت غالييتهم من المدينة، فارتبط معهم في محالفة سنة ٦٢٠م، وبهم انتشرت دعوة الإسلام فيها، فأمر النبي ﷺ أصحابه بالهجرة إليها، واصطحب هو أبا بكر في هجرته إلى المدينة في سنة ٦٢٢، فلما وصلوا قابلهم أهل المدينة بالترحاب، وسُمِّي هذا الحدث الكبير بـ "يوم الهجرة".

في أعقاب ذلك، جاء نشوب عدَّة معارك بين المسلمين والكفار، وكان الجهاد قد كُتب على المسلمين بعد الهجرة، دفاعًا عن دينهم وكيانهم. وقبيل وفاة محمد ﷺ ظهرت بالجزيرة حركة مقاومة للإسلام، اشتكت بوفاته. ولكنَّ الخليفة أبو بكر الصديق، صمَّ على القضاء عليها، ونجح بفضل حكمته ومهارة قائده، ولم يكد يمضي عام وبعض عام حتَّى عانت الجزيرة إلى الاعتصام بالإسلام. وقد بعث أبو بكر بأربعة جيوش إلى الشام سنة ٦٣٣، وبجيش آخر بقيادة خالد بن الوليد إلى العراق. ولم ينته عام ٦٣٤ حتَّى سيطر خالد على شاطئ الفرات الغربي ثمَّ اتَّجه إلى فلسطين، وانتصر على البيزنطيين في معركة أجنادين سنة ٦٣٤، ودخل دمشق سنة ٦٣٥، وقضى على أعداء الإسلام في معركة اليرموك سنة ٦٣٦.

استمرت الفتوح الإسلامية في زمن عمر بن الخطاب في الميدان الفارسي، بقيادة سعد بن أبي وقاص، وأحرز العرب نصراً باهراً على الفرس في القادسية سنة ٦٣٧، ثم استولوا على المدائن، وطاردوا قلول الفرس حتى التقوا بها عند نهاوند سنة ٦٤٢، حيث هُزم يزدجرد.

بعد أن طهرت الشام من الجيوش البيزنطية، بلغت الجيوش العربية طوروس، وسار عمرو بن العاص من فلسطين لفتح مصر سنة ٦٣٩، واستولى على بابليون. ثم آلت البلاد كلها إلى المسلمين بمقتضى معاهدة الإسكندرية سنة ٦٤٢.

في أيام عثمان بن عفان توغلت جيوش العرب شرقاً في باقي أقاليم فارس، كما تقدمت شمالاً في أرمينيا، وتمكن الأسطول الإسلامي من إحراز النصر البحري على البيزنطيين في معركة ذات الصواري سنة ٦٥٥.

وفي أيام معاوية الأموي استؤنفت الفتوح الإسلامية، فهاجم معاوية القسطنطينية، وغزت جيوشه أفريقيا، ثم توقفت حركة الإنطلاق العربي بسبب عودة الفتن الداخلية، ووقعت حروب دامية بين الأمويين وآل زبير في الحجاز والشام والعراق، ثم النصر النهائي فيها لعبد الملك بن مروان. وفي أيام خلفه الوليد، اندفعت الجيوش من الأراضي الفارسية في شعبتين: إتجهت إحداهما إلى بلاد ما وراء النهر، واستولت على بخارى وسمرقند وفرغانة وقشغر وبلغت أطراف الصين، واتجهت الشعبة الثانية إلى الهند بقيادة محمد بن القاسم الثقفي واستولت على بلاد السند حتى مدينة الملتان. أما في شمال أفريقيا فتقدمت الجيوش من برقة إلى المغرب بعد عدة معارك، تحت قيادة عقبة وحسان وموسى بن نصير، ودخل الأهلون في الإسلام. وأوفد موسى القائد طارق بن زياد لفتح الأندلس، على رأس قوات من البربر والعرب، ففضى على دولة القوط الغربيين، ووصل إلى جبال البرانس. وفي موجة تالية زحفت الجيوش العربية

إلى "غاليا" في جنوب فرنسا، ولكن توقفت الفتوح عند مدينة تور - بواتيه، حيث تمكن شارل مارتل من صدّ الجيوش الإسلامية<sup>١</sup>.

صاحبَ هذا التوسّع العربيّ السريع ظاهرة انتشار الإسلام في الأقطار المفتوحة، وانتقال اللغة العربيّة إليها. وفي الهند توقفت الفتوح الإسلاميّة في زمن الأمويّين، ثمّ استؤنفت في زمن الخليفة المأمون وأخيه المعتصم، إلى كشمير، ثمّ نهض الغزنويّون، الذين استقلّوا بشؤونهم عن الخلافة العبّاسيّة ببغداد (٩٦٢ - ١١٨٦)، واتّخذوا غزنة ببلاد الأفغان عاصمة لهم، وقاموا بعدّة حملات موفّقة في الهند، حيث دعم سلاطين المغول: بابر، وأكبر، الإسلام، ولا سيّما في الشمال، في خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر.

وفي الوقت الذي كان فيه العرب ينسحبون من الأندلس، استولى العثمانيّون، بعد تأسيس دولتهم القويّة في آسية الصغرى، على ملك البيزنطيّين في أوروبا، في أعقاب استيلاء محمّد الفاتح على القسطنطينيّة سنة ١٤٥٣، ثمّ ضمّوا القرم سنة ١٤٧٥، وجزر بحر إيجه، وجزءاً من إيطاليا. وفي أيّام سليمان القانونيّ (١٥٢٠ - ١٥٦٦)، اخترقت الجيوش العثمانيّة قلب أوروبا، واستولت على بلغراد سنة ١٥٢١، ثمّ أصبحت المجر ولاية عثمانيّة سنة ١٥٢٦، ولم تستطع الجيوش الاستيلاء على فيينا بالرغم من الحصار الطويل. وتمكّن سليمان من طرد الإسبان من شمال أفريقيا، وكانوا يحلمون بضمّ تلك البلاد إليهم.

في أثناء الحكم العثمانيّ للبلدان الأوروبيّة التي سقطت بأيديهم، اعتنق كثير من السكّان الدين الإسلاميّ، وأصبح مسلمو البوسنة والهرسك وبلغاريا وألمانيا من أشدّ

---

١ - الموسوعة العربيّة الميسّرة، مرجع سابق، ١: ٢١٤ - ٢١٥.

المسلمين تمسكاً بالإسلام. وانضمت إليهم نسبة غير قليلة من سكان قبرص وكريت ورودوس.

ولقي الإسلام أرضاً طيبة في الشرق الأقصى بفضل رجال الدعوة والتجار المسلمين، الذين جاؤوا إلى الملايو وجزر الهند الشرقية. وبلغ انتشار الإسلام أوجه في الركن الشمالي من جزيرة سومطرة في القرن الثالث عشر، حيث أسلم بعض الحكام، وتبعهم كثير من الأهالي. ثم انتشر الإسلام أيضاً في جاوة بفضل الدعاة، وكثرت فيها مراكز الدعوة. ومن هاتين الجزيرتين انتقلت جاليات إسلامية إلى الملايو منذ القرن الثالث عشر، واستقرت جاليات إسلامية في الأطراف الجنوبية من البلاد، وأسّس أحفاد المسلمين مدينة "مقا". ومن الملايو وجد الإسلام طريقه إلى سيام والهند الصينية.

أما الصين، فقد دخل إليها الإسلام مع التجار المسلمين، منذ أن استقرّوا بالمدن الهامة في القرن الثامن، إذ منحهم أسرة "تانغ" الملكية حرية العبادة وأداء شعائر الإسلام. وأدت الفتوح الأموية في أواسط آسيا إلى قيام الاتصال بين الدولة الإسلامية والصين، ومن ثم نشأت جاليات إسلامية بداخل البلاد<sup>١</sup>.

## الإسلام

### في القارة الأفريقية

استقرّ الإسلام في الشمال الشرقي حيث قامت عدّة دول إسلامية، ثم نفذ عبر الصحارى الكبرى إلى بلاد السودان، مستخدماً طرق القوافل. ويرجع الفضل في

---

١ - الموسوعة العربية الميسرة، مرجع سابق، ١: ٢١٥.

انتشار الإسلام هناك إلى سكان الصحراء، وحماسة بعض شيوخ قبائل "لمتونة" في مطلع القرن الحادي عشر، وإلى نشاط الفقيه "عبدالله بن يس" الذي كرّس جهوده لنشر الإسلام في غرب أفريقيا مع أتباعه الذين عُرفوا منذئذ باسم المرابطين. ولما توفي سنة ١٠٥٤، كانت دعوته قد بلغت كثيراً من البلاد المتاخمة للساحل الأفريقي. ثم وصل خلفاؤه إلى مملكة غانا وبلاد تكرور، وقامت دولة مالي الإسلامية (١٢٣٨ - ١٤٨٨)، وفي أعقابها سنغاي (١٤٦٤ - ١٥٩١). وكانت "تمبكتو" قد أصبحت منذ سنة ١٠٧٧ مركزاً للدراسات الإسلامية، وشيّدت المساجد في المدن، وعمرت المدارس برجال الدين. وانتشر الإسلام في السودان الأوسط، إذ أسلم سلاطين كانم، وبورنو، وشعوبهما. وكانت بورنو تقع على الشاطئ الغربي لبحيرة تشاد. وتدفّق المسلمون في أنحاء نيجيريا الشمالية، بفضل قبائل الهوسا وال فولة. وهكذا استقرّ الإسلام في قلب أفريقيا، وأصبح في مركز يساعده على الانتشار في اتجاهات عديدة، بفضل جماعات الطرق الصوفية، ولا سيّما القادرية والتيجانية والسندسية<sup>١</sup>.

الجدير بالإشارة ما حملته رسالة الإسلام من صنوف العطاء الحضاريّ الذي تحتاجه البشرية في زماننا، وقد طغت فيه المادّيات على ثوابت القيم. من ذلك تكريم الإسلام للإنسان في إطار نظرية الاستخلاف التي أسجد الله بسببها له الملائكة. وكفالة الحقوق الكاملة له حتّى ينهض بهذه المهمة، ثمّ كفالته الواضحة لحقوق المرأة ووصية الرسول ﷺ بها في حجة الوداع، ثمّ كفالة العدل الاجتماعيّ وتزويج الفوارق بين الطبقات من خلال نظام المواريث والحقوق المقرّرة للفقراء في أموال الأغنياء، وتقديم النموذج التطبيقيّ لهذا التكافل في تجربة "المواخاة" بين الأنصار والمهاجرين والتحذير

---

١ - الموسوعة العربية الميسرة، مرجع سابق، ١: ٢١٥.

من أن يبقى المال حكرًا في أيدي الأغنياء: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ نُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾<sup>١</sup>.

إضافة إلى تقرير الإسلام للتوجه الحضاري في تنمية المال، من دون الربا، الذي يحول المال من نقد إلى سلعة ويستغل الفقير وذا الحاجة، ولكن من خلال البيع والشراء والتجارة لتحريك الحياة وتوفير مصالح العباد.

وللإسلام في أمر الحرب والسلام رؤية تحصرها في الإطار الحضاري لدفع الباطل بالحق ودفع الظلم بالعدل والتمكّن في الأرض لقيم الخير والعدل والدفاع عنها. هذا إلى ما قيّدت به الحرب من الضوابط التي تنهي عن الإجهاز على الجريح، أو التمثيل بجثة القتيل، أو قتل الشيوخ والنساء والأطفال والرجال ما لم يحملوا السلاح، إضافة إلى ضرورة الإنذار بها قبل البدء فيها.. وحسن معاملة الأسير. هذا إلى تميّز الإسلام بتوجهه الحضاري في شؤون العمران وإقامة منهجية التغيير الاجتماعي وتغيير ما بالنفس الذي يتم عادة بالرشد والهداية: ﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾<sup>٢</sup>. إضافة إلى تحذيره من الفسوق والسفّه والترف واعتبار المترفين عنصر إفساد في الأرض يعرضها للخراب: ﴿وَإِذَا أَرْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فَمَرْئَاهَا تَدْمِيرًا﴾<sup>٣</sup>.

١ - الحشر: ٧.

٢ - الرعد: ١١.

٣ - الإسراء: ١٦٦ راجع: الموسوعة العربية المبتدرة، مرجع سابق، ١: ٢١٥ - ٢١٦.



## فتح الأندلس

عبد الرحمن الأول؛ تم أمرنا وغلبنا؛

أمير الأندلس؛

التقسيم الإداري وشكل الحكم؛ العمارة والإنشاءات؛

النهاية... غير البداية؛ بقايا عربية.



# عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْأَوَّلُ

بالنظر لفراة ظاهرة عبد الرحمن الأموي الأول، الملقَّب بالداخل، فرد له بحثة محدث فصلاً من كتاب: صانعو التاريخ العربي<sup>١</sup>، بعنوان: عبد الرحمن الأول: صانع التاريخ العربي على الأرض الأوروبية. وقد عدّه من أئمة صانعي هذا التاريخ في بلاد الأندلس. فارتأينا اقتباس هذا الفصل في مجال التعريف عن انتشار الإسلام في الأندلس.

لم يكن في الأوامر السريّة التي صدرت سنة ٧٥٠ في العراق لبس أو إيهام: يجب استئصال البيت الأمويّ. وكان صاحب هذه الأوامر التي صدرت بحقّ الأمويّين الخليفة الجديد: أبا العباس، الذي هزم مروان الثاني في موقعة الزاب، وقضى على البيت الأمويّ الذي حكم تسعين سنة، وأسّس خلافة جديدة. ولُقّب بالسفّاح. وكان أبو العباس قد تزعم تحالفاً ضمّ جماعة أقرب إلى الرسول ﷺ من الأمويّين، والشيعّة الذين كانوا يتطلّعون إلى الثأر من الأمويّين، كما ضمّ ناقمين على الخلفاء الأمويّين الذين لم يكونوا أهلاً للخلافة. وانتشرت عيون العبّاسيّين في كلّ قطر يتعقّبون أخبار الأمويّين. وعندما ضاق وجه الأرض عن أن يحجب الأمويّين عن أبصار العبّاسيّين لجأوا إلى "بطن الأرض" كما يقول ابن خلدون. ولم يسلم الموتى من نقمة العبّاسيّين فراحوا

---

١ - حتّى، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٨٥ - ١٠٥.

ينبشون القبور ويخرجون الجثث فيصلبونها أو ينثرونها على وجه الأرض<sup>١</sup>. وأخرجت جثة هشام<sup>٢</sup>، وهو آخر خليفة أموي عظيم، وجلد ثمانين جلدة، وأحرق، ونُري رماده. وهكذا انتهى عهد حلم معاوية وانتهى عهد دهائه السياسي.

ثم صدر بيان لاحق فيه اعتراف بالتجاوز على الأمويين، ودعوة لهم أن يسلموا أنفسهم في مكان ما، وإذا سلموا أنفسهم فإن العفو يشملهم. وقد استجابت جماعة من الأمويين للدعوة وحضر سبعون أو ثمانون منهم إلى مأدبة أقيمت لهم بالقرب من يافا. وفي أثناء المأدبة أمر عبدالله بن علي أن تضرب رؤوسهم فقتلوا جميعهم. ثم أمر فطرحتهم عليهم بسط وهم بين موتى ومحتضرين. ودعا بالطعام فاكل هو وقواده وهم يسمعون أنات المحتضرين.

نجا من هذا الفخ الذي نصبه العباسيون للأسرة الأموية شاب في التاسعة عشرة من عمره، اسمه عبد الرحمن، حفيد هشام بن عبد الملك. فبدلاً من أن يلتي الدعوة هرب إلى أرض له على الضفة اليسرى من أعالي الفرات واختبأ هناك. وكان بصحبته أخ له أصغر منه سنًا، وأختان وابن له اسمه سليمان له من العمر أربع سنوات. وذات يوم، وبينما كان عبد الرحمن في غرفة عتمة يداوي عينه إذا بسليمان يدخل الغرفة مذعورًا باكياً. ذلك أنه رأى فرساناً يرفعون راية سوداء كالراية التي رآها يوم مقتل عمه يحيى، ويبدو أن راية النبي ﷺ كانت سوداء، وراية الشيعة خضراء. فلم يخاطر عبد الرحمن شك في أن أحد الناس قد أقشى أمر مخبئهم إلى

---

١ - راجع: الجزئين الثامن عشر والتاسع عشر من هذه الموسوعة.

٢ - هشام بن عبد الملك (١٧ - ١٢٥هـ / ٦٩٠ - ٧٤٣م): الخليفة الأموي العاشر ١٠٥هـ / ٧٢٤م، أخو يزيد الثاني وخلفه، في عهده بلغت الأميرالطورية الإسلامية أقصى قساعها، حارب البيزنطيين واستولت جيوشه ناربونه ٧٢٠ وبلغت أبواب بولتييه في فرنسا حيث وقعت معركة "بلاط الشهداء" ٧٣٢ بين عبد الرحمن الخلفي وشارل مارتل.

العباسيين. فأوكل أمر ابنه إلى أختيه وأوصاهما أن تقولاً لمولى له من أصل رومي اسمه بدر، أن يلحق به في مكان سمّاه لهما. ثم أخذ بيد أخيه وقصد الفرات. أما الأخ الأصغر فأحجم خوفاً من التيار ومن عمق المياه فرجع، لا سيما وأن الفرسان العباسيين أعطوه الأمان قائلين إنهم لا يريدون به شراً، أما عبد الرحمن فإنه سبّح إلى الضفة الثانية وتوارى في غيضة. والتفت إلى الضفة الثانية فرأى رأس أخيه يتكبرج على الأرض. فحمل الفرسان الرأس وساروا به تاركين جسد الولد على وجه العراء<sup>١</sup>.

سار عبد الرحمن نحو الجنوب عابراً الصحراء السورية من الشمال إلى الجنوب. وفي فلسطين لقي خادمه الأمين، بدرًا، الذي كان قد أحضر له مالا ومجوهرات. ومن فلسطين سارا باتجاه مصر عبر سيناء قاصدين شمالي أفريقيا. فلجّ عامل القيروان<sup>٢</sup>، عبيد الله الفهري، في طلبه ووضع جائزة لمن يلقي القبض عليه، وكاد أحدهم يفوز بالجائزة، ولكن عبد الرحمن نجا بنفسه. ويبدو أن عامل القيروان اغتتم سائحة انتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين فراح يحاول تثبيت استقلاله. وكان من العسير على عبد الرحمن أن يظل متكرراً لا يعرفه الناس وذلك لأنه ورث عن أمه البربرية، من قبيلة نفزة، شعره الأحمر وعينيّه الزرقاويين. ويضيف المؤرخون عند ذكر سيرته إنه

---

١ - وجدت قصة فرار صقر قريش مروية بضمير المتكلم في مخطوطة تاريخية عنوانها "أخبار مجموعة" وقد نشرها وترجمها EMILIO LAFUENTY ALCANTARA (مدريد، ١٨٦٧) وتجد أخبار صقر قريش في: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مرجع سابق، ٥: ٥٧٧، حتى، صناعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٨٦ - ٨٧.

٢ القيروان: مدينة في تونس، هي اليوم مركز ولاية القيروان، نشأها في عهد معاوية عقبة بن نافع ٦٧٠، عاصمة الأغلبية في القرن التاسع، والفاطميين إلى جانب المهديّة حتى احتلال القاهرة ٩٧٣، شهيرة بمسجدها، كانت دلوًا للصناعة ومحطًا للقوافل وسوقًا للتجارة، مركز زراعي وسياحي.

كان له ذوابتان من الشعر تتدلّيان على فؤديه<sup>١</sup>، وأنّه كان أعور، وكان يشكو من ضعف في حاسة الشم. كان عبد الرحمن يأمل أن يلقى ترحاباً عند أبناء الخؤولة من البربر، وأمله هذا كان يبعث في نفسه البشر والعزم، غير أنّ ما كان يحلم به من مجد وعظمة سيلقاهما في إسبانيا التي احتلّها أجداده، كان يشغل باله، ويملاً قلبه، ممّا لم يترك معه مجالاً للشعور بالخوف أو التعب. وتقول الروايات إنّ أهل بيته كانوا يتوقّعون أن تنتهي الخلافة إليه في "الغرب". ويُقال لنا أيضاً إنّ عالماً بالفراسة توسّم ذلك في ملامح رآها في وجهه وعنقه. فراح جدّه هاشم، الذي نشأ عبد الرحمن في كنفه بعد موت أبيه، يُحسن تربيته ويُعدّه لتسّم هذه الوظيفة السامية. حتّى إنّ جدّه أقطعه قطعة أرض في إقطاع له في الأندلس لكي يبني قصره العتيد عليها. وذات يوم وفدت إلى بلاط هشام أميرة قوطيّة اسمها سارة القوطيّة لتسكو إليه من ظلم لحق بها وكان لها من العمر ثماني عشرة سنة، وكانت على جانب من الجمال. فقالت للفتى، عبد الرحمن، إنّ الأرض التي أعطيها تجاور أرضها في قرطبة<sup>٢</sup>.

بعد تسفار دام خمس سنوات وصل الشريد إلى بلاد أخواله عند شاطئ البحر الأبيض المتوسط المراكشي. ومن هنا ألقى أوّل نظرة على الأرض التي كان يحلم بها. لكنّ الحلم انقلب إلى كابوس مزعج. فإنّ شبه جزيرة أيبيريا<sup>٣</sup>. كانت، من أقصاها إلى أقصاها، في حالة غليان شديد. ذلك أنّ عرب الجنوب اليمينيّين، وعرب الشمال

١ - اللّود: جانب الرأس ممّا يلي الأذنّين إلى الأمام، والشعر الذي عليه.

٢ - قرطبة CORDOBA : مدينة في إسبانيا الأندلسيّة على الوادي الكبير، مركز الإقليم وكرسيّ لسقيّ، لسمها لفينيقيّون ثمّ احتلّها الرومان ١٥٢ ق.م.، استولى عليها العرب فلصّحت عاصمة للدولة الأمويّة في الأندلس ٧٥٦، استعادها فرديناند ١٢٣٦، مسقط رأس سنيكا وابن رشد، أهمّ آثارها العربيّة قصر الزهراء.

٣ - شبه جزيرة ليبيريا: اسم أطلق على شبه جزيرة إسبانيا والبرتغال

القيسيين، لم يتناسوا ثاراتهم ولم يتخلّوا عن منازعاتهم الجاهليّة بل احتفظوا بها في أرضهم الجديدة. كان القيسيّون سنّين شديدي التمسك بالسنة، وكان اليمانيّون شيعيين. وكان البربر يعادون الفتّين. فإنّهم لم يكونوا من السنة ولا من الشيعة بل كانوا، في أغلبهم، من الخوارج<sup>١</sup>. ونذكر بأنّ الخوارج هم الذين خرجوا على عليّ رضي الله عنه لقبوله التحكيم، فقتله واحد منهم<sup>٢</sup>. أمّا اليمانيّون فكانوا يشعرون بخيبة أمل بسبب عدم المساواة والأخوة التي بشر بها الإسلام. فإنّهم لم يشعروا أنّهم على قدم المساواة اجتماعيًا واقتصاديًا مع عرب الشمال. وكانت شكواهم الرئيسيّة أنّهم، بالرغم من تفوقهم العدديّ في الجيش الذي افتتح الأندلس، فإنّ عرب الشمال استولوا على السهول الخصبة وتركوا لهم المناطق الجبلية الجرداء. وكان في داخل كلّ حزب من هذه الأحزاب قبائل يصطرع شيوخها وزعمائها على تولّي السلطة. وجميعهم انتقلوا إلى بلاد تختلف عن البلاد التي أتوا منها اختلافًا كليًا. فإنّ جنودهم لم تكن قد رسخت على عمق في البيئة الجديدة، ولم يكونوا بعد قد توصّلوا إلى أسلوب من التعايش السلميّ مع سكّان البلاد من الإسبان. وقد يكون أنّ الحكّام العرب أظهرُوا براعة واقتدارًا على ساحات المعارك، أمّا في الإدارة فإنّهم أظهرُوا عجزًا. فمن سنة ٧٣٢ حتّى سنة ٧٥٥ تعاقب على الحكم أكثر من ثلاثة وعشرين أميرًا<sup>٣</sup>.

ظهر عبد الرحمن، أوّل ما ظهر، كزعيم وسط السياسة الأندلسيّة المضطربة بين السوربيّين الذين اشتهروا بموالاتهم للبيت الأمويّ. وكان من بين السوربيّين النازحين

١ - حول القيسيّين واليمانيّين والبربر والخوارج راجع: الجزء الثامن عشر من هذه الموسوعة.

٢ - راجع: الجزء التاسع عشر من هذه الموسوعة.

٣ - حتّى، صلتحو للتاريخ العربيّ، مرجع سابق، ص ٨٨ - ٨٩.

إلى الأندلس جماعة من الموالى المخلصين في ولائهم لعائلة عبد الرحمن لا يزيد عددهم عن أربع أو خمسمئة مولى اعتمدتهم عبد الرحمن كنواة لجيشه. وبحسب عُرف الولاء عند العرب، كان أبناء الموالى يولون أبناء أسيادهم الأول الذين أعتقوهم وألحقوهم بنسبهم برباط شبه مقدّس، ما كان يجعل المولى يهبّ إلى نجدة سيّده عند الشدّة. وكان قد دخل الأندلس سنة ٧٤١ قرابة تسعة آلاف جنديّ سوريّ معظمهم من الفرسان، وذلك في عهد خلافة جدّ عبد الرحمن، بقيادة بلج بن بشر القشري<sup>١</sup>. واستولى بلج على قرطبة\* وأقام نفسه أميراً عليها. أمّا جند دمشق فاتّخذ مقاطعة البيرة<sup>٢</sup> مقرّاً له، وجند حمص اتّخذ إشبيلية<sup>٣</sup>، وجند فلسطين في مدينة عُرفت بـ "مدينة شنونة"<sup>٤</sup>.

كان جنوبيّ إسبانيا، من حيث المناخ وسطح الأرض والمنتجات الزراعية، يذكّر السوريتين بموطنهم الأمّ. وكان عبد الرحمن قد أرسل إلى زعماء الأجناد، بواسطة بدر، رسالة يذكّرهم فيها بأباي سلفه من بني أميّة، ويعرّفهم مكانه من السلطان وسعيه لنيله إذ كان الأمر لجدّه هشام. فهو حقيق بوراثته ويسألهم القيام بشأّنه، وملاقاته بمن يوثق به من الموالى الأمويّين وغيرهم. ويعدّهم بإعلاء الدرجة. وكان من الطبيعيّ أن

---

١ - بلج بن بشر عيّض القشريّ (ت ١٢٤٢هـ / ٧٤٢م): قلّد الفرسان القشليّين في الجيش لذي سيّره الخليفة هشام بن عبد الملك لفتح لقرقيا ٧٤١، قُتل في الأندلس بالقرب من قرطبة.

٢ - إلبيرة ELVIRA : بلاد إسبانيا الجنوبيّة التي أصبحت إقليم غرناطة بعد الفتح العربي، ومدينة البيرة أو قشتالة قرب غرناطة، قاعدة هذا الإقليم، سكّنها عرب للشام، ازدهرت ثمّ خربت بالحروب الأهليّة ١٠٠٩.

٣ - إشبيلية SEVILLA : مدينة في الأندلس، شهيرة بقصرها، فتحها العرب ٧١٢ وفتّزها منهم فرديناند الثالث ١٢٤٨.

٤ - مدينة شنونة MEDINA-SIDONIA : بلدة في جنوب غربي إسبانيا في إقليم وادي لش، كانت على أيّام المسلمين قاعدة ولاية إقليم إشبيلية.



يختتم رسالته بوعود قطعها على نفسه من أنه سيوليهم المناصب الرفيعة في حال انتصاره<sup>١</sup>.

## تَمَّ أَمْرُنَا وَغَلَبْنَا

لم يكن عبد الرحمن رجلاً متشدداً بدينه، ولكنه كان يقوم بالشعائر المفروضة على المؤمن. وذات يوم، بعد أن أتمَّ صلاته رأى رجلاً يرمي بنفسه إلى البحر أمام سفينة مقبلة قبل أن ترسو. كان الرجل بديراً، مولاه، جاء يبيّثه بمقدم زعماء الموالي عليه ومعهم خمسمئة قطعة نقدية ذهبية. وكان اسم أول رجل تعرّف إليه تَمَّام أبو غالب<sup>٢</sup> فاستبشر عبد الرحمن خيراً وقال: "الله أكبر. الآن تَمَّ أَمْرُنَا وغلَبْنَا بحول الله تعالى وقوّته". فأسرع عبد الرحمن في التوجّه إلى الأندلس، وفي الرابع من شهر آب (أغسطس) سنة ٧٥٥، وكان له من العمر ٢٥ سنة، نزل إلى البرّ بالقرب من ملّا<sup>٣</sup>. وكان ناصحه ومشيره عبدالله بن عثمان قائد جند الشام، وحفيد مولى أعتقه الخليفة عثمان. وكضيف مكرّم أهدوا إليه جارية شابة جميلة فنظر إليها وقال: "إنّ هذه من القلب والعين بمكان، وإنّ أنا اشتغلت عنها بهمتي في ما أطلبه ظلمتها، وإنّ اشتغلت بها عما أطلبه ظلمت همّتي، ولا حاجة لي بها الآن"<sup>٤</sup>. وردّها إلى صاحبها.

١ - حَتّي، صلتو للتاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٨٩.

٢ - ملّا MALAGA: مرفأ في جنوب إسبانيا على البحر المتوسط، فيه قلاع مغربية، وكاتدرائية تعود إلى القرن السادس عشر.

٣ - المقرّي، نفع الطبيب من غصن الأندلس للطبيب، طبعة رينهارت دوزي (لبن، ١٨٥٨ - ١٨٦١)، ٢: ٢٩.

انتشر خبر مقدم أمير من سلالة الأمويين كما تنتشر النار في الهشيم، فتوافدت الوفود إليه تقدّم له الطاعة والولاء. فالتفت حول نواة جيشه من الموالي والموالين له اليمانيون والقيسيون والبربر يحدوهم الولاء للأمير الأموي. وكانت مدينة إشبيلية أول مدينة أشرعت أبوابها لاستقبال المطالب بالولاية، وكان ذلك في آذار (مارس) ٧٥٦. وفي إشبيلية استعاد علاقاته مع الأميرة سارة القوطية التي كان يعرفها وهو بعد فتى في دمشق، وقد ولد لهذه الأميرة بنون وبنات، مسلمون ونصارى، وإحدى بناتها، وهي نصرانية أصبحت في ما بعد أم عبد الرحمن الثالث المشهور<sup>١</sup>.

كانت إسبانيا في هذه الحقبة تابعة لشمالي أفريقيا وعاصمتها القيروان التي أسسها عقبة بن نافع. وكان حاكم إسبانيا يوسف الفهري<sup>٢</sup> أحد أحفاد عقبة. وكانت عاصمة يوسف الفهري مدينة قرطبة\*. وكان يعوزه بعد النظر والحكمة السياسية ليكيف نفسه ورعاياه للعيش بانسجام في الموطن الجديد. ولكنه كان طموحاً يمني النفس بالاستقلال الذاتي في عهد ابن عمه الذي كان قد استقل بالقيروان. وكان قائد جيشه صهره، الصمّيل بن حاتم<sup>٣</sup>. وبعد تردد التحق برئيسه في الأندلس. وإغواء لعبد الرحمن الداخل، وهو اللقب الذي يلقّب به المؤرخون عبد الرحمن، عرض على يوسف

---

١ - حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٩٠.

٢ - يوسف بن عبد الرحمن الفهري (ت ١٤٢هـ / ٧٥٩م): أمير وقّدت لنلمسي من ذرية عقبة بن نافع، وُلد في القيروان، حكم الأندلس، انهزم في معركة الوادي الكبير أمام عبد الرحمن الأموي، قضى قتلاً.

٣ - الصمّيل بن حاتم (ت ١٤٢هـ / ٧٥٩م): زعيم المضربة في الأندلس ومن القوّاد الشجعان، جدّه الشمر قتل الحسين في كربلاء، مات سجيناً في عهد عبد الرحمن الداخل.

الفهري\* استلحاقه وتزويجه ابنته، وجعله أميراً على مقاطعتين. لكن الأمير الأموي رفض العرض لأنه كان يطمع في غنيمة أثنى من هذه الأمور<sup>١</sup>.

عندما زحف عبد الرحمن بجيشه قاصداً قرطبة\* لاحظ أبو الصباح يحيى اليعصبى، زعيم اليمانية في إشبيلية، أن الأمير الأموي ليس له راية يُعرف بها. فأخذ عمالته الخضراء ورفعها على قناة رمح، وكانت أول راية للأُمويين تُرفع في الأندلس لتبقى أجيالاً بعد ذلك.

في آخر الأمر اشتبك الفريقان على ضفتي الوادي الكبير على مقربة من قرطبة\*. ولجأ عبد الرحمن إلى خدعة حربية عندما حمل خصمه على أن يسمح له بعبور النهر لإجراء مفاوضات الصلح. وعندما عبر عبد الرحمن النهر حمل على عدوه وأحرز نصراً حاسماً. كان ذلك في ١٥ أيار (مايو) من سنة ٧٥٦. وقد نجا الفهري\* والصُميل\* بحياتهما. وكان من الصعب على عبد الرحمن أن يلجم شهوات جنوده المتعطشين للنهب والقتل. فأصدر أمناً عاماً، وأعلن وجوب احترام الملكية الشخصية. وألقى القبض على ولّين من أولاد يوسف الفهري واحتفظ بهما رهينتين. فجاءت أمهما مذعورة خائفة مصطحبة ابنتيهما معها والدمع في عينيها وقالت: يا ابن عمي، أحسن إلينا كما أحسن الله إليك. فأمر عبد الرحمن أن يُحسنوا معاملة النساء وردّ إلى العائلة بعض الأشياء الثمينة التي تعرضت للنهب. فقمت له إحدى الإبنتين جارية له، أصبحت في ما بعد أم ابنه هشام<sup>٢</sup> الذي أصبح خليفة بعده.

---

١ - حتي، صلتحو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٩٢.

٢ - هشام بن عبد الرحمن الداخل: (ت ١٨٠هـ / ٧٩٦م): ولد في قرطبة، ثلثي ملوكها بعد أبيه ٧٨٨، شجع المذهب المالكي وتم بناء للجامع الذي بدأ به أبوه.

كان عبد الرحمن، حتّى ذلك الحين، أميراً إسمياً على الأندلس الإسلامية. إذ كان ينبغي أن يمرّ زمن طويل حتّى تتوحّد البلاد تحت إمرته. وراح عدوّاه، الفهري\* في طليطلة<sup>١</sup>، والصمّيل\* في جيّان<sup>٢</sup>، يبدّان الدعوة لشعصا الطاعة وإعلان الثورة على الأمير الأمويّ. وأخيراً قبض على الفهري وقطع رأسه وعلّقه على جسر قرطبة. ومات الصمّيل خنقاً في سجنه في قرطبة.

ظلت جماعة الفهري، بعد وفاته، تتحدّى الحكم الجديد. فكانت تقوم ثورات محلية هنا وهناك، وعلى رأس بعض هذه الثورات زعماء من أصدقاء الأمير عبد الرحمن المقربين إليه. وجاء أمويّون من الشرق من أقرباء الأمير في أعقاب انتصاره يطالبون بحصّتهم من الغنيمة. وكان أكثر الناقمين استياء جماعة اليمانيّين والبربر الذين حال عبد الرحمن دون نهبهم قرطبة. ولم يكن عبد الرحمن يقمع ثورة حتّى تقوم محلّها ثورات<sup>٣</sup>.

وقام من يتحدّى سلطة عبد الرحمن على أرض بعيدة خارج الأندلس. ذلك أنّ أخبار الانتصارات الرائعة التي أحرزها عبد الرحمن، وصلت إلى مسامع حكّام العراق. ولم يكن الخليفة المنصور، أخو السفّاح وخليفته<sup>٤</sup>، ليرضى أن يقصّ الجناح الغربيّ للأمبراطوريّة دون حرب وقتال. فأمدّ عامله على أفريقيا، العلاء بن مغيث،

---

١ - طليطلة TOLEDO : مدينة في أولسط إسبانيا قرب مدريد، فتحها طارق بن زياد ٧١٤، استردّها لفونس ملك قشتالة ١٠٨٥، ثار عريّة فخمة، ككترايّة.

٢ - جيّان JAÉN : قاعدة إقليم جيّان في الأندلس، أنجبت على لثام العرب عدّة علماء أشهرهم ابن مالك صاحب الألفية في علم النحو.

٣ - حتّى، صلتو التاريخ العربيّ، مرجع سابق، ص ٩٣.

٤ - راجع الجزء الثامن عشر من هذه المجموعة.

بالرجال وبالسلاح، وعيّنه أيضًا أميرًا على الأندلس، وطلب إليه أن يتوجّه إليها. فوصل إلى جنوبي الأندلس سنة ٧٦٣ ورفع الرايات السود. فناصره جمع من الشيعة، ومن الموالين للعبّاسيّين، ومن الشيوخ والزعماء، ومن القبائل الطامعة في الغنائم والأسلاب. واختار عبد الرحمن أن يلتقي بجيش العلاء بن مغيث في معقل حصين يُعرف بحصن "قرمونة" إلى الشمال من إشبيلية. وقد اشتهر هذا الحصن بمناعته على الأعداء. فضرب ابن مغيث الحصار على الحصن، وبعد شهرين أدرّك عبد الرحمن أنّ الزمن يعمل ضده. فوطّد العزم على أن يقوم بمغامرة جريئة، فانتهى سبعمائة مقاتل من أشدّ جنوده بأسًا وشجاعة وسار في مقدّمهم إلى باب المدينة حيث كانت نار تشتعل، وأخذ غمد خنجره ورماه في النار وقال:

لنرم جميعنا خناجرنا هنا في النار ولنقسم إيمانًا إن فاتنا النصر فإنّا نموت جنودًا شرفاء. فإمّا النصر وإمّا الموت<sup>١</sup>.

أسفر هذا الهجوم المستميت عن مذبحه مروعة حلّت بابن مغيث حتّى إنّهُ يُقال إنّ سبعة آلاف رجل من رجاله لاقوا حتفهم في هذه الموقعة. وأخذوا رأس بن مغيث ورؤوس بعض الزعماء الآخرين وألصقوا وريقة تحمل اسم كلّ واحد منهم وحشوها بالمسك ولفوها بالسجل الذي أعطاه المنصور لمغيث وبالراية السوداء، ووُضعت في سفت، وعُهد بها إلى تاجر قرطبيّ كان في طريقه إلى القيروان ليقضي بعض شأنه ومن ثمّ إلى مكّة المكرمة. وكان المنصور في طريقه إلى مكّة. فتركوا له السفت ليلاً في الطريق التي سيمرّ بها الخليفة صباحًا. وعندما فتحوا السفت قال المنصور:

١ - حتّى، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٩٣ - ٩٤.

الحمد لله الذي جعل بيننا وبين مثل هذا من عدونا بحراً<sup>١</sup>.

وقال أبو جعفر المنصور<sup>٢</sup> يوماً لأصحابه: "أخبروني عن صقر قريش من هو؟" قالوا: "أمير المؤمنين الذي راض الملك وسكن الزلازل وحسم الأواء، وأباد الأعداء". قال: "ما صنعتُم شيئاً". قالوا: "معاوية". قال: "ولا هذا". قالوا: "فعبد الملك بن مروان". قال: "ولا هذا". قالوا: "قمن يا أمير المؤمنين؟" قال: "عبد الرحمن ابن معاوية الذي عبر البحر، وقطع القفر، ودخل بلدًا أعجميًا مفردًا، فمصر الأمصار، وجند الأجناد ودون الدواوين، وأقام ملكًا بعد انقطاعه بحسن تدبيره، وشدة شكيمة". إن معاوية نهض بمركب حمل عليه عمر وعثمان ونزل صعبه، وعبد الملك ببينة تقوم لها عقدها، وأمير المؤمنين يطلب غيره واجتماع شيعته، وعبد الرحمن منفرد برأيه، مستصحب لعزمه<sup>٣</sup>.

ويبدو أن المنصور اتعظ بالإهانة التي لحقت بأعوانه في الأندلس. أما خلفاؤه من بعده فلم يتعظوا. فقد ظلّ عملاؤهم السريّون وجواسيسهم يعملون على بثّ الشقاق وشقّ عصا الطاعة. فراح هارون الرشيد<sup>٤</sup>، حفيد المنصور، الذي بلغ البوسفور

---

١ - حنّي، صلتو لتاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٩٤.

٢ - أبو جعفر المنصور: هو عبدالله بن محمد، الخليفة العبّاسي الثاني ١٣٦ - ١٥٨هـ / ٧٥٤ - ٧٧٥م، ولد في الحيمة ٨٩٦هـ / ٧١٤م، خلف أخاه السفاح، فتصر على عمّه عبدالله بن علي المطالب بالعرش ثم أطاح بقائده أبي مسلم الخرساني، أخضع ثورات العلويين: ثورة محمد الملقب بالنفس الزكية في المدينة وثورة إبراهيم أخي محمد في الكوفة كما قضى على فتنة "المقنع" في فارس والبربر في شمال أفريقيا، بنى بغداد ودعاها "دار السلام"، نظم الشؤون الإدارية والمالية والبريد، توفي محرماً بالحج.

٣ - يرد هذا النصّ بأشكال مختلفة. قبل المقرئ، ١: ٢١٣؛ ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار المغرب، نشر دوزي (إين، ١٨٤٩) ٢: ٥٤، ٦١ - ٦٢؛ العقد للفريد (القاهرة، ١٩٤٤) ٤: ٤٨٨؛ راجع أيضاً: Dozy, *SPANISH ISLAM*, P. 207. وقد نظم عبد الرحمن نفسه في ذلك شعرًا.

٤ - راجع للجزء الثامن عشر من هذه الموسوعة.

عندما كان وائياً للعهد، وعقد مع الروم معاهدة مخزية، يتطلّع ناحية الغرب لعلّه يُحرز نصراً يغطّي ما مُني به من هزيمة في الشرق. وحاول أن يدخل في عهد مع شارلمان<sup>١</sup>، ملك الفرنجة وأمبراطور الأمبراطورية الرومانية. وكان شارلمان عدواً طبيعياً لجيرانه الأمويين في الجنوب، كما أن هارون الرشيد كان عدواً لبيزنطة منافسته. وفي سنة ٧٧٧ انتمر زعماء العرب في الشمال الشرقي من الأندلس، وألّفوا حزباً قوياً يرئسه زعيم فهري وراحوا يرأسلون عدو الإسلام، شارلمان، ليخفّ إلى مساعدتهم، وقطعوا له عهداً أنهم يعترفون بسلطته. وكان شارلمان يطمح، أول ما كان يطمح، إلى توحيد أوروبا تحت صولجانه. فقطع جبال "البيرينية"<sup>٢</sup> على رأس جيوشه، وقطع تخوم الأندلس متجهاً نحو المدينة الثائرة، سرقسطة<sup>٣</sup>. غير أن أهل سرقسطة عدلوا عن فكرتهم الأولى، وأغلّقوا أبواب مدينتهم بوجه هذا العدو الذي يظهر بمظهر الصديق. وبلغت شارلمان أنباء عن اضطرابات وقعت في بلاده ما اضطره إلى الانسحاب فالرجوع فوراً. وفي طريق عودته عبر مضائق جبال "البيرينية" هاجمت قبائل الباسك<sup>٤</sup>، وغيرها من القبائل الجبلية، جيوشه المنهكة، وألحقت بهم

١ - شارلمان CHARLEMAGNE (٧٤٢ - ٨١٤): ملك الفرنجة ٧٦٨ وأمبراطور الغرب ٨٠٠ - ٨١٤، مؤسس السلالة الكارولوية لوكارولاجية، جعل "إكس لا شابيل" في "أخن" عاصمة له، حاول الاستيلاء على إسبانيا ففشل في سرقسطة ٧٧٨.

٢ - جبال البيرينية PYRÉNÉES : سلسلة جبال فاصلة بين فرنسا وإسبانيا، تمتد على طول ٤٣٥ كلم بين الأطلسي والمتوسط، ثروتها "بيك دانتير" ٣,٤٠٤ م.

٣ - سرقسطة ZARAGOZA : مدينة في إسبانيا، كانت في عهد العرب الذين فتحوها ٧١٢ تتمتع الثياب الرقيقة المعروفة بسرقسطية، استرجعها منهم الإسبان ١١٩، هي اليوم مركز ثقافي.

٤ - باسك أو بَشْكش BASQUE : مقاطعات فرنسية وإسبانية واقعة في منحدرات جبال البيرينية الشمالية يقطنها شعب بهذا الاسم، مشهورة بالمضائق التي قُتل فيها القائد رولان ٨٧٧ بطل للملحمة الفرنسية المعروفة باسمه وجاء فيها أن "البشكش ناصروا العرب على الفرنجة، لغة الباسك خاصة لا علاقة لها بلغات المحيط لم تنصهر نزعتهم القومية بالدولتين اللتين تضمّان إقليميهما إذ لا زالت حركتهم المطالبة بالاستقلال الذاتي حيّة خاصة في المنطقة الإسبانية.

خسارة فادحة في الأرواح. وكان من جملة القوّاد الذين هلكوا هناك "رولاند" الشاعر. وقد خَلَدَ بفاعه المجيد بشكل تاريخيٍّ أسطوريٍّ في قصائد رائعة تُعرف بـ "أغنية رولاند" التي تُعتبر من بواكير الكنوز الأدبية الفرنسية، وملحمة من ملاحم العصور الوسيطة<sup>٢</sup>.

## أمير الأنكلس

خرج عبد الرحمن من هذه المعركة منتصرًا ظافرًا دون أن يقاتل. ولكن جاء دور سرقسطة في الانتقام. وبعد أن استولى على المدينة ألقى القبض على أميرها وقطع يديه وساقه وجلده حتّى الموت. وبعد هذه الحوادث لم يبق في البلاد مَنْ تحدّى سلطة عبد الرحمن في خلال الإثنتين والثلاثين سنة بعد استسلام قرطبة. وكان عبد الرحمن يقود الجيوش إلى المعارك بنفسه، ولا نعلم أنّه خاض معركة خسر فيها القتال. وأصبح أمير الأنكلس، كما كان يُسمّى في هذه الحقبة، أميرًا بالفعل، لا بالإسم فقط. ويُصرّ المؤرخون على أنّ عبد الرحمن، في زمن شارلمان، كان يعدّ العدة لبناء أسطول يغزو به سوريا لينتزعها من سلطة بني العباس<sup>٣</sup>.

---

١ - رولاند ROLAND : عاش في القرن الثامن، من كبار فرسان شارلمان الملك، قُتل في وادي "رونسفو" من جبال البيرينيه وهو يحارب الباسك، تناولت الأسطورة هذا الحدث وجعلت منه موضوع "ملحمة رولان" الفرنسية، ظهر فيها رولان بمظهر بطل العالم المسيحي الكبير.

٢ - حتّى، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٩٥ - ٩٦.

٣ - حتّى، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٩٦.



لم تكن منجزات عبد الرحمن في حقل السلم ممّا يتناسب مع منجزاته في ساحات الحرب، ولكنها كانت منجزات ذات شأن. ولم يكن عبد الرحمن مجرد أمير من الأمراء، وكان عددهم ٢٣، الذين كانوا يستمدّون السلطة من القيروان أو دمشق، بل كان السيّد المطلق الذي يتولّى شؤون دولة مستقلّة. وقد وضع لهذه الدولة أسسًا في التنظيم والإدارة دامت قرنين ونصف القرن، باستثناء بعض التعديلات التي أدخلها عليها عبد الرحمن الثالث<sup>١</sup>.

ليس هذا فقط، بل إنّ هذه الدولة قد دامت واستمرت طوال هذه الحقبة الطويلة في وجه معارضة داخلية عربية إسلامية، يعمل زعماءها كقوة نافذة، وفي وجه مقاومة مسيحية تضغط من الداخل والخارج. وعبر الحدود الشمالية عند سفوح جبال "البيرينية" كانت هناك ممالك صغيرة هي ممالك أراغون<sup>٢</sup> ونافارا<sup>٣</sup> وليون<sup>٤</sup>

---

١ - عبد الرحمن الثالث (٢٧٧ - ٣٥٠هـ / ٨٩٠ - ٩٦١م): لقبه الناصر، وُلد وتربّى في قرطبة، أمير قرطبة الثالث ٩١٢ ولول خليفة أمويّ بالأندلس ٩٢٩ - ٩٦١، سعى إلى مصالحة العناصر المتطلحة وتحقيق الوحدة الداخلية، قضى على فتنة ابن حفصون، أوقف الزحف المسيحيّ، اتخذ لقب أمير المؤمنين، حارب الفاطميين في شمال إفريقيا، كان أعظم عهود الحضارة الأندلسية.

٢ - أراغون ARAGON : منطقة في شمال شرقي إسبانيا، عاصمتها سرقسطة، بقيت مملكة مستقلّة إلى ١٤٧٩ حين تزوّج ملكها فردينان بليز ابيلًا وورثة قشتالة فتحدت الدولتان ونشأت مملكة إسبانيا.

٣ - نافارا NAVARRA : منطقة لوروية تقسمها فرنسا وإسبانيا، هي في فرنسا جزء من إقليم البيرينية، وفي إسبانيا مقاطعة سكّتها نحو ٤٥٠ ألف نسمة قاعدتها بمبلونا.

٤ - ليون LYON : إقليم ومملكة سابقة في شمال غرب إسبانيا، أهم مدنه: ليون العاصمة التاريخية للإقليم، بالانسيا، سلمنقة، بلد الوليد، وزلمورا، يرجع تاريخها إلى أيّام الرومان، استولى عليها ملوك أستوريا في القرنين الثامن والتاسع من الغرب، أصبح الإقليم مملكة ليون وأستوريس، غزاها العرب ٨٨٢، حلّت محلّ لوفيدو باعتبارها عاصمة في القرن العاشر، تدهورت عندما أصبحت بلد الوليد مقرّاً ملكيّاً، تحدت مرتين مع مملكة قشتالة: الأولى إبان حكم فرديناند الأول لقشتالة (١٠٣٧ - ١٠٦٥) والثانية في عهد ألفونسو السادس ووسلّا ألفونسو السابع (١٠٧٢ - ١١٥٧) قبل أن تتحد بصفة دائمة في عهد فرديناند الثالث ١٢٣٠، من مباني مدينة ليون الكاتدرائية القوطية العائدة إلى القرنين الثالث عشر والرابع عشر.

وقشتالة<sup>١</sup> ، تصلي وتتحين الفرص ليوم الخلاص، يوم انتزاع البلاد من أيدي فاتحيها. وسيستمر هذا الوضع حتى القرن الثالث عشر حين استرد ملوك قشتالة معظم أراضي المملكة، ولم تبقى إلا مملكة غرناطة العربية التي سقطت في يد الملوك الكاثوليك سنة ١٤٩٢ كما سيأتي<sup>٢</sup>.

---

١ - قشتالة أو كاستيا CASTILLA : منطقة تاريخية في وسط إسبانيا، تقسمها الجبال إلى قشتالة القديمة في الشمال، حوض نهر الدورادو، ومن منها: برغس، أبل، بلانويد، وإلى قشتالة الجديدة في الجنوب، يرويها نهرا التناخا وغوالينا، من منها العاصمة مدريد، وطلايلة، وولدي الحجارة، نشأت في قشتالة منذ القرن التاسع إمارة عاصمتها برغس ثم انضمت إلى مملكة ليون ١٢٣٠ وأخذت بالتوسع على حساب الإمارات العربية، تحددت أخيراً مع الأراغون بعد زواج ولية العهد ليزابيل بفرديناند الثاني الأراغوني ١٤٦٩.

٢ - راجع: الجزء العاشر من هذه الموسوعة، ص ٥٩.

# التقسيم الإداري وشكل الحكم

كان عبد الرحمن، في وضعه الأسس الإدارية، يتبع النظام الذي كان متبعًا في دمشق. كانت السلطة، المدنية منها والعسكرية والقضائية، في يد الأمير. وكان بوسعه أن يفوض أحد أعوانه بعض هذه السلطة، وبالفعل فقد لجأ إلى مثل هذا التفويض في حالات معينة. وكان يعاونه في تصريف مهام الحكم "حاجب"، وكان أول "حاجب" رفيقه في السلاح تمام أبو غالب. أما الوزارة، وهي مؤسسة عباسية أكثر منها أموية، فلم تكن معروفة في الأندلس حتى زمن عبد الرحمن الثالث\*. وكانت تحت إمرة الحاجب جماعة الكتاب: المال، والجيش، والداخلية، وغيرهم في مختلف دوائر الحكم.

وكان هنالك مجلس استشاري، أو مجلس شوري، أعضاؤه من النبلاء والأشراف، ومن علماء الدين، ومن كبار موظفي البلاط. وكان أول من ترأس هذا المجلس عبيد الله بن عثمان، وكان من أوائل الناس الذين عضدوا عبد الرحمن. وكان عبيد الله يتولى إمارة العاصمة في غياب عبد الرحمن. وعُيّن أبو الصباح واليًا على إشبيلية. وتقول الرواية إن عبد الرحمن نقش على خاتمه "الوائق بالله".

في تقسيم البلاد إلى ولايات، احتفظ عبد الرحمن بالتقسيم الذي وضعه القوط، ولكنه رفع الولايات إلى ست. وكان لكل ولاية والٍ قاض. وكان لبعض المدن الكبيرة الرئيسية ولايتها. وكان قاضي قرطبة يُعتبر قاضي القضاة، بمعنى أنه المرجع القضائي الأخير. وكان القاضي من علماء الدين عالمًا بالعلوم القرآنية والشرعية. أما الجرائم وغيرها مما تتناوله الشرطة من قضايا، فكان يفصل فيها ويحكم موظف خاص.

أما الجيش العربيّ في الأندلس، كما وجده عبد الرحمن، فقد كان منظماً حسب الطريقة العربيّة القبليّة البدائيّة. فقد كانت كلّ قبيلة، سواء أكانت عربيّة أم بربريّة، تقطع أرضاً تقيم فيها ويرئسها شيخ القبيلة الذي يصبح في زمن الحرب قائدها. ولكنّ الأمير عبد الرحمن، على مرّ الأيام، أنشأ جيشاً نظامياً من المرتزقة المجنّدة، معظمها من قبائل البربر في شماليّ أفريقيا. وقد بلغ عدد هذا الجيش النظاميّ أربعين ألف مقاتل. وكانت فرق الفرسان تستخدم البغال المتوفّرة في الأندلس أكثر من الخيل، والتي تلائم طبيعة البلاد أكثر ممّا تلائمها الجياد. وكان لعبد الرحمن حرس من الجنود المجنّدين من أفريقيا. وكان على هذا الجيش أن يحمي الثغور في الشمال، وأن يقيم بدون رحمة أو شفقة، الثورات الداخليّة. وبقدر ما كان الجيش موالياً للأمير كان الناس يمتقونه. وهذا يذكرنا بالإنكشاريّة<sup>١</sup> عند العثمانيين<sup>٢</sup>.

وكانت شبه جزيرة إسبانيا معرّضة من ثلاث جهات لغزوات من البحر. وهذا ممّا دفع بعبد الرحمن لإنشاء نواة أسطول بحريّ، الأوّل من نوعه في الأندلس الإسلاميّة. وقد بُنيت سفنه حسب النماذج البيزنطيّة، وكانت قاعدته "المرية". وعيّن عبد الرحمن حاجبه تمام أميراً للبحر، فكان أوّل أميرال مسلم في أوروبا. وفي عهد عبد الرحمن الثالث أصبح الأسطول العربيّ الأندلسيّ أقوى أسطول في غربيّ البحر الأبيض المتوسط<sup>٣</sup>.

---

١ - الإنكشاريّة: اسم لتنظيم عسكريّ تركيّ، معنى الاسم "الرقباء" أو "الحراس" أو "الحافظون"، إذ كانت تُوكّل إليهم المحافظة على الأمن، وقد اشتهرت فرقة الإنكشاريّة بسلطانها حتّى كانت تشبه بالجنّد البريتوريقي عند القيصرية، ولذلك قويت شوكتهم فصاروا يتصرّفون بالأحكام بحسب أهوائهم وتوصّلوا إلى عزل السلاطين وقتلهم.

٢ - حتّى، صقرو لتاريخ العربيّ، مرجع سابق، ص ٩٧ - ٩٨.

٣ - حتّى، صقرو لتاريخ العربيّ، مرجع سابق، ص ٩٧ - ٩٨.

كانت معاملة المسيحيين في إسبانيا لا تختلف عن معاملتهم في أي قطر إسلامي آخر. وترتكز معاملة المسلمين للمسيحيين على ما جاء في القرآن الكريم، وعلى ما جاء بعد ذلك في الحديث وفي التآليف الفقهيّة. فقد كان اليهود والنصارى من أهل النّمة. وبصفتهم هذه كان لهم حقوق وعليهم واجبات. ومن حقوقهم حماية الدولة لهم، ومن واجباتهم نحو الدولة دفع الجزية، وجاء في الوحي: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ بَيْنَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾<sup>١</sup>.

كانت الضريبة تُفرض على الذكور البالغين المتمتعين بكامل قواهم الجسدية والعقلية. أمّا الأولاد والنساء والعبيد والرهبان والمرضى وأصحاب العاهات فكانوا يُعفون من دفع الضرائب. وكانت الضريبة تُدفع نقدًا أو عينًا. وكانت تصاعديّة من دينار إلى أربعة بناءً على قدرة المرء الماليّة ووضع الاقتصاديّ. وضريبة الأعناق تُضاف إلى ضريبة الخراج. وكان الخراج يُفرض بحسب ما كان عليه قبيل الفتح الإسلامي، ومعدله خمس الإنتاج. وكانت الجزية تُرفع عن كاهل صاحبها إذا اعتنق الإسلام. وأمّا أملاك النبلاء من أهل البلاد الذي نزحوا عنها إبان الفتح، فكانت تُصادر وتوزّع على المقاتلين من المسلمين. وكانوا يحتفظون بالعبيد الذين كانوا يحرثون الأرض ويزرعونها على أن يدفعوا أربعة أخماس الإنتاج. أمّا النصارى واليهود في الأندلس فقد سُمح لهم، كما كانت الحال في بلدان أخرى فتحها المسلمون، أن يظلّوا خاضعين في مسائل القضاء لرؤسائهم الروحيين ينظرون في قضاياهم، إلّا إذا كان في القضية مساس بحق المسلم، فإنّ مثل هذه القضايا كانت تُردّ إلى المحاكم الإسلامية.

ويرى معظم المؤرخين الغربيين أن الاحتلال العربي وانتزاع السلطة من القوط لم يكن مجحفاً بحق الأهليين الأصليين. بل كان الأمر على نقيض هذا، فإنه أفاد طبقة الأرقاء واليهود الذين كانوا يتعرّضون للاضطهاد القوطي في كثير من الأحيان. وكان النصرانيون يبدون النفرة من حكمهم القوط. فقد كان القوط من برابرة<sup>١</sup> التيونون، سكان الشمال، وقبل أن ينضمّوا إلى الكنيسة الكاثوليكية كانوا هراطقة من أتباع آريوس<sup>٢</sup>. كذلك قضى الفتح العربي على سطوة طبقة النبلاء والإكليروس المتمتعين بالامتيازات على حساب الشيعة. وسمح عبد الرحمن للنصارى بترميم كنائسهم القديمة وبناء أخرى جديدة. ولم يفرض عليهم أيّاً من الشروط الصعبة التي فرضها الخليفة عمر الثاني (٧١٧ - ٧٢٠)<sup>٣</sup>. ويأسف بعض الكتبة الإسبان على أن الفتح الإسلامي للأندلس كان سبباً في انقطاع التقليد المسيحي وحشره بين حقبتين: المسيحية في العصور المتوسطة، والمسيحية في العصور الحديثة. ولكنّ الواقع أن الأندلس بلغت، في العهد الإسلامي، الذروة في النمو الاقتصادي والرقى الحضاري، وعرفت عصوراً من الازدهار لم تعرفها من قبل. وكانت عاصمة الأندلس تباهي القسطنطينية وتفاخر بغداد على أنها مركز عالمي للأبهة والوفر والعلم. وكان الكتاب العرب يسمّون قرطبة "عروسة الأندلس" وسمّتها راهبة أنغلوسكسونية "جوهره الدنيا"<sup>٤</sup>.

١ - البرابرة BARBARES: اسم أطلقه في الأصل اليونان ثم الرومان على الأجانب من الأمم، ثم أطلق خاصة على الشعوب الجرمانية والمغولية التي ابتدأت تجتاح الإمبراطورية الرومانية منذ القرن الرابع حتى سقوطها سنة ٤٧٦.

٢ - آريوس ARIUS: كاهن ألكندريّ زعم أن "الكلمة" غير مساوٍ للاب في الجوهر، فحرّمه المجمع النيقاوي ٣٢٥، ومنه البعده الأريوسية التي استمرت حتى أولّخر القرن الرابع في الشرق والقرن السابع عند القوط واللومبارد.

٣ - راجع: الجزء الثامن عشر من هذه الموسوعة.

٤ - حتّى، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٩٩ - ١٠٠.

## العمارة

### والإنشاءات

كانت قرطبة التي خلفها عبد الرحمن بعد مماته تختلف كليًا عن قرطبة التي عرفها عند استيلائه عليها. فإلى قرطبة كانت تفرج جموع المسلمين من شمالي أفريقيا وغربي آسيا ليحربوا حظهم من العيش والثروة. وكان اللاجئين من الأمويين يأتون إليها للحماية سواء أكانوا يتلقون دعوة للذهاب إليها أم لم يتلقوا. وكان من العرف أن يحيط الخليفة نفسه بجماعة من أقربائه المقربين، وأن يعهد إليهم بالمراكز والمناصب العالية في الدولة. وقد سنحت آنذاك أمام صقر قریش سائحة لإعادة الاعتبار لأهله ونويعه.

كان عبد الرحمن يقول إن أعظم نعمة أسبغها الله عليه بعد الخلافة، تمكينه من توفير وطن لأهله يقيمون فيه آمنين، ومن الانتفاع بهم. وكان يتمنى أن يرحب بعودة ابنه سليمان الذي خلص حياته من القتل عندما كان في الرابعة من عمره ورأى الرايات السود مقبلة إلى مكن أبيه. كانت النجاة من يد العباسيين نعمة ورحمة، ولكن العميين اللتين عهد إليهما بأمر الصبي لم تريا من الحكمة المجازفة بركوب البحر. وكان سكان العاصمة يزدادون يومًا بعد يوم بسبب ازدياد عدد المسلمين الجدد الذين كانوا يُعرفون بالمولدين. أما سكان الريف فكان شأنهم شأن سكان الريف في كل مكان، كانوا شديدي الحفاظ على أسلوب عيش آبائهم وأجدادهم. وفي مدى حياة عبد الرحمن، لا بد أن غالبية السكان صاروا من المسلمين. لذا توجب عليه أن يكبر مسجد قرطبة، وكان التوسيع على حساب كنيسة النصرى. وقبل وفاته بثلاثة أعوام، شرع عبد الرحمن بتنفيذ مشروع أكبر: إعادة بناء المسجد وتوسيعه وجعله مسجدًا يليق بعاصمته، وفي الوقت ذاته يضاهي كنائس المسيحيين الكبيرة من حيث فخامة البناء. وبنى حول المسجد سورًا سماكته سماكة سور القلاع، وحسنه بقضاء للجامع يقوم سقفه على غابة

كثيفة من الأعمدة الفخمة بلغت ١٢٩٣ عمودًا. وأنفق على بنائه في خلال سنة، ألف دينار، على ما يُقال. وأصبح مسجد قرطبة كعبة المسلمين في بلاد الغرب. وعندما استعاد الإسبان بلاد الأندلس حول المسجد إلى كنيسة باسم عزراء الصعود. ولا يزال البناء قائمًا، ويُعرف بـ "المزكيتا" أي المسجد. وبعد الحمراء يُعدّ أكثر الأمكنة الأثرية اجتذابًا للسياح<sup>١</sup>.

وبالإضافة إلى مسجد قرطبة، يعزو المؤرخون الفضل لعبد الرحمن في إنشاء أبنية عامة في العاصمة، دينية وغير دينية. كذلك جند سنة ٧٦٦ الحصون القديمة التي كان قد انقضى نصف قرن على إنشائها، وكبّر الجسر الممتد فوق الوادي الكبير، وحسّن قناة الماء، لا لزيادة الماء للسكان الذين زاد عددهم فحسب، بل لكي لا تعطش المدينة في حال الحصار أو انحباس المطر. وبنى لنفسه دارًا بالقرب من المسجد الكبير، عُرفت ببيت الإمارة، لكي تحلّ محلّ الدار القديمة التي كانت مقرّ الحكومة منذ عهد القوط. وعلى بُعد ميلين خارج قرطبة ابتنى لنفسه دارة فخمة وأحاطها بحديقة زرع فيها مختلف الأزهار النادرة الغريبة وأنواعًا كثيرة من الشجر، وسماها "الرصافة" على اسم الرصافة في بغداد، وهي ضاحية على الفرات ابتنى فيها جدّه دارة جميلة نشأ وترعرع فيها عبد الرحمن نفسه. وكان من عادة الخلفاء الأمويين أن يُنشئوا دورًا في الريف للصيد وللاستجمام والراحة ممّا يُشبع فيهم الحنين إلى عيش الصحراء<sup>٢</sup>.

كان الشعر، كالخطابة، من الشروط الأساسية التي يجب أن يتحلّى بها رئيس الدولة، وعبد الرحمن كان شاعرًا خطيبًا. وقد يكون من الإسراف أن نعزو إليه إدخال

---

١ - حَتّي، صلتع التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ١٠٠ - ١٠١.

٢ - المرجع السابق.



النخيل إلى الأندلس، إذ إنَّ الفينيقيين هم الذين أدخلوه إلى البلاد بزرعهم نوى التمر أولاً. غير أنَّ العرب في الأندلس يجب أن يكونوا قد أدخلوا أنواعاً منه من شمالي أفريقيا، كما أنهم أدخلوا زراعة الأرز<sup>١</sup> والمشمش والدراقن والرمان والبرتقال، المر منه والنوع الذي يُعرف بالإشبيلي، وقصب السكر والزعفران، وغيرها من النبات والفاكهة، كما يدلُّ على ذلك بقاء أسمائها العربيَّة في البرتغاليَّة والإسبانيَّة. وأسفرت الجهود الزراعيَّة التي بذلها العرب في الأندلس عن ازدياد في إنتاج الأرض.

ولم يكن عطاء العرب في حقل الصناعة بأقلَّ منه في حقل الزراعة، فإنَّهم أدخلوا صناعة تطعيم المعادن بالذهب والفضة من دمشق التي اشتهرت به. وقد ازدهرت هذه الصناعة في عدد من المدن الإسبانيَّة، ومنها انتقلت إلى فرنسا ودول أوروپيَّة أخرى، كما يدلُّ على ذلك بقاء كلمات مثل لفظة DAMACENE وDAMASKEEN في اللغات الأوروپيَّة. ولا يزال السياح الذين يفدون إلى طليطلة يبتاعون سكاكين ومقصَّات مصنوعة على أنماط دمشقيَّة كالتي كانت تُصنع في العصور الوسيطة<sup>٢</sup>.

\*\*\*

كان عبد الرحمن صقر قريش، هو الذي شقَّ طريقَ المجد لعاصمة الأندلس الإسلاميَّة، غير أنَّها لم تصل إلى نروة مجدها وعزَّها إلَّا في عهد خلفه الثالث وسميَّه<sup>٢</sup>، وخلف سميَّه الحكم<sup>٣</sup>.

١ - حتَّى، صانعو لتاريخ العربي، مرجع سابق، ص ١٠١ - ١٠٢.

٢ - المقصود عبد الرحمن الثالث (٢٧٧ - ٣٥٠هـ / ٨٩٠ - ٩٦١م): لقبه الناصر، جاء التعريف عنه سابقاً.

٣ - الحكم الثُلثي للمستنصر (٣٠٢ - ٣٦٦هـ / ٩١٤ - ٩٧٦م): الخليفة الأمويُّ الثُلثي في الأندلس ٩٦١، ولَد وتوفِّي في قرطبة، ابن عبد الرحمن الثُلث، أجبر ملكي قشتالا ونافارا على عقد صلح معه ٩٦٦، صدَّ للنورمانيِّين والفاطميين، كان محبًّا للكتب وشجَّع العلماء والأدب فحدث قرطبة في عهده مركزاً ثقافيًّا وحضاريًّا يطمُّ للرياضيَّات والطبِّ وعلم الفلك.

في سنة ٩٢٩، أي بعد تسنّمه الإمارة بسبعة أعوام، أعلن عبد الرحمن الثالث نفسه أمير المؤمنين، في الوقت الذي وصلت فيه الخلافة العبّاسيّة إلى الحضيض. وقد عاشت هذه الخلافة الأمويّة الجديدة في الأندلس حتّى سنة ١٠٣١. وكان عبد الرحمن الأول قد أوصى، بعد وفاته، بالإمارة لولده هشام\* متّبعًا بذلك ما فعله معاوية عندما عين يزيد خليفة بعده<sup>١</sup>. فيكون عبد الرحمن قد حرم ابنه البكر سليمان، الذي كان أكبر من أخيه هشام بإحدى عشرة سنة. وكان هشام، كما كان يزيد بن معاوية، ابنًا لأمّ نصرانيّة. وجعل الإمارة أو الخلافة وراثيّة من شأنها أن تبقى على الاستقرار والاستمرار في حياة الدولة. وفي الذكرى السنويّة الأولى لإمارته، ذكر عبد الرحمن في خطبة الجمعة اسم الخليفة العبّاسي. وقد احتُفظ بذكر الخليفة العبّاسي في الأندلس زمانًا كما تدلّ على ذلك الكتابة التي كانوا ينقشونها على النقود والتي وصلنا منها بعض النماذج<sup>٢</sup>.

## النهائية...

### غيرُ البداية

بدأ عبد الرحمن حياته السياسيّة متحلّيًا بحلم معاوية ولكنّه أنهاها متتبعًا خطى السفّاح العبّاسي. نذكر من حلمه ما أبداه نحو الأهلين في قرطبة عندما تمّ له الاستيلاء عليها. ثمّ إنّّه حاول بعد ذلك أن يستميل إليه الدّعدويّين: الفهري\* والصّميلي\*. لكنّ الأحداث التي اختبرها في ما بعد بعثت في نفسه اليأس والقنوط من تصرف الناس

١ - راجع: الجزء الثامن عشر من هذه الموسوعة.

٢ - حتّى، صلتو لتاريخ العربي، مرجع سابق، ص ١٠٢ - ١٠٣.

الذين أحسن إليهم. فراح يُظهر من القوة ضروبًا، فكان الصلب، بعد قطع الرأس، قصاصًا مفضلًا عنده، وأصبح مع أصدقائه عنيذًا متصلبًا بقدر ما كان قاسيًا ظالمًا مع أعدائه. لم يُظهر من الرحمة ما يبرّر تسميته عبد الرحمن، والرحمن صفة من صفات الله. ولم يمض زمن حتّى نشأت في نفسه عقدة العصمة. كان يعتبر ذاته معصومًا عن الخطأ. ومن لا يشاركه الرأي يصبح متهمًا في ولاته. ولم يعد عبد الرحمن ذلك الأمير الذي كان يتجول في شوارع عاصمته يكلم الناس ويعاشرهم، بل أصبح الآن كنيئًا نكيد المزاج يؤثر العزلة وراء أسوار تحرسها أسنة الحراس، وانقلبت بهجة الحياة ولذتها إلى كآبة ومرارة. وقد جرّو يومًا فقيه عالم أن يتحدّى إرادة عبد الرحمن الذي كان طلب إليه أن يتولّى القضاء في قرطبة، وإذ رفض الفقيه أن يقضي لحاكم يعتبر نفسه فوق حكم الله وشرعه، أخذ عبد الرحمن يقتل شاربيه، وكان هذا من دلائل الغضب. وعندما رآه حراسه في هذه الحالة العصبية أوجسوا خيفة وترقّبوا أن يحكم عليه بالإعدام. لكنّ الله سبحانه دفع الشرّ عن الفقيه، وصاح به عبد الرحمن: أخرج من هنا، لعنة الله على من سمّاك لي قاضيًا. وكان الذي أوصى به قاضيًا ولديه سليمان وهشام. وهكذا تفرّق عنه أصدقاؤه الذين كان يأتئمنهم ويثق بهم، الواحد تلو الآخر. وكان أول من غضب عليه عبد الرحمن صديقه ومعاونه أبو الصيّاخ الذي رفع عمامته على قناة لتكون راية خضراء. بعد أن فقد عمامته فقد رأسه. أمر عبد الرحمن بقطع رأسه بعد أن عزله عن ولاية قرطبة. ولمّا تزعم أبو الصيّاخ ثورة قام بها اليمينيون الناقمون، كاد عبيد الله، الذي كان عبد الرحمن مدينًا له بالإمارة، أن يلقي المصير نفسه الذي لاقاه أبو الصيّاخ، ولكنّ عبد الرحمن استعاض عن قطع رأسه بإهماله ونبذه كليًا. ولم يسلم مولاه الوفيّ الودود، بدر، من شرّه. ذلك أنّ بدرًا لم يعد ذلك العبد الذليل الخنوع لأوامر سيّده. فصادر أمواله وممتلكاته ونفاه إلى مدينة عند الحدود. ولكنّ أقسى ما أنزله من عقوبات صارمة كانت تلك التي أنزلها بأقربائه

وأنسبائه. وكان أولهم أميران أمويان كانا يأتريان على عبد الرحمن عندما أفضى أمرهما فأمر بقطع رأسيهما. وأمر من قتل الأميرين الأمويين كان قتل ابن أخ له: المغيرة ابن الوليد، الذي راح يدبر مؤامرة مع ابن الصمّيل، ولكن اقتضاح الأمر أدّى إلى قطع رأس المغيرة بأمر من عبد الرحمن. وفي ساعة كآبة ووجوم راح عبد الرحمن يعبر عن الألم النفسي الذي ألمّ به من جرّاء هذه الحوادث. ويقول:

أعظم ما أنعم الله به عليّ، بعد تمكّني من هذا الأمر، القدرة على إيواء من يصل إليّ من أقاربي، والتوسّع في الإحسان إليهم، وكيري في أعينهم وأسماعهم ونفوسهم، بما منحني الله من هذا السلطان الذي لا منّة عليّ فيه لأحد غيره... ما عجبني إلّا من هؤلاء القوم. سعيّنا في ما يرضعهم في مهاد الأمن والنعمة، وخطرنا فيه بحياتنا. حتّى إذا بلغنا منه إلى مطلوبنا، ويسر الله أسبابه، أقبلوا علينا أمام السيوف. ولما آويناهم وشاركناهم في ما أفردنا الله به، حتّى آمنوا، ودرت عليهم أخلاف النعم، هزّوا أعطافهم، وشمخوا بأنافهم، وسموا إلى العظمى. فنازعونا في ما منحهم الله، فخذلهم بكفرهم النعم، إذ اطلعنا على عوراتهم، فعاجلناهم قبل أن يعاجلونا، وأدّى ذلك إلى أن ساء ظنّنا في البريء منهم. وساء أيضًا ظنّه فينا. وصار يتوقّع من تغيرنا عليه ما نتوقّع نحن منه. وإنّ أشدّ ما عليّ في ذلك أخي، والدّ هذا المخذول، كيف تطيب لي نفسي بمجاورته، بعد قتل ولده وقطع رحمه؟ أم كيف يجتمع بصري مع بصره<sup>١</sup>.

بعد ذلك دفع بصرّة من المال فيها خمسة آلاف دينار، إلى أحد أعوانه، وأمره بالتوجّه إلى أخيه الوليد ليعتذر عن مقتل ابنه. وطلب إلى الرسول أن يقول لأخيه إنّهُ يجب عليه مغادرة الأندلس إلى حيث يشاء<sup>٢</sup>.

١ - المقرئ، فتح الطيب من غسن الأندلس للطبيب، مرجع سابق، ٢: ٣٧.

٢ - حتّى، صنفو للتاريخ العربي، مرجع سابق، ص ١٠٥.

في الثلاثين من شهر أيلول (سبتمبر) سنة ٧٨٨ توفي الأمير الحزين ونُفن في عاصمة ملقّه...

طريدًا من سوريا، ومُتشرّدًا في شمالي أفريقيا، ومطالبًا بإمارة الأندلس، ومؤسس الدولة الأموية المجيدة الثانية، ومناهض أقوى وأعظم سلطانين حاكمين في الغرب والشرق، هذا ما كانه عبد الرحمن، أول عربي خلد اسمه في سجل التاريخ الأوروبي<sup>١</sup>.

## بقايا

## عربية

عبر العرب مضيق جبل طارق سنة ٧١١ وأسّسوا مركز إمارتهم الغربية في الأندلس التي ظلت تحت حكمهم حتى القرن الثالث عشر حين استردّ ملوك قشتالة معظمها، ولم تبقَ إلا مملكة غرناطة العربية التي سقطت في يد الملوك الكاثوليك سنة ١٤٩٢. وكانت الحقبة العربية العهد الذهبي للأندلس، ففيه ازدهرت الزراعة والتعدين والتجارة والصناعة والثقافة، ما حقق رخاءً رائعًا للإقليم، وقد ازدانت غرناطة وإشبيلية وقرطبة بأروع الآثار العربية في إسبانيا، وهي لا تزال مراكز للثقافة والعلوم والفنون، ولا يزال تأثير العرب ملحوظًا في أخلاق السكّان ولغتهم وتقاليدهم. ولسكّان إسبانيا ولع كبير بأغاني الأندلس ورقصاتها. ذلك كلّ ما تبقى من فتح العرب للأندلس، أمّا الإسلام فلم يتمكّن من الصمود، على عكس صموده في سائر الأقطار التي داخلها في أيّ مكان آخر من العالم.

---

١ - حتى، صناعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ١٠٥.

